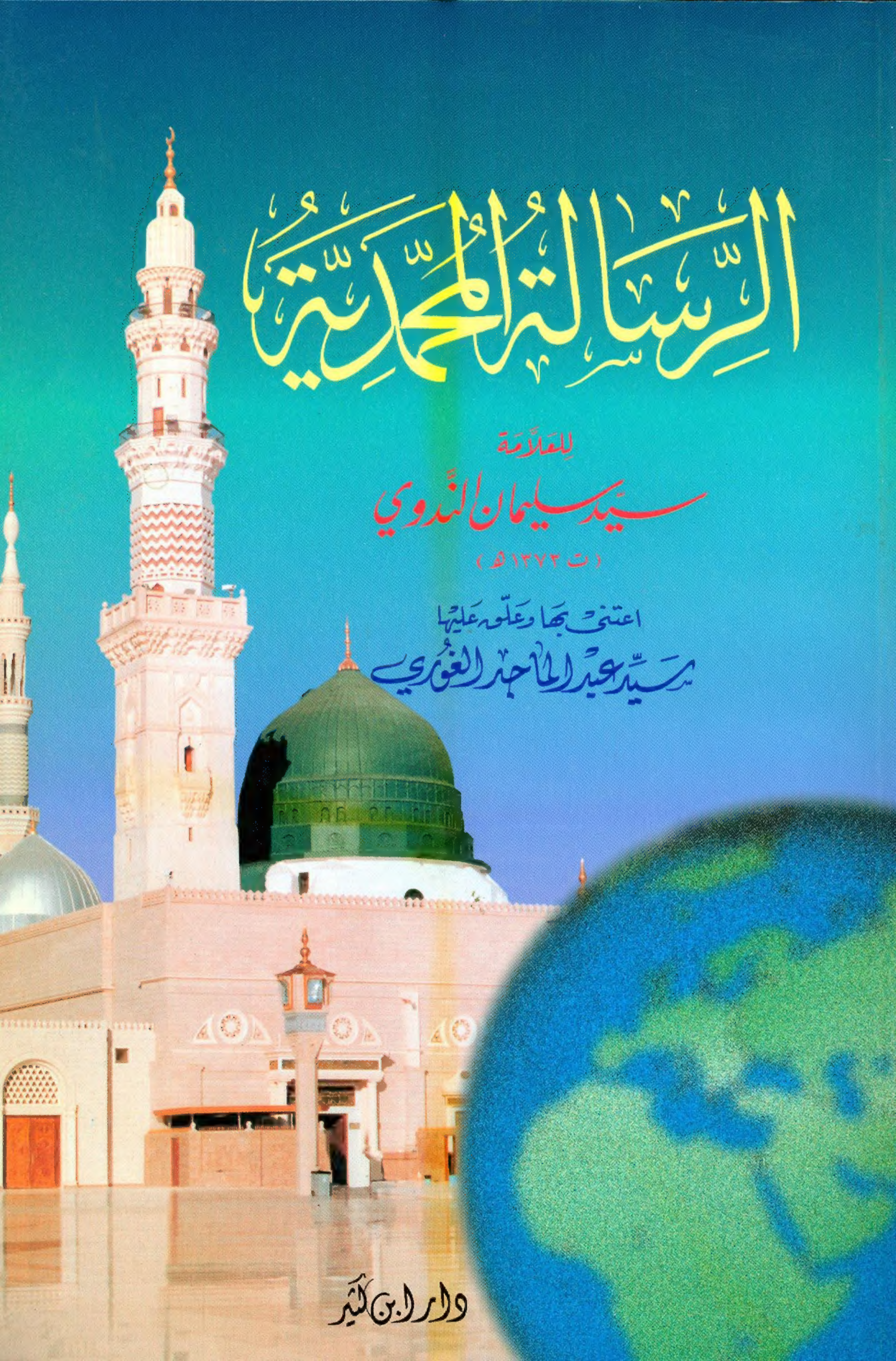

الرسالة المحمدية
للعلامة
سيد سليمان الندوي
(ت ١٣٧٣هـ)
اعتنى بها وعلّق عليها
سيد عبد الماجد الغوري
دار ابن كثير



وهي ثماني محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الإسلام

للعلامة

سيد سليمان الندوي

(ت ١٣٧٣ هـ)

ترجمها إلى العربية

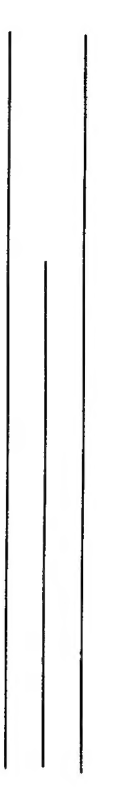
الأستاذ محمد ناظم الندوي

اعتنى بها وعلق عليها

سيد عبد الماجد الغوري



دمشق - بيروت




الرسالة المحمدية
وهي ثماني محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - ٣ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ٦٣١٨ / ١١٣ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

مقدمة الكتاب

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّد المرسلين وخاتم النَّبيِّين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

أما بعد؛ فإن المكتبة الإسلامية حافلةٌ بالكتب في موضوع السِّيرة النَّبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وإذا استعرضنا اللغات الأكثر تأليفاً في هذا الموضوع غير العربية نجد اللغة الأردوية أكثرها تأليفاً وأغناها في هذا الموضوع ، وهي تحتوي على أقوى وأروع ما كتب في السيرة النبوية في العصر الأخير .

ومن جملة تلك الكتب فيها بالأردوية «سيرةُ النَّبي ﷺ» للعلامة الباحث المؤرخ الشيخ شبلي النُّعماني[1] الَّذي بدأ بتأليفه وأكمل جزءين منها إذ عاجلتْه منيتُه ، فعُني بتأليف الأجزاء التالية تلميذُه النابغ العبقري العلامة سيد سليمان النَّدوي حتى أكمله في سبعة مجلدات ضخمة التي تعتبر اليوم

---

(١) هو الأستاذ العلامة المؤلف ، الباحث المؤرخ العلامة الشيخ شبلي النعماني أحد رجال النهضة الإسلامية وكبار المصلحين في الهند ، شارك في تأسيس دار العلوم ـ ندوة العلماء ، وأنشأ دار المصنفين في أعظم كره ، كان وثيق الصلة بالعالم الإسلامي ونهضاته السياسية والاجتماعية ، توفي سنة ١٩١٤ م ، ومن مؤلفاته المشهورة بالعربية «انتقاد تاريخ التمدن لزيدان» وبالأردوية «السيرة النبوية» (الجزء الأول والثاني) و«سيرة الفاروق» و«النعمان» ، انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب : «شبلي النعماني علاَّمة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب» للأستاذ محمد أكرم الندوي ، طبع دار القلم دمشق ، وكتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» .

موسوعة في السيرة النبوية بالأردوية ، ليس لها نظير في أيِّ لغةٍ من لغات العالم الإسلاميِّ من أقصاه إلى أقصاه.

وقد فَاقَ العلامة سيِّد سليمان في تأليفها أستاذَه العلامة النُّعماني في الاطلاع على أسرار الشريعة ، واستكناه وجوه التعويل ، ومعرفة السنة النبوية ، واستعراض الوقائع والحوادث استعراضاً علمياً دقيقاً يضيق بنا نطاق المقام هنا عن سرد تفاصيل مواضيعها. يقولُ راويةُ العصر ، وأمين التراث الإسلامي **العلامة الكبير الشيخ محمد زاهد الكوثري** مشيداً بهذا الكتاب ومقترحاً بترجمته إلى العربية على علماء الأزهر: «. . . **كتاب الأستاذ شبلي النُّعماني الهندي وتلميذه وزميله الأستاذ سليمان الندوي في تمحيص السيرة النبوية عن الروايات الزائفة ـ باللغة الهندية في عدَّة مجلدات ـ قد سدَّ فراغاً كبيراً في فضح دخيلة المستشرقين والردِّ عليهم ، وقد ترجم إلى اللغة الإنكليزية ثم إلى اللغة التركية ، ولو قام بعضُ رجال الأدب بترجمته إلى اللغة العربية مع إصلاح بعض مواضع أخطأ فيها لكان هذا عملاً نافعاً يردُّ به كيد أمثال البرنس كيتانو الإيطالي**[١] ، **وغولد زيهير الهنغاري. . .**»[٢].

وبعد هذا لا نبالغ إذا قلنا: إنَّ صاحب هذا الكتاب الضخم العلاَّمة سيد سليمان الندوي من كبار المؤلفين في السيرة النبوية لعصره ، وقد كان من مزاياه أنه بلغ في توسيع نطاق السيرة النبوية من سرد الأحداث ، وبيان الشمائل ، ووصف العادات إلى الرسالة المحمدية والتعليمات النَّبوية والشريعة الإسلامية ، وبحث شعبها المختلفة مبلغاً لم يبلغهُ أحدٌ قبله.

وهذا الكتاب الَّذي بين يديك هو مجموعة من ثماني محاضرات للعلامة الندوي التي ألقاها بالأردوية تلبية لدعوة من هيئة التعليم الإسلامي بمدينة

---

(١) كتابه في تاريخ الإسلام في مجلداته العشر مترجم إلى بعض اللغات الشرقية ، وهو كتاب خطير يسعى المؤلف في طياته إلى وصم الإسلام وتاريخه المقدس تحت ستار البحث العلمي.

(٢) مقالات الكوثري ، ص ٦٢٨ ـ ٦٢٩ ، طبع المكتبة الأزهرية.

مداراس (الهند) عام ١٩٢٥ م ، تُلقي هذه المحاضرات الضوء على جوانب السيرة النبوية المختلفة ، وتقدِّم إلى القارىء عصارة أمهات كُتُبِ السيرة النبوية وما كُتِبَ فيها باللُّغات الأجنبية ، وخلاصة لمجلَّداتٍ ضخمةٍ لكتابه «سيرة النبي ﷺ» يقول فيه فقيد الدَّعوة الإسلامية **العلاَّمة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي**:

« . . . فهو من أقوى الكتب في السِّيرة وأروعها في جمال التعبير ، وبثِّ حلاوة الإيمان ، وتوثيق الصلة بذات النَّبيِّ ﷺ ، والكتاب عصارة لمكتبة كاملة في السيرة النبوية ، وهو هديةٌ ثمينةٌ لغير المسلمين والمثقفين المسلمين ، والباحثين عن الحق للتعريف بالإسلام ، ولعرض سيرة النبي ﷺ بإيجازٍ ، وأسلوب مقنع مؤثِّر . . . »[(١)].

وقد طُبعت مجموعة هذه المحاضرات للمرة الأولى عام ١٩٢٥ م باسم « خطبات مداراس » في كتابٍ مستقلٍّ ، ونال تلقياً كبيراً ، وإقبالاً عظيماً لدى القراء ، حتى صدرت لـه عـدَّة طبعات في مدَّةٍ قصيرة ، وسرعان ما صار الكتاب أهمَّ مرجعٍ فـي السيرة بالأردويـة ، قلما تخلو اليوم منه مكتبة من مكتبات ناطقي اللغة الأردوية ، ثم ترجم الكتاب للإنكليزية باسم Mohammad The Ideal Prophet ، وكان الإقبال عليه مثل صنوه بالأردوية.

ثم أراد العلامة المؤلف نقله إلى العربية لرغبة ملحة من الإخوة العرب ، لكن كثرة المشاغل وضعف الصحة لم يسمحا له بذلك ، فتولَّى عملية ترجمته إلى العربية تلميذُه الشاعرُ الأديبُ الأستاذُ محمد ناظم النَّدوي وأكمله في مدة قصيرة بأسلوب عربيٍّ أصيل يترقرق في غضونه وثناياه حلاوةٌ وبهاء؛ من حَيث لا يشعر القارىء بأنه مترجَم من لغةٍ إلى لغةٍ ، وتلك مقدرة فائقة يغتبط بها الأستاذ الكريم أي اغتباط ، فصدرت له طبعاتٌ عديدةٌ في مصر وسورية ، ولكنها كانت في حاجة إلى التنقيح والتحقيق وبعض

---

(١) «شخصيات وكتب» للعلامة أبي الحسن الندوي ، ص ٥٦ ، طبع دار القلم ـ دمشق.

التعليقات والتراجم التي لا بدَّ منها ، فأشار عليَّ أحد أساتذتي الندويين أن أقوم بهذا العمل ، وكانت لهذا الكتاب منَّة عظيمةٌ عليَّ كونه من باكورة الكتب التي قرأتُها في السِّيرة في الصغر.

فقمتُ بهذا العمل ما وسعني فيه من الجهد متهيباً خاشعاً أمام جلال الموضوع ، ومنزلة العلامة المؤلف ، وعلو كعبه ، وضلوعه في السيرة النبوية مؤمناً بضآلة قدر نفسي ، وقلة بضاعتي في علم السيرة النبوية حيث لا أزال طالباً صغيراً في مدرسته الوسيعة ، أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يتقبَّله تقبلاً حسناً ، وأن يجعل عملي فيه خالصاً لوجهه ، إنَّه سميع مجيب.

دمشق ١٤ ذي القعدة ١٤٢١ هـ
٧ شباط ٢٠٠١ م

كتبه
المعتز بالله تعالى
عبد الماجد الغوري

ترجمة العلاَّمة سيِّد سليمان الندوي

إنَّ الذين نعرفهم من رجال العلم الإسلامي ، والذين عرفناهم ، واتصلنا بهم ، ودرسنا سيرهم وتراجمهم من رجال الهند وباكستان تنحصر عظمتهم ونبوغهم في ناحيةٍ دون ناحية ، أو عدَّة نواحٍ من نواحي الحياة وشُعب العلم ، ولكننا لا نعرف من بينهم مَن أخذ من كلٍّ شيءٍ بقسط كالعلامة سيد سليمان الندوي .

تخرج العلامة سيد سليمان الندوي في دار العلوم التابعة لندوة العلماء على أساتذتها ومنهم العلامة المحقِّق شبلي النعماني .

وجعل من بعد ذلك يساعد الأستاذ النعماني في تحرير مجلة «الندوة» التي كان يرأس تحريرها ، والتي كانت أمَّ المجلات الأردية العلمية يومئذ . ثم عُيِّن مدرساً للغة العربية في دار العلوم التي تخرج فيها ، فظهر من كفاءته ، وملكته الأدبية ، وتفننه في طرق التدريس ما أنطق الألسنة بالثناء عليه . فظلَّ كذلك زهاء ست سنين (١٩٠٦ ـ ١٩١٢) كتب خلالها مقالات في مجلة «الندوة» .

ثم التحق بصحيفة «الهلال» الأسبوعية الزاهرة لأبي الكلام[١] ـ التي لم

---

(١) هو محيي الدين بن خير الدين ، أبو الكلام آزاد ، أحد كبار علماء المسلمين وزعمائهم في الهند ، وأحد كبار المؤلفين في هذا العصر ، اشتغل في تحرير الهند من الاستعمار البريطاني ، وتكرر اعتقال البريطانيين له ، يقول الأستاذ أنور الجندي: «أمضى في السجن أحد عشر عاماً ولم يصرفه عن هدفه في مقاومة الإنجليز ، وصنف=

تصدر صحيفة أسبوعية مثلها باللغة الأردية إلى الآن ـ فعارض صاحبها المبدع في أسلوبه ، وجعل ينشيء مقالاتٍ افتتاحيةً ، لم يعرف الناس أبا عذرها وابن بجدتها ، فتارة نسبوها إلى أبي الكلام ، صاحب الصحيفة ورئيس تحريرها وأخرى عزوها إلى سيد سليمان .

وبعد الانقطاع عن دار الهلال أسَّس جمعية دار المصنفين الشهيرة التي كان وصَّى بها أستاذه شبلي النعماني وعاجلته المنية دون إبراز أمنيته ـ أمنية تأسيس مجمع علمي ـ إلى عالم الوجود. تأسس هذا المجمع العلمي ـ دار المصنفين ـ سنة ١٩١٥ م ، ١٣٢٣ هـ في مدينة أعظم كره[١] مولد الشبلي النعماني ، ومنبت أرومته ، فعكف السيد سليمان يتعهَّد الدار ، ويُعنى بتدريب الشبان ، وتثقيف أحداث الكُتَّاب ، وينشر نتاج قرائحهم بعد تهذيبه إلى أن تكونت جماعة صالحة من أفاضل الكتاب والمؤلفين الذين وقفوا حياتهم لخدمة الدين والعلوم الإسلامية ، وأصدر من دار المصنفين مجلة «معارف» الشهرية بالأردوية التي تعتبر أرقى مجلة علمية في الهند.

ومن أبرز أعماله العلمية وأرفعها ذكراً إكماله لكتاب (سيرة النبي ﷺ) الذي كان بدأ بتأليفه أستاذه المحقق العلامة شبلي النعماني ، وهذا الكتاب هو دائرة معارف في السيرة النبوية ، نشرت منه سبعة مجلدات ضخمة لا يقلُّ أحدها عن سبعمئة صفحة من القطع الكبير ، وهذه المعلمة من عيون ما ألَّفه علماء الإسلام منذ قرون ، ومن غرر ما أهداه علماء الهند إلى المكتبة الإسلامية العامَّة.

وله مصنفاتٌ علميةٌ نافعة غير هذا الكتاب الضخم ، سارت سير الشمس

= في السجن كتابه «التذكرة» بالأردوية. بعد استقلال الهند تولى رئاسة البرلمان ، ثم وزارة المعارف إلى أن توفي سنة ١٩٥٨ م ، وله مؤلفات قيمة نافعة ، انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين».

(١) مدينة صغيرة تقع في ولاية «ترابرديش» في شمال الهند.

ـ كمحاضراته في السيرة النبوية المعروفة بـ(خطبات مداراس[1]) و(سيرة عائشة) و(أرض القرآن) و(العرب والهند) و(خيَّام) وغيرها من آثار قلمه التي تفاخر بها اللغة الأردية. وقد بلغ في المواضيع المختلفة من التحقيق والإجادة ما لم يبلغه أحدٌ من معاصريه في هذه البلاد، وأضرب مثلاً لذلك مصنفه الشهير في جغرافية القرآن التاريخية المسمَّى (أرض القرآن) فقد تناول فيه بالبحث والتحقيق جميع البلاد والأمم المذكورة في الكتاب العزيز، وأحاط بتاريخهم، وجغرافية أماكنهم التي كانوا يقطنونها. صنفه منذ أربعين سنة، والموضوع بكر لم تطمثه أقلام الباحثين، وقد نقل هذا الكتاب النافع ـ مثل بعض مؤلفاته الأخرى ـ إلى اللغة الإنكليزية، وكذلك كتابه عن الشاعر الشهير الخيام، يعدُّ من أحسن ما أُلف في هذا الباب على كثرة ما ألف في الموضوع ببلاد الغرب، وقد شهد بذلك بعض كبار رجال الهند المطلعين على مصنفات الغرب في هذا الموضوع.

وبالنظر إلى هذه المؤلفات القيمة يمكن أن يصدر الحكم بأنَّ شخصاً واحداً في بعض الظروف ينجز من الأعمال العلمية الهائلة ما لا تستطيع الأكاديميات الكبيرة إنجازه، وقد كتب شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال، الذي كان بدوره عالماً كبيراً بالفلسفة والعلوم الشرقية، في رسالة له: (إنَّ سيد سليمان الندوي يفجِّر من الصخرة ينبوعاً من العلم، ويمتلك ناصية العلوم الإسلامية).

كان من مزايا شخصية العلاَّمة سيد سليمان الندوي: الجامعية، والشمول في المعرفة والبحث، فقد كان خبيراً بالعلوم القديمة والعصرية، وكان مؤرخاً، وأديباً، وناقداً، ومحققاً، وبجانب ذلك كان فقيهاً ومحدثاً في آن واحد، وبالإضافة إلى هذا الاشتغال والشغف بالبحث العلمي كان من كبار القادة لحركة تحرير البلاد والانتفاضة السياسية للمسلمين، فكان يرأس اجتماعاتٍ وحفلاتٍ أدبيةً ولغوية، ويرأس مجالسَ فقهيةً، ودينيةً تضمُّ العلماء، وكان أحد أعضاء وفد حركة الخلافة الذي توجه إلى إنكلترا

---

(١) وهو الآن يُقدَّم محققاً ومنقحاً لأوَّل مرَّة باسم «الرسالة المحمدية».

برئاسة زعيم الأحرار مولانا محمد علي في عام (١٩٢٠ م) ، لشرح مشاعر المسلمين إزاء قضية الخلافة على المسؤولين البريطانيين ، والمثقفين ، وقادة الفكر في بريطانيا ، وترأس أيضاً وفد الخلافة الذي اشترك في المؤتمر الإسلامي الأول؛ الذي دعا إليه الملك عبد العزيز بن سعود في عام (١٩٢٦ م) ، وكان أحد الأعضاء الثلاثة للوفد الذي توجه إلى أفغانستان بناءً على دعوة نادر خان ملك أفغانستان لإعداد خطَّةٍ جديدة للتعليم في أفغانستان ، وكان العضوان الآخران في الوفد الدكتور محمد إقبال ، والسر رأس مسعود نائب رئيس الجامعة الإسلامية بعليجرة.

وقد انتقل في آخر حياته ـ قبل انتقاله نهائياً إلى باكستان ـ إلى إمارة بهوبال ، وشغل مناصب رئيس القضاة ، وأمير الجامعة الأحمدية ، والمستشار للشؤون الدينية ، ومكث هناك أربع سنوات ، ثم اشترك في إعداد الدستور لجمهورية باكستان الإسلامية ، وقام بإرشاد هذا البلد الفتي دينياً.

وبقي مشغولاً بالذكر والعبادة ، والتربية والإفادة ، إلى أن وافاه الأجل في غرة ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة وألف هجرية (١٩٥٢ م) في كراتشي ، وحضر جنازته كبار العلماء وأعيان البلاد ، وسفراء الحكومات الإسلامية والعربية ، ودفن بجوار الشيخ شبير أحمد العثماني[١].

* * *

---

(١) انظر: «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للعلامة عبد الحي الحسني ، الجزء الثالث ، و«شخصيات وكتب» للعلامة أبي الحسن الندوي ، ص ٥٦ ، ومجلة «المسلمون» المجلد الخامس ، ص ٣٨٤ ، و«الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين» للمحقق.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

هذه ثماني خطب في ثماني نواحٍ من السيرة النبوية ، على صاحبها الصَّلاة والتحية ، ألقيتها ، سنة ١٣٤٤ هـ باللغة الأوردية ـ لغة عامة الهند ـ على جماعاتٍ من شباب المسلمين وطلبة الكليات في مدينة مداراس بالهند ، فاستمع لها الحاضرون بآذانٍ صاغية ، وتلقاها المستمعون بقلوبٍ واعية ، وقرَّظتها الصُّحف والمجلاَّت بكلماتٍ مشجعة ، وامتدحها أهل الفضل بالثناء والإطراء ، جزاهم الله خيراً. وكان ذلك مما شجعني على طبعها ، ونشرها ، فطبعت ونشرت مرَّات ، وأدخلت في مناهج التعليم في بعض الولايات. ثم نقلها بعض المترجمين إلى الإنكليزية فعمَّ نفعها. وقد أحببتُ أن أنقلها إلى العربية لتُردَّ البضاعةُ إلى أهلها ، فلم يتيسَّر لي ذلك لكثرة المشاغل ، فرغبتُ إلى بعض أصحابي أن يكفوني مؤونة النقل ، فاستجاب لذلك الأخ الصالح الأديب الفاضل محمد ناظم النَّدْوي أستاذ اللغة العربية بدار العلوم لندوة العلماء سابقاً ، وشيخ الجامعة العباسية في بهاولبور الآن ، فأتمَّ ذلك في عدة أشهر من سنة ١٣٦٦ هـ وحالت دون طبعها حوادث سياسية حدثت بالهند.

فلما سكنت الزعازع ، وأتيح لي الاتصال ببعض الإخوان من العرب المسلمين ، سألوني أن أقدم إليهم بعض مؤلفاتي لتنشر على أبناء العربية

بمصر ، فلبيتُ دعوتهم ، وأهديت إليهم هذه الخطب لتكون مقدمةً لأخواتها. وأسأل الله تعالى أن ينفع بها شباب المسلمين ، ويجعلها وسيلةً لي يوم الدين.

كراتشي (عاصمة باكستان)[1]
٢٠ شعبان ١٣٧١ هـ
١٤ مايو ـ أيار ـ ١٩٥٢ م

المخلص الداعي
سليمان الندوي

---

(١) حين كتابة العلامة المؤلف هذه المقدمة كانت «كراتشي» عاصمة باكستان ، ثم انتقلت إلى «إسلام آباد».




المحاضرة الأولى

سيرة الأنبياء هي الأُسوةُ الحسنة للبشر




خصائص النباتات أكثر من خصائص الجماد ، فواجباته أكثر ، وخصائص الحيوان أكثر من خصائص النباتات ، فواجباته أكثر ، ومدارك الإنسان أرقى ، فواجباته أعظم.

هذا العالم ـ وإذا سميناه «المتحف الأعظم» لم نعدُ الحقَّ ، ولم نرتكب الشطط[١] ـ يحتوي على أنواع من المخلوقات : ففيه ما شئت من جمادٍ بديع الألوان ، غريب الهيئات ، وما يقع عليه نظرك من نباتٍ بين أخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، وأحمر قانٍ إلى غير ذلك من شتى الألوان ، وفيه ما يخطر أو لا يخطر على بالك من حيوانٍ لو حاول أحدنا أن يحصي أنواعه لأعياه ذلك. ومن أنواعه نوعٌ عجيب يفوق سائر الأنواع في هيئته ، ويفضلُ عليها بعلمه ونشاطه ، وهو الإنسان.

هذا إذا نظرنا إلى العالم بعين من لا يتبصَّر بحكمةٍ ولا يتدبَّر بعلم. أما الحكيم الذي يُنعم النظر في الأشياء ، والعالم الذي يُحسن التأمُّل في ملكوت الله ، فيبدو لهما من الفوارق بين المخلوقات ما يتميَّز به كلُّ نوعٍ عن غيره ، ويكتشفان في كلِّ شيءٍ الخصوصية التي يمتاز بها ولا توجدُ في الأشياء الأخرى؛ لأن البارىء العظيم لما صوَّر هذه المخلوقات اختصَّ كلاًّ منها بخصائص ، وأودع فيها من القوى ما امتازَ به بعضُها عن بعض. ومن هنا كانت هذه المخلوقات على غير اطِّراد في الطبائع والمواهب ، فتراها تتدرَّج وتَرتقي ـ من أدنى إلى أعلى ـ على مدارج في الشعور والإدراك والإرادة. وإنَّ أَول الجماد وهو الهباءة ـ أو الذرَّة كما يسمُّونها اليوم ـ لا تجد فيها أثراً للحياة : من الشعور ، والإدراك. ومن الجماد ما تلمح فيه أمارةً خفيفةً من أمارات الحياة. أما النبات فإن أمارات الحياة بارزة في نمائه واخضراره ، بيدَ أنَّه في درجة الصفر من حيث الشعور والإدراك. بينما نجد

---

(١) الشَّطَط : بفتحتين مُجاوزة القدر في كل شيء. وفي الحديث «لا وكس ولا شطط» هو لابن مسعود أخرجه موقوفاً أبو داود والترمذي والنَّسائي.

في الحيوان ـ مع الإحساس والشعور ـ إرادةً قويةً تحمله على الحركة: في القعود، والنهوض، والمشي. وللإنسان إحساسٌ تامٌّ، وإدراكٌ كاملٌ، وإرادةٌ بالغة، وعزيمةٌ ماضيةٌ، وإلى هذه القوى الإنسانية ـ من شعورٍ تامٍّ، وإدراكٍ كاملٍ، وإرادةٍ قويَّةٍ، وعزيمةٍ صارمةٍ ـ يرجع تكليفُ الإنسان، ومن جرَّاءِ ذلك قد حمل أَثقال الفرائض، وأَعباء الواجبات. وكلَّما كان نوعٌ من أنواع المخلوقات أقلَّ نصيباً من هذه القوى الموهوبة له من الله، كان أخفَّ عبئاً في المسؤوليات، وأقلَّ واجباتٍ في مناط التكليف. فالجمادُ ليس عليه واجب قطٌّ، والنبات قد نال نصيباً من صفات الحياة فأصابه حظٌّ من الواجبات، أما الحيوان فأكثر حظّاً، وأوفر نصيباً من الجماد والنبات في القوى الحيوية، فثقلت عليه أعباؤه من واجبات الحياة وتكاليفها. ولما كان نصيبُ الإنسان من العقل والمدارك، ومن الذكاء والفطنة، أوفى من سائر المخلوقات وأوفرَ؛ فقد ازدادت تكاليفُه، وواجباتهُ بنسبة ذلك. وتَتَفاوت الواجباتُ والتكاليفُ بين أفراد بني الإنسان بحسب تفاوتهم في مناط هذه الواجبات والتكاليف، أعني العقل والمدارك: فالمجنون، والمعتوه، والأحمق، والصبيُّ لا يُطالبون بما يطالب به العاقل الفطن، والعالم المثقف، ولا يستطيع أولئك أن يقوموا بما يستطيع أن يقوم به هؤلاء، وكلُّ ذلك يرجع إلى تفاوت القوى الباعثة على العلم: بين شعورٍ ناقصٍ، أو إحساسٍ كاملٍ، وخمود الطبيعة، أو توقد القريحة. بل منهم من لا يكلَّف بواجبٍ قطُّ، ومنهم من يكلَّف ببعض الواجبات دون بعضها الآخر، ومنهم من يضطلع بالعبء الأعظم من الواجبات والتكاليف.

ثم إذا تأمَّلنا المخلوقات وأمعنا النَّظر فيها يبدو لنا أنَّه مهما يكن عند مخلوق من شعورٍ ناقصٍ، أو إحساسٍ ضعيفٍ، أو إدراكٍ ضئيل؛ فإنَّ القدرة الإلهية قد تتولَّى تربيته، وترعى نشأته، وتختصُّه بعنايتها، حتى إذا امتازت صفاتُه، وارتقت مميزاتهُ؛ فوَّضت إليه الفطرةُ من أمر نفسه ما تحتمله قواه، وتستحقُّه مواهبه. أليس من مواهب الله لبعض أصناف الحجر أن تتحوَّل في جبالها ومعادنها إلى ياقوتٍ وزمرُّد، وصار لها هذا البريق الذي تتلألأ به أحجارها، بينما باتت الأحجار الأخرى المجاورة

للياقوت والزمرد محرومةً هذا الجمال الذي أخذ بالعيون ، والصفات التي تحيِّر الألباب. ومن ذا الذي يغذو الحيتان في أعماق البحار ، والحيوانات في الآجام[1] والصحاري القاحلة؟ ومن ذا الذي يشفي الحيوان إذا مرض ، ويقيه عوادي الحرِّ والقرِّ[2] في شهور القيظ وليالي الشتاء؟

من جرَّاء ذلك نرى هذا الاختلاف البادي في صُوَر أفرادِ نوعٍ واحدٍ من الحيوان ، وهو يرجع إلى عواملَ مختلفة: من برودة الجوِّ ، وحرارة البيئة ، وطبيعة المناخ. فالكلب الأوربي يختلف عن الكلب الإفريقيِّ بقدر ما بين بلاديهما من اختلاف في الجوِّ والبيئة ، فتختلف بسبب ذلك حاجاتهما ، وتَتَباينُ لوازمُ حياتهما. وقد هيأتِ الفطرةُ الإلهيةُ لكلٍّ منهما أسباب العيش ، ولوازم الحياة التي تلائم طبعه ، وتقضي بها حاجاته. فللكلب الأوربيِّ ما ليس لأخيه الكلب الإفريقيِّ من الفرو[3] الأثيث الضافي[4]. وهكذا ترى الفرق جلياً بين الحيوانات الشرقية والحيوانات الغربية في فرائها ، وشعورها ، وأوبارها ، وبراثنها ، ومخالبها ، وأظفارها بل ترى الفرق أوضح وأجلى في سحنها ، ووجوهها ، وهيئات جلودها. ومردُّ ذلك إلى حكمة خالقها الحكيم المدبِّر ، العليم بكل مخلوق ، وما يحتاج إليه في غذائه ، وبقائه ، ولوازم حياته.

لقد تبين مما تقدَّم: أَنَّ الخالق القيُّوم جَلَّ جلاله تكفَّل بحاجات مخلوقاته المسلوبة الإحساس والشعور ، وأنَّ المخلوقات التي رُزقت الشعورَ والإحساس قد وكلت إليها الفطرةُ الإلهيةُ أمرَ السعي لتحصيل حاجاتها على قدر ما هي حاصلةٌ عليه من الاستعداد الفطريِّ لذلك ، فالإنسان مكلَّف بالسعي في أسباب رزقه ، ومتاع حياته ، وهو يلقىٰ من

---

(١) الآجام: (جمع الأجمة) الشجر الكثيف الملتف.
(٢) القَرّ: البرد.
(٣) الفَرْو: جلود بعض الحيوان ، كالدِّببة والكلاب ، والثعالب ، تدبغ ويُتخذ منها ملابس للدِّفء وللزينة (ج) فِراءٌ.
(٤) الضافي: التامُّ السَّابغ.

التَّعب والعناء ما يلقى في التجارة ، والزراعة ، والصناعة ، وغير ذلك من وسائل الكسب. وليس لجسم الإنسان من الفرو الضَّافي ، والجلد المتين ما يدفع عنه عوادي البرد القارس ، والحرّ اللافح[1] ، لذلك هو مضطرٌّ إلى أن يُعِدَّ بنفسه ما يقي جسمه حرارة القيظ، ولوافح السموم، وبرودة الشتاء ، وسواقع الزَّمهرير[2] ، فيصنع مختلف الثياب المناسبة لكلِّ جوٍّ ، ويعالج ما يُصاب به من أمراضٍ بما هداه إليه إدراكه من عقاقير، وأدوية ، ووسائل.

ومن كان من المخلوقات أقلَّ نصيباً من الإدراك ، وأضعف حيلةً في الحصول على مُتع الحياة ، وأسباب العيش ، تداركته الفطرة الإلهية ، فمنحته في نفسه ، وجسمه من أسباب الوقاية وأسلحة الجوارح ما يدفع به عن نفسه عادية الكون ومخلوقاته ، ويسَّرتْ له سبل العيش: فمن الحيوانات ما وهبه الخلَّاق العظيم مخالب قاطعةً ، وبراثن مرهفةً ، ومنها المسلح في فمه بأسنان مفترسةٍ ، ومنها ذوات القرون ، وذوات الأجنحة ، والسوابح في اليمِّ ، والمدافعة عن كيانها بالحُمة السَّامة ، إلى غير ذلك من الأسلحة والجوارح التي عوَّض الله بها لبعض خلقه عما فقده من نعمة العقل ، ونور البصيرة ، ومذاهب الرأي. أما الإنسان المجرَّد من مثل خرطوم الفيل ، وقرن الثور ، وسمِّ الأفعى ، وحمَّة العقرب وسائر أسلحة الدوابِّ والهوامِّ ، فكان لذلك أعزل ضعيفاً ، إلا أنه قد أوتي من العقل الكامل ، والشعور الشامل ، والحسِّ المرهف ، والفهم الثاقب ، والبصيرة النافذة ، ما لم يؤتَ أحدٌ من خلق الله مثله. وهذه المواهب التي امتاز الإنسان بها على سائر المخلوقات تغنيه عما فقده من القوى الجسمية التي امتازت عليه بها الحيوانات القويَّة ، فاستطاع أن يسخِّر الفيل العظيم الهيكل ذا الخرطوم الطويل ، وأن يستذلَّ الأسدَ الضَّاري ذا البراثن الحديدية ، وأن يقبض على الأفعى الثائرة ، ويصيد الطيور المحلقة في جو السماء ، بل صار لا يعييه حوتٌ في لُجَج البحار الزاخرة ، ولا وحشُ غابةٍ كثيفةٍ من الوحوش

---

(١) الحرّ اللافح: الحرّ الحارق.

(٢) الزَّمْهرِيْر: شدَّة البرد.

المفترسة الكاسرة؛ لأنه قد اخترع بمواهبه العقلية أسلحةً فاق بها على أسلحة سائر المخلوقات مجتمعةً بلا استثناء.

مسؤولية الإنسان بقدر مواهبه:

سادتي: لا بدَّ لكم أن تعترفوا ـ على اختلاف أديانكم، وتباعد أوطانكم، وتنوُّع نزعاتكم وأفكاركم ـ بأنَّ الإنسان قد انهالت عليه الواجبات، وتعدَّدت المسؤوليات بسبب ما امتاز به من عقلٍ راجحٍ، ورأيٍ حصيفٍ، وفكرٍ ثاقبٍ، وفقهٍ لطيفٍ، وهذه الواجباتُ والمسؤولياتُ تُسمَّى بلغة الشرع «التكاليف» وهي موجهةٌ إليه من ناحية قواه الظاهرة والباطنة، وكأنَّ الإنسان قد خاطب الفطرة الإلهية بلسان مواهبه وقواه أن تفرض عليه عملاً، فكان بسببها مكلفاً بهذه الواجبات التي تملأ وسعه، وتتناسب مع طاقته، قال الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وعبَّر سبحانه عن هذا التكليف بالأمانة في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ولا يتصف بالظلم والجهل إلا المكلَّف بالعدل والعلم، والظلم والجهل من نعوت الإنسان لا ينعت بهما غيره؛ لأنه لم يكلف بالعدل والعلم إلا هو، فهاتان الصفتان من صفات الإنسان: الأولى ضد العدل، والأخرى ضد العلم. وذلك لا يوجد إلا في الإنسان، فالظلم تعدِّي الإنسان حدوده، واستعماله قوَّته الظاهرة العاملة في غير محلِّها. والجهل نقصٌ يتطرَّق إلى الإنسان من جهة قواه العلمية. والظلوم يقابله العادل، والجهول يضادُّه العالم. والعدل والعلم يتصف الإنسان بهما بالقوة لا بالفعل، فيحتاج إلى العدل لتكميل قوته العملية، وإلى العلم والمعرفة لتكميل قوته العلمية. والقرآن الحكيم قد يسمي العدلَ بالعمل الصَّالح، والعلم بالإيمان. قال الله عز وجل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣] فمن لم يعمل صالحاً؛ فقد ظلم نفسه، ومن لم يؤمن بالله؛ فقد جهل. ولا ينجو من الخسران إلا من آمن وعمل صالحاً. وقد أشهد الله الزمانَ على خسران الإنسان. ومن الظاهر البيِّن أنَّ المراد بالزمان الحوادث التي حدثت فيه منذ بدء العالم، وقد صدق

كارليل[١] في وصفه التاريخ بأنه «سجلٌ لأعمال العظماء وسيرهم» ، وتاريخ العالم أصدق شاهدٍ على أنَّ كلَّ أمَّةٍ لم تؤمن بالله ، ولم تعمل صالحاً بأنها قد خسرت ، وهلكت ، وكذلك الأفراد الذين لم يؤمنوا بالله ، ولم يعملوا صالحاً أنهم قد خسروا ، وهلكوا. والصُّحف السَّماوية والأسفار القديمة ملأى بأنَّ الظلم والجهل ما وجدا في بيئةٍ إلا وجرَّا عليها الخرابَ والدَّمار ، والعدل والعمل الصَّالحُ ما وجدا في أمةٍ إلا نتج عنهما الحياة والعُمران. وتقصُّ عليك هذه الكتبُ وغيرُها أنباءَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كيف أفلحوا ، وعمروا الدُّنيا ، وأخبار الذين طغوا وبغوا كيف بادوا ، وهلكوا ، وذهبوا أحاديث تروى ، وتفرَّقوا أيدي سبأ ، فلم يبق لهم إلا أثرٌ بعد عين. وتُثني هذه الكتب على الذين قاموا أحسن قيام بالواجبات المكلفين بها من قبل فطرتهم ، فأدَّوا ما عليهم منها خير أداء ، كما تذمُّ الذين أهملوا فرائضهم ، ونبذوها وراء ظهورهم. وحتى الإلياذة[٢] ، والشاهنامة[٣] ، ومهابهارته[٤] ، وراماثن[٥] ، وغيتا[٦] ، كل هذه الأسفار ، تقص علينا أخبار الأمم الذين خلوا من قبل ، وتحدِّثنا بما وقع من القتال بين الظالمين والعادلين ، وبين الكافرين والمؤمنين ، وفي ذلك عبرةٌ لأولي الأبصار ممَّن يعتبرون بتجارب الأمم ، فينتهون عن الظلم والشر ، ويرتدعون عن الكفر والشرك ، ويقيمون الحقَّ ، ويتواصون بالخير ويعملون صالحاً.

---

(١) كارليل توماس (Carlyle, Tomas) أحد كبار المستشرقين ، من أشهر كتبه «الأبطال» وقد عقد فيه فصلاً رائعاً عن الرسول ﷺ ، نقله إلى العربية الأستاذ علي أدهم ، مات سنة ١٨٨١ م.

(٢) الإلياذة: ملحمة يونانية عن حرب طروادة ، من روائع الشعر العالمي ، عرَّبها شعراً سليمان البستاني.

(٣) شاهنامه: ملحمة للفردوسي من ٦٠,٠٠٠ بيت في أخبار ملوك فارس وأساطيرهم.

(٤) مَهابهارته: الملحمة القومية السنسكريتية للهندوس ، يزيد عدد أشعارها على مئتي ألف بيت.

(٥) راماثن: ملحمة سنسكريتية تروي قصة إله الهندوس «راما» وفيها قصص وأمور فلسفية وروحيَّة.

(٦) غيتا: كتاب مقدَّس عند الهندوس.

حكمـــة إرســال الله الرسـل للبشـــر :

أليست سورُ القرآن الحكيم ، وأسفارُ التوراة والإنجيل ملأى بالقصص ، مسجلةً بأنَّ كلَّ أمَّةٍ آمنت وعملت صالحاً، وعدلت في الحكم وجاءت بالحسنة قد أفلحت ، ونجت، وسعدت، وكلَّ أمةٍ ظلمت، وكفرت بأنعم الله، وركبت هواها، وعدت طورها ، وتعدَّت الحدود الفطرية قد هلكت ، وانقرضت دولتها ، وتقوَّض صرحُ مجدها . إنَّ في بعض آيات كتاب الله قصةً لمؤمنٍ عادلٍ صالحٍ ، وفي البعض الآخر منها قصةٌ لظالمٍ طاغٍ : كلُّ ذلك ليرتدع الطَّاغية عن طغيانه ، ويكفَّ الفاسقُ عن الفسق ، وينتهي الظالم عن الظلم والبغي، فيعودوا جميعاً إلى الرشد ، ويكونوا عادلين مؤمنين صالحين .

لأجل ذلك بعث الله الأنبياء والرسل ـ قبل محمد ﷺ ـ إلى كلِّ بلدٍ ، بل إلى كلِّ قريةٍ ، ليكونوا بسيرتهم الصالحة المستقيمة أسوةً لأممهم ، فتتبع الشعوب التي بعثوا إليها السننَ التي يسنونها لأفرادهم وجماعاتهم ، فيستقيموا ، ويفلحوا جميعاً ، أو تهتدي بهدي الأنبياء والرسل طوائف من قومهم على الأقل ، فيواصلوا الدَّعوة ، ويسيروا في طريق الحقِّ. وقد بعث الله إلى الإنسانية خاتم رسله محمداً ﷺ بشيراً للناس كافةً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، ورحمةً للعالمين ، لتكون لهم فيه أسوةٌ ، ويكون لهم من حياته الشريفة قدوة ، ثم يكون مثلاً أعلى للذين يأتون بعده إلى أن تقوم الساعة. وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نبيه ﷺ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس : ١٦] ، وذلك أنَّ الرسول ﷺ ولد فيهم ، وترعرع بينهم ، ونشأ أمام أعينهم ، وعاش بين ظهرانيهم برهة من الدَّهر قبل بعثته ، فعرفوا أخلاقه كل المعرفة ، وجرَّبوا عاداته وأعماله ، فهو لم يكن فيهم غريباً ، ولا خاملاً ، ولا مجهول الأحوال. والوحي الإلهي في هذه الآية يقدِّم حياة الرسول وسيرته الطاهرة قبل البعثة دليلاً على نبوَّته ﷺ وأنَّ رسالته هي من عند الله العظيم؛ ليؤمن به العرب ، ويصدِّقوه فيما يخبر به ، أو يدعو إليه ، فإنَّهم قد علموا مُصبحه وممساه ، واختبروا أخلاقه وعاداته من صباه ونعومة أظافره إلى أن شبَّ واكتهل ، وأعلنَ نبوَّته ، وخرج إلى الناس يدعوهم برسالة الإسلام.

الفرق بين دعوة الرسل ودعاوى غيرهم:

لقد مضى في سالف الأيام كثيرٌ من العظماء ، دعوا الناس إلى أن يقتدوا بأخلاقهم وأعمالهم ، منهم ملوكٌ جبابرةٌ عاشوا في قصورهم الشامخة بين ندمائهم وجلسائهم وملؤوا القلوب مهابةً وجلالةً ، ومنهم قادة جيوش عاشوا بين ضباطهم وجنودهم ، يرهبون الناس ، ويخيفونهم بشدَّة بأسهم ، وضخامة أجسامهم ، ورواء هندامهم[1] ، ومنهم حكماء وفلاسفة كانوا إذا نطقوا أبانوا ، وإذا خطبوا أبدعوا ، ونثروا من دُرَر الحكمة ما شاءت بلاغتهم وطلاقة ألسنتهم ، فملكوا القلوب ، وبهروا النفوس. وترى بجانب هؤلاء طائفة الشعراء ممَّن إذا أنشدوا أطربوا ، وإذا رتلت أناشيدهم غلبوا السَّامعين على أهوائهم ، ولعبوا بالقلوب كيف شاؤوا. وقد خلا كثير من الفاتحين الذين دوخوا البلاد ، واستولوا على الممالك ، كما مرَّ في مواكب التاريخ كثيرٌ من المثرين والأغنياء الذين كانت أقدامهم تطأ البسط الناعمة والزرابي[2] الوثيرة ، ويمشون على الحرير الفاخر والإستبرق[3] الزاهر ، اكتنزوا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، واسترعوا أنظار بني آدم بما كانوا فيه من ترفٍ ، وعظمةٍ ، وسعةٍ. وقد كان هنيبعل القرطاجني[4] ، والإسكندر المقدوني ، وقيصر الروم ، ودارا[5] الفارسي ، ونابليون الفرنسي يملأ كلٌّ منهم عيون بني آدم بعظمته ، وأحداث حياته ، ومختلف أعماله ، وكذلك نجد سقراط ، وأفلاطون ، وديوجنس[6] ، وغيرهم من

---

(١) الهِنْدام: حُسن القدِّ ، وتنظيم الملابس.

(٢) الزَّرَابيّ (جمع الزَّربية): الوسادة تبسط للجلوس عليها ، وفي القرآن: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٦].

(٣) الإسْتَبْرَق: الديباج الغليظ.

(٤) هنيبعل القرطاجني: قائد قرطاجني فينيقي الأصل (٢٤٧ ـ ١٨٣ ق.م) أشعل الحرب الفونية ضد روما.

(٥) دارا: ملك الفرس.

(٦) هو: ديوجنس لايرتيوس: فيلسوف يوناني صقلي ، مؤلف أول تاريخ للفلسفة اليونانية.

حكماء اليونان وغير اليونان مثل: سبنسر[1] وأضرابه، تجتذب سيرتهم النفوس، وتروق القلوب، وإن اختلفت مظاهر عظمتهم عن مظاهر عظمة الآخرين ممَّن ذكرتُ أسماءهم قبلهم. فهل ترى في حياة هؤلاء وأولئك ما يضمن فلاح بني آدم؟ ومن منهم تؤدي سيرته ودعوته إلى صلاح الإنسانية وسعادتها؟

إنَّ في هؤلاء وأولئك لقادةً فتحوا البلاد، ودوَّخوا المماليك، واقتحموا أقصى الأرض، وأدناها، وذلَّلوا ما اعترض سبيلهم من صعاب، وسخَّروا الملوك بِظُبَا سيوفهم. ولكن من منهم ترك لمن أتى بعده أسوةً يؤتسىٰ بها في تعميم الخير؟ ومن منهم إذا اهتدى الناس بهديه ينجون من المهالك، ويسلكون سبيل السعادة والهناء؟ ومَن مِن هؤلاء استعملوا سيوفهم البواتر[2] في قطع حبائل العقائد الفاسدة، وتخليص العقول من الأوهام الواهية والأفكار الباطلة؟ ومن منهم وقف حياته على حلِّ معضلات بني آدم، وكان حريصاً على عقد أواصر الإخاء بينهم على الحق والتواصي في الخير؟ وهل يوجد في حياة من ذكرنا من هؤلاء العظماء ما يستعين به بنو الإنسان على تخفيف ما يعانونه من الغمرات في حياتهم الاجتماعية؟ أم في أخلاقهم وأعمالهم ما ييسر للإنسانية الشفاء من أمراضها الخلقية وأوصابها النفسية؟ أم في دعوتهم ما يجلو صدأ القلوب ورينها، أو يرتق فتقاً في الحياة الاجتماعية؟

لا شكَّ أنَّ الشعراء نالوا إعجاب الناس بأناشيدهم الرنَّانة، وملكوا النفوس، وتصرَّفوا فيها بشعرهم البليغ وقصائدهم الغرِّ. ولكن هل نَعوا الإنسانية وهم يهيمون في أودية الخيال؟ كلَّا! ولذلك لم يكن لهم في جمهورية أفلاطون نصيب، ولا منصب. والشعراء ـ من هوميروس[3] إلى

---

(١) هو سبنسر هربرت (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣ م) فيلسوف وعالم اجتماع إنكليزي، صاحب مذهب قائم على التطوّر الطبيعي (أي: مذهب النشوء والارتقاء).

(٢) سيوفهم البواتر: سيوفهم القاطعة.

(٣) هوميروس(Homers) شاعر ملحمي يوناني من القرن التاسع قبل المسيح، نسب =

امرىء القيس فمن بعده من شعراء الأمم - لم يكن منهم إلا إثارة كامن العواطف ، وتنبيه النائم من الأفكار ، أو إحداث لذةٍ ، أو ألمٍ في النفوس ، ولا ينتظر منهم أن يحلُّوا معضلات الحياة الإنسانية ، وعويصات مشاكلها. وسبب ذلك أنَّهم في سيرتهم وأعمالهم لا يقدمون للناس المُثُل التي تحتذى ، والأسوة التي يقتدى بهم فيها. ولقد وصفهم القرآن الكريم الحكيم أصدق وصف عندما ذكر سيرتهم بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧] وبهذا سجَّل القرآن الحكيم على الشعراء أنَّهم لا يؤثِّرون بشعرهم اللطيف الحلو على المجتمع البشري؛ لأنهم يهيمون في أودية الأفكار والعواطف بلا إيمانٍ ، ولا عملٍ صالح ، ولو اجتمعت لهم هاتان الخصلتان - الإيمان والعمل الصالح - لكان لشعرهم أثرٌ بارزٌ في المجتمع البشري ، وعلى كلٍّ فإنهم لَيسوا من الإصلاح في شيء ، ولا الإصلاح من شأنهم ، ولذلك لا يقدرون على القيام بمهمة إصلاح العالم ، وقيادة الناس إلى الرشاد الكامل والفلاح الشامل ، ويشهد على صدق هذه الحقيقة تاريخ الأمم في غابرها وحاضرها.

وكذلك نرى الفلاسفة والحكماء بهروا عقول الناس بفلسفتهم ، وحاولوا تغيير تيار الحياة البشرية ، فعرضوا على الناس من طريف الأفكار ومستحدث النظريات ما حيَّر العقول ، وأدهش النفوس ، لكنَّهم لم يقدِّموا للناس من سيرتهم أسوةً يُؤتسى بها ، ولا أناروا ظلمات الحياة بقبسٍ من أعمالهم تتضح به مشاكل الإنسانية ، فتتمكن من حلِّ معضلاتها. وهذا أرسطو قد وضع في فلسفة الأخلاق قوانين أسَّس بنيانها ، ووطَّد أركانها ، ولا تزال الجامعات وأساتذتها عاكفين على دراستها: يلقون المحاضرات على طلبتهم في فلسفته ، ونسمعهم يُثنون على ثقوب فكره ، وبعد نظره ،

= إليه المؤلفون اليونان أشعار «الإلياذة» و«الأوديسة» و«الأغاني الهوميرية» التي أثَّرت تأثيراً عميقاً على مستقبل الشعر اليوناني.

وحصافة رأيه ، ورجاحة عقله ، ولكنَّنا ـ والحقُّ يقال ـ لم نجد رجلاً اهتدى بدراسة فلسفة أرسطو ، أو وصل بها إلى السعادة المنشودة .

وكذلك نرى في الكلِّيات أفاضلَ من العلماء ، وفحولَ الأساتذة والمدرسين يعجبُ الطلبةَ فصيحُ كلامهم ، وبراعةُ بيانهم ، وبليغُ حوارهم ، وعذبُ حديثهم ، وهم يؤثِّرون فيهم بذلاقة ألسنتهم ، واتساق أفكارهم ، وترتيب معانيهم ، لكنَّهم لا تعدو محاضراتهم جدران كلياتهم ، وقاعات محاضراتهم ، وإذا خرجوا منها أصبحوا كعامَّة الناس ، لا يمتازون عليهم بعملٍ تتخذه الإنسانية مثالاً يحتذى ، ولا بخلقٍ يختلفون به عن غيرهم هدياً وسمتاً.

لقد رأينا على مسرح العالم كثيراً من الملوك الجبابرة الذين حكموا العالم ، واستولوا على المماليك ، واستعبدوا الأمم. وكم من أرض عمروها ، ومدينةٍ دمَّروها ، وكم وضعوا شعوباً ، ورفعوا آخرين ، وكم سلبوا ، ومنحوا ، وضرُّوا ، ونفعوا ، فكانوا في سيرتهم كما قال الله عزَّ وجلَّ على لسان ملكة سبأ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : ٣٤]. نعم إنَّ السيوف البواتر في أيدي بعض الملوك قد قذفت الرُّعب في قلوب المجرمين ، فكفُّوا عن اقتراف الجرائم علانيةً ، وفي وضح النهار ، مستترين وراء مكامن الريب ، أو قابعين في بيوتهم. لكنَّ سيوف الملوك عَجَزتْ عن أن تستلَّ الرذائل من قلوب أهلها ، وأن تحسِمَ مادة الشرِّ في نفوسهم ، وأن تطهِّر صدورَهم من فساد السَّرائر ، ذلك الفساد الذي يحمل أهله على ارتكاب المعاصي واقتراف السيئات. وأقصى ما يترتَّب على رهبة المجرمين والمرجفين من سيف الملوك المسلط عليهم أن يسودَ الأمنُ والسَّلامُ سبلَ البلاد ، وأسواقَ المدن ، وشوارعَها ، وحاراتِها ، أما إصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس؛ فمما يخرج عن سلطان السيف ، بعجز عن إرادة الملوك. بل الحق ـ والحقُّ أحقُّ أن يقال ـ أنَّ رأس كلِّ شرٍّ إنما نجم من قصور بعض الملوك. وإنَّ كلَّ فسادٍ نبت نابته في فناء حصونهم ، بل في قصورهم نبعت عيونُ الفواحش والجرائم ، ومن حصونهم انفجرت ينابيعُ الظُّلم والعدوان ، وعلى أيديهم تفاقم كلُّ شرٍّ ،

ومن أخلاقهم سرت العدوى إلى أخلاق الناس ، ولفساد قلوبهم وسوء أعمالهم اتَّسع الخرْقُ على الراقع ، حتَّى أعيا الأطباءَ داءُ المجتمع البشري. وهل خلف لنا الإسكندر المقدوني ، وقيصر روما الأعظم مثالاً من أعمالهما يُصلح المجتمعَ إذا اقتدى به ، وسار على أثرهما فيه؟

وهل نالت حظّاً من البقاء والدَّوام أيَّةُ سُنَّة سنَّها عظماء المفكرين للمجتمع البشري من أمثال سولون[1] وغيره من واضعي الشرائع التي يعتبرونها عادلةً قيِّمة ، مع أنَّهم أبدعوا فيها ما شاءت لهم أفكارهم الثاقبة ، وأنظارهم البعيدة ، وقرائحهم المتوقِّدة. ولو سأل سائل عن تلك الشرائع القيِّمة والقوانين العادلة كم استمرت؟ لما استطاع أحد من أتباعهم وأنصارهم إلا أن يعترف بأن بقاءها كان قصير الأمد ، وأنَّ نُقَّادها أكثروا من نقدها ، بل شكَّ حتى أتباعُهم وأنصارُهم في نصح أولئك المفكرين ، ونقاء سرائرهم ، وصفاء قلوبهم ، وفي إخلاصهم للإنسانية وللبشر جميعاً؛ لأنهم لم يجدوا فيها الحياد الصَّادق ، والنَّصَفَة المحضة ، والعدل الصريح ، وبراءة الذمَّة من المحاباة ، ومن جرَّاء ذلك نشأ بعدهم قومٌ آخرون نبذ حكامهم تلك الشرائع ، ومحوها كما يمحو المصححون أخطاء الحروف في الكتابة ، ثم شرعَ هؤلاء الآخرون في سنِّ قوانين غيرها تلائم مصالحهم ، وتوافق مطامعهم ، فجاءت القوانين الجديدة كأختها التي سبقتها غير مراعى فيها حقوق بني آدم كلِّهم ، ومصالح الأمم بلا استثناء. وفي أيامنا هذه نرى مجالس التشريع في البلاد المتمدينة لا تفتأ تنسخ قوانين كان معمولاً بها ، وتسنُّ بدلاً منها قوانين أخرى جديدةً ، حتى صارت كلَّ يوم شريعةٌ تشرَّعُ في مكان شرعيةٍ تنسخ ، وقانونٌ يسنُّ بدلاً من قانون يلغى. كل هذا طمعاً في بقاء دولةٍ ، وتثبيت أركانها ، واستيلاء رجالها على مناصبها ، ورغبةً منهم في زخرف الدنيا وزينتها ونعيمها ، لا تحفزُهم إلى ذلك مصالح الناس ، ولا منافع الأمة كلِّها.

---

(١) سولون (Solon) (٦٤٠ ـ ٥٥٨ ق.م): مشرِّع أثيني ، أحد حكماء اليونان السبعة ، سنَّ قوانين إصلاحية اجتماعية وسياسيَّة مهَّدت الطريق لظهور ديموقراطية كليستنس.

سادتي: لقد حدَّثتكم عن الطبقة العليا من بني آدم، ممَّن يُظنُّ بهم أنَّهم مَعْقِدُ الرَّجاء في إصلاح الحياة الاجتماعية وتوجيهها نحو الإرشاد. وقد علمتم من أحوالهم وسيرهم كيف خابت فيهم الآمال، وأخفق الرجاء. والحقُّ أنَّ كلَّ خيرٍ ترون له أثراً في بقعة من بقاع الأرض، وكلَّ نورٍ يومض[1] في أيَّة أمَّةٍ حتى لو كان ضئيلاً، وكلَّ إثارة من صلاح، أو كرم خلق، أو صفاء سريرة وطهارة قلب، فإن ممَّا لا ريب فيه أن مردَّه في الأصل إلى رسالات الله، أي إلى هداية النبيين عليهم السلام. فإذا وقعت أنظارُكم في بقعةٍ من أرض الله على مظهرٍ من مظاهر العدل يسود الناس، أو رحمةٍ في قلوب طائفةٍ يتبادلونها بينهم، أو وجدتم فئةً تتعامل بالتواسي ويساعدُ أيسارُهم ذوي فاقتهم، وأقوياؤهم المظلومين منهم، وأهلُ العافية فيهم يُغيثون الملهوفين، ويطعمون الأيتام، ويعولون الأيامى؛ فاعلموا جازمين غير مرتابين بأنَّ هذه الفضائل من آثار تعاليم تلك الطائفة الطاهرة التي تُسمَّى «الأنبياء» صلاة الله وسلامه عليهم. وذلك لأنَّ أقطار الأرض كلَّها ـ على سعتها ـ قد بلغتها دعوة الأنبياء، وطرقت مسامعَ أهلها سننُ هدايتهم، وأحكامُ تشريعهم، وحكمةُ رسالتهم، وما من أمَّةٍ إلاَّ وقد أرسل الله فيها رسله منذرين ومبشرين ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] ولولا الأنبياء لتهارج الناس كالبهائم، ولتهارشوا كالسِّباع الضَّواري. فحيثما رأيتم شيئاً من الصلاح، وقليلاً من الخير، أو كثيراً منه؛ فهو من تعاليمهم، وكلُّ دعوةٍ للحقِّ في مكان ما من الأرض فإنَّما هي صدى لرسالات الله. وحتى الهمج في مجال إفريقية، فضلاً عن الأمم الغربية المتمدينة، كل أولئك استقوا من منهل النبوات الصَّافي، واستضاؤوا بأنوار الله التي بعث بها أنبياءه، ولا يزالون يستنيرون بهم في كل ما يسمَّى حقَّاً، وكل ما تدلُّ عليه عناوين الخير.

---

(١) أومَضَ: لَمَع خفيفاً وظَهَرَ.

خلـود دعـوة الرسـل واضمحـلال دعـاوى غيرهـم:

إنَّ الصفوة المختارة من أهل الطبقة العليا في البشر هم الذين يحكمون القلوب، وتنقاد لسيادتهم النفوس. وأين هؤلاء من الملوك الذين يحكمون الجسوم، ويملكون الأبدان، ويستولون على البلاد؟ أولئك تجري أوامرهم، وتنفذ أحكامهم حيث تخفق القلوب، وإذا كانوا لا يملكون الأسلحة التي يملكها الملوك وأمراء الأجناد، فإنهم يطهِّرون الأنفس من آثامها، ويستأصلون الجرائم قبل وقوعها، حيث يجتثون من القلوب جذور الشرور. وإذا لم يكن لهم ما للشعراء من أناشيد يتغنَّى الناس بها؛ فإن الأمم لا تزال تستحلي كلامَهم العذب، وتستعذب حديثهم الحلو. لا ريب أنَّه لم يكن الرسل رؤساء المجالس التشريعية بالمعنى الحديث، لكنَّ سننهم، وتشريعاتهم لا تزال ـ على تطاول الأيام ومضيِّ القرون ـ نافذةً بين الطوائف، يقدِّسها عِلْيَةُ الناس وسفلتهم، وأحكامُهم منقوشةً على صفحات القلوب، تذعن لها السُّوقة والملوك، ويستسلم لها الفقراء، ويخضع لها الأغنياء.

إنَّ يد الأيام قد عبثت ـ كما يشهد التاريخ بالراجا (أشوكا)[1] ملك (باتلي باتر)[2] ولم تبق يد البلى من أوامره وأحكامه إلا صخوراً منقوشةً، وحجارةً منحوتة. أما (بوذا)[3] فإنه لا يزال يحكم القلوب، وسننه وقوانينه لا يزال كثير من الناس يدينون لها ويطأطئون الرؤوس لحرمتها. وإنَّ أوامر ملوك (أُجّين)[4] و(هستابور)[5] في دهلي

---

(١) أشوكا: ثالث ملوك سلالة موريا في الهند وأعظمهم (٢٧٣ ـ ٢٣٢ ق.م)، نشر البوذية في الهند وفي جنوب شرقي آسيا.

(٢) باتلي بوتر: من أعظم ملوك الهند قبل المسيح.

(٣) بوذا (Buddah) حكيم هندي، أسس مذهب البوذية ضد البرهمية في القرن الخامس قبل المسيح.

(٤) أجِّين (Ujjain) من أقدم المدن المقدسة لدى الهندوس، تقع اليوم في ولاية أترابرديش في الهند.

(٥) هستابور (Hastapar) من المدن العريقة في الهند كانت تقع قريباً من دلهي (عاصمة الهند اليوم).

وقنُّوج[1] أمست أثراً بعد عين ، بل درست آثارهم ، وعفت أعلامهم ، وأصبحت ديارهم كأطلال خولة ، أما (دهرم شاستر)[2] وهو كتاب العقائد الذي جاء به (مِنو) فلا زال باقياً نافذاً أمره.

والملك (حمورابي) من ملوك بابل كان أول من سنَّ القوانين ، ولكن أين أوامره وأحكامه؟ لقد نسجت عليها العنكبوت منذ زمانٍ طويل ، ولم تدعْ يدُ البلى من قوانينه وأحكامه شيئاً. أما تعاليم نبي الله إبراهيم عليه السلام فما برحت غضَّة طرَّيةً.

وأين فرعون ودعواه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]؟ لقد أصبحت أضحوكة! أما نبيُّ الله موسى عليه السلام؛ فإنه يسود نوازع القلوب ، ويملك أهواء النفوس ، ويدين له كثير من الناس ، وتسلم لآياته وبيناته طوائف غيرُ قليلة.

وقوانين سولون زال العمل بها وشيكاً ، بينما التوراة المنزلة من السماء لا تنفكُّ أحكامُها وقوانينُها قسطاسَ العدل وميزانَ النصفة.

والقانون الرُّوماني الذي عدَّ عيسى عليه السلام جانياً مجرماً بمقتضى أحكامه ، واعتبره قد اجترح السوء ، وأتى ذنباً ، قد خلت القرون تسفيه برياحها فأصبح هشيماً مضمحلاً. أما عيسى عليه السلام فإنَّ تعليمه لا يزال نوراً تجلى به ظلمات القلوب ، وهدىً تطهر به نفوس المذنبين ، وتزكى به أرواح المجرمين.

وأين أبو جهل[3] وكبرياؤه ، وأين كسرى الفرس ودولته وجبروته؟ وأين قيصر الروم وحكومته وطغيانه؟ كلُّ أولئك قد طوى الدَّهر صحائفهم ، وطمست الأقدار دولهم ، وتهدَّم مجدهم ، وذهبوا أدراج الرياح ، أمَّا

---

(١) قنوج: بلدة تقع في ولاية أترابرديش ، وتُعَدُّ من أقدم مدن الهند.

(٢) وهو كتاب العقائد عند الهنادك.

(٣) هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي ، أشدّ الناس عداوةً للنبي ﷺ في فجر الإسلام ، وأحد سادات قريش وأبطالها ، وكان يُقال له «أبو الحكم» فدعاه المسلمون «أبا جهل» ، قُتل في وقعة بدر الكبرى ، سنة ٢ هـ.

محمَّد رسول الله ﷺ فإنَّ حكمه مازال ولن يزال باقياً على الدَّهر ، وأوامره نافذةً ، وسنته متبعةً في كلِّ زمانٍ ومكان .

ما من طائفـــةٍ من النـاس أصلحـت فســاد المجتمــع إلا الأنبيـــاء :

سادتي وأصدقائي : أظنُّكم قد استمعتم لما ألقيت عليكم من الأدلة العقلية والبراهين التاريخية ، وإخالها قد تركت فيكم أثراً أورث في قلوبكم يقيناً بأنَّه لم تكن طائفة من الناس أصلحت من فساد الأخلاق ، وقوَّمت من عوجها ، وهذبت النُّفوس وهدتها من ضلال البشر مثل الذي قام به الأنبياء عليهم السلام ، فهم الذين أصلحوا الحياة الاجتماعية ، وعلَّموا الناس الاقتصاد في المعيشة والاعتدال في كلِّ شيء . وهم الذين أقاموا العدل في الدنيا ، وحكموا بالقسط بين الناس ، وزكَّوا القلوب ، وأخذوا بيد الإنسانية إلى الحق والخير ، وأنقذوها من حمأة الرذائل . وإنَّ الله سبحانه قد بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات ـ ظلمات العقائد ، وظلمات الأخلاق ، وظلمات الأعمال ـ إلى النور : نور الإيمان ، ونور الخلق الكريم ، ونور العمل الصَّالح . وتركوا بعدهم سنة للناس ، يتبعها السُّوقة ، ويعمل بها الملوك ، وينتفع بها صغارُ الناس وكبارُهم ، ويتمتَّع بخيراتها الأغنياء والبؤساء على السَّواء . وإن مَثل الأسوة بهم كمثل عينٍ ثرَّةٍ فيَّاضةٍ تروي البلاد ، وتسقي العباد ، يشرب منها كلُّ عطشانٍ بقدر حاجته ، ويرتوي بمائها العذب الزلال كلُّ ظمآنٍ ، فينقع غُلَّته ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ [الأنعام : ٨٣ ـ ٩٠] .

ترون في هذه الآيات ذكر طائفة خاصَّة ، وسُمِّي فيها بعضُ الذين بعثهم الله لهداية الناس ، وفوَّضَ إليهم أمر إصلاح المجتمع : فهم الشِّفاء لمرضى القلوب ، وبهم البُرء لسقام النفوس ، وهم هداة الغاوين ، الآخذون على أيدي الطغاة ، والمرشدون لأهل البغي ، والناهون عن المنكرات ، وهم الطائفة المقدَّسة التي عمَّ هديُها ، وجاد غيثُها جميع أنحاء المعمورة ، فاستضاء الناس كلُّهم بنور هؤلاء الرسل في مختلف الأزمنة وشتَّى العصور. وإنَّ الذي نراه في الأمم من الخير والصلاح ، وكرم الخلق ، وحسن العمل ، وطهارة السيرة ، وعلوِّ النفس ، وزكاء الرُّوح ، ونزاهة القلب ، إنَّما هو قطرةٌ من بحر تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، ولمحةٌ من جمال شرائعهم ، وأثارةٌ من بركات سيرتهم. وإنَّ الإنسانية القلقة المتألمة لا تزال تفتقد آثارهم ، وتحرص على اتباع سننهم ، ليذهب بذلك روعُها ، ويطمئنَّ قلبُها ، فتقر الحياة الاجتماعية ، وتجد بعض راحتها. ولو أنَّ الناس اتبعوا سنن الأنبياء ، واستقاموا على الطريق الذي دلوهم عليه؛ لساد الوئام بين الأمم ، وعمَّ السلام في العالمين.

لقد كان الأنبياء جميعاً على خُلقٍ عظيم ، وقد أوتوا من حميد الخصال ، ومعالي الأخلاق ما لم يُؤت أَحدٌ غيرهم مثله. غير أنَّ منهم من تجلَّى فيه خلق من الأخلاق ، فكان فيه أبرز من غيره وأظهر ، فنبيُّ الله نوح كان متحمساً في تبليغ الدِّين ، وإبراهيم كان شديد العناية بأمر التوحيد ، وورثه في ذلك إسحاق ، وحبب الإيثار إلى إسماعيل ، وجاهد موسى جهاداً عظيماً ، وآزره في الحق أخوه هارون ، وظهرت الإنابة والاعتراف بالخطأ في يونس ، وكان لوط مجاهداً ، وغلب على يعقوب التسليم والرضا بأمر الله ، وكان داود يرثي للحقِّ وخذلانه ، وامتلأ قلب سليمان بالحكمة ، وكان زكريا متعبداً ، وتجلَّى في يحيىٰ العفافُ ، وطهارةُ النفس ، أما عيسى فكان مظهرَ الزُّهد في الدُّنيا والرَّغبةِ عن زهرتها ، وكان أيوبُ صبوراً على الآلام. وهذه الخصال العالية والأخلاق الفاضلة هي التي يتشرَّف بها العالم ، وتسعى الأمم للتحلِّي بها ، وحيثما وجدتم من هذه الخصال

الحميدة والفضائل النبيلة أثراً؛ فكونوا على يقينٍ بأنها من نفثات أولئك الأنبياء ، ومن آثار تعليمهم.

إنَّ تقدُّمَ المدنيَّة الصَّالحة ، وتوفير عواملِ الهناء والرَّغد للنَّاس ، وبلوغَ الإنسانية مقامَ الشَّرف ، قد ساهمت فيه جميع الطوائف التي اشتركت في عمارة العالم: فعلماء الهيئة اكتشفوا للناس نظام سير الكواكب ، والحكماء دلُّوا على خواص الأعمال وتأثيرها في الأخلاق ، ووصف الأطباءُ النَّطاسيُّون خواص العقاقير وتأثير الأدوية في الأدواء ، وتفنَّن المهندسون في تشييد المباني ومرافقها ، وإقامة القصور ومعالمها ، وعقدوا على الأنهار القناطر والجسور ، واتَّسع أهل الصناعات في تنويعها ، وإتقانها ، وتيسير الأعمال للعمال ، فكان من مجموع هذه الجهود عمارةُ الأرض ، ولكلِّ فريقٍ من أصحاب هذه الجهود يدٌ في اكتمال المدنية ، وتقدُّم الحضارة ، ونحن نذكر لهم ذلك بالثناء والشكر ، غير أننا لا نستطيع أن ننسى أنَّ أنبياء الله وحملة رسالاته هم الذين غمرونا بالمنن العظمى؛ لأنَّهم عملوا لإصلاح فساد القلوب ، واستئصال كوامن الشرور ، وتطهير النفوس ، وتزكيتها من الأهواء الفاسدة ، والأطماع السافلة ، والميول المهلكة ، فنهجوا بذلك منهج السعادة للحياة الاجتماعية ، وبيَّنوا للناس ما تعلو به نفوسهم ، وما تسفلُ به ، وما تكون به شريفةً أو منحطةً ، فكملت الثقافة الإنسانية برسالاتهم ، وبلغت الحضارة بذلك مبلغ الكمال ، وتيسَّر للمجتمع البشري أن يكون صالحاً إذا شاء ، وقد أصبح من المتعارف عند الناس أنَّ الأخلاق الفاضلة ، والسيرة الطاهرة هي شرفُ الإنسانية ومجدُها ، ومكارمُ الأخلاق ، ومحاسنُ العوائد أصلُ الإنسانية وجوهرها.

وبتعاليم الأنبياء توثَّقت العلاقة بين الخلق وخالقه ، وحسنت الرابطة بين العبد ومولاه ، فتذكَّر الإنسان عهده الأزليَّ الذي أخذه على نفسه لربه ، ولولا الأنبياء ، وتعاليمهم ، وتجليتهم أسرار النفوس ، وكشفهم عن غرائز الفطرة الإنسانية ، وما يسعد به المرء أو يشقى؛ لم تبلغ الإنسانية ما بلغته ، ولذلك كانت الإنسانية مثقلةً بمنن الرسل سلام الله عليهم ، فإنَّ لهم علينا من الأيادي البيضاء ما لا كفاء له. ومن عَرَفَ هذا عَرَف معه ما يجب لأنبياء

الله جميعاً من الشكر العظيم على كلِّ فرد من أفراد البشر مهما كانت الطائفة التي تنتسب إليها ، وهذا الشكر هو الذي نعبِّر عنه نحن المسلمين بالصَّلاة عليهم والتسليم ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ونجهر بذلك ، ونعلنه كلَّما سمي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

إنَّ الهداية والدَّعوة لا تثمرُ ولا تبقى إلا بالقدوة والأسوة:

أيها السادة: إنَّ هؤلاء الأنبياء بُعثوا في أعصارٍ خاصَّةٍ ، فبلَّغوا رسالات الله ، ثم مضوا ، ولا بقاءَ لشيءٍ في هذه الدُّنيا الفانية ، وإن سيرهم مهما تكن طاهرةً مقدَّسةً فإنه لم يُتح لها البقاء والدَّوام؛ لأنَّ يد الأيام قد عبثت بها كما تعبث بكل جديد فتحيله قديماً ، ثم تجعله رماداً تذروه الرياح. ومن المعلوم أنَّ الذي يبقى لمن يأتي بعدهم من بني آدم هو المكتوب فيه سيرهم وهديهم ، وهو الذي يصف حياتهم ، ويمثِّل أخلاقهم ، والكتابة هي التي تحصي الأعمال ، والأخلاق ، وتعصمها من أيدي البلى ، ولولاها لم تصل إلينا علوم القرون الخالية ، وحكمتها ، وفنون الأمم الماضية ، وأفكارها ، وشؤون الأقوام السَّالفة وأخبارها ، وما التاريخ إلا سير الرجال وشؤون الحياة الإنسانية ممَّا حفظته الكتابة ، وصانته من يد الضياع. وإنَّ لحياة الإنسان نواحيَ شتَّى ، ومن المحتمل أن يعتبر الإنسان ـ في ناحية من نواحي حياته ـ بكلِّ حادثة حدثت فيما مضى ، لكنَّ حياة الإنسان الخلقية والروحانية لا تكمل كمالها ، ولا تبلغ مرادها ، ولا تزكو زكاءها إلا بسنن الأنبياء ، وهديهم ، واقتفاء آثارهم ، والتخلُّق بأخلاقهم ، ولن يذهب ظمأ الإنسانية فتروي غُلَّتها إلا بمنهل من سلسبيل هؤلاء الرسل ، ولا يُرجى خيرُ العالم وصلاحُه إلا إذا عمل أهله الأعمال التي هدى إليها الأنبياء ، ودعوا إليها وحضُّوا عليها؛ لأجل ذلك كان أهمَّ الفرائض على أبناء الإنسانية حفظ سيرهم ، وإحصاء أخلاقهم ، لتبلغ مبلغ الكمال وتزكو زكاءها.

إنَّ نظريةً مهما تبلغ من الصحَّة ، ودقَّة الفكر ، وإنَّ تعليماً مهما يكن رائقاً ، ويقع من الناس موقع الإعجاب ، وإنَّ هدايةً مهما تجمع من صنوف الخير ، كلُّ أولئك لا يغني غناءً ، ولا يثمر ثمرةً ، ولا يبقى على الدَّهر إلا

إذا كان له مَنْ يمثِّله بعمله ، ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله ، ويعرفه إلى الناس بالقدوة والأسوة ، فيقتدي الناس بدعاته من طريق العمل بعد العلم ، معجبين بسجايا هؤلاء الدُّعاة ، معظمين لأخلاقهم ، مكرمين طهارة قلوبهم، وزكاة نفوسهم ، وسجاحة أخلاقهم ، ورجاحة عقولهم ، وحصافة آرائهم ، وسداد أفكارهم. وأقصُّ عليكم قصةً: إنَّ الباخرة (كروكوديا) التي ركبناها في عودتنا من مصر والحجاز في أوائل شهر رجب سنة ١٣٤٢ هـ (شباط ١٩٢٤ م) اجتمعنا فيها عرَضاً بالدكتور طاغور[1] الشاعر الذائع الصيت ، وكان قافلاً من سياحته في أمريكا ، فسأله بعض رفقته: «ما بال نحلة (برهمو سماج)[2] أخفقت في مساعيها ولم تنجح ، مع أنها أنصفت الأديان ، وجمعت الحسنات ، وسالمت جميع الملل ، ومن مبادئها وأصولها: أنَّ الدِّياناتِ كلَّها على حق ، وأن جميع المصلحين من الأنبياء والرسل والهداة هم خيار الناس وصلحاؤهم ، ثم إنَّها ليس فيها ما يخالف العقل أو يعارض المدنية الحاضرة أو يناوىء الفلسفة الحديثة ، وصاحب هذه النحلة قد راعى فيها الظروف الراهنة والشؤون المألوفة الآن ، ومع ذلك كلِّه لم تنل من الفوز شيئاً ، ولم يتح لها من النجاح قليلٌ ولا كثير؟!» وقد أحسن الشاعر في جوابه على هذا السؤال كلَّ الإحسان؛ إذ قال: «إنَّ النِّحلة لم يكن لها داعية يدعو الناس إليها بسيرته الكاملة ، وهديه العالي ، ولم يكن لها لسان يدعو مؤيداً بعمل يصدقه ، فتهوي إليه أفئدة الناس ، وتطمح إليه أبصارهم ، ويكون لهم من الدعاة أسوةٌ يأتسون بها ، وقدوةٌ يقتدون بها». وكلام طاغور هذا يدلُّ على أنَّ الدِّين لا ينجح ، ويعلو ، وينتشر إلا بسيرة النَّبيِّ الذي بُعث به ، بما عرفه الناس عنه في شؤون حياته ، في أخلاقه ، وأعماله. وبالجملة: إنَّ الجنس الإنسانيَّ يحتاج أشدَّ الحاجة ـ في بلوغه الكمال وسلوكه سبيل الرشاد ـ إلى هداةٍ ودعاةٍ طهرت

---

(١) هو رابندرناته طاغور ، شاعر هندي ، يُعدُّ من أعلام الأدب العالمي ، نال جائزة نوبل ، امتاز شعره بروح التديُّن والوطنية ، مات سنة ١٩٤١ م.

(٢) برهموسماج ، أي: طبقة البراهمة.

حياتُهم ، وزكت نفوسُهم ، وصفت قلوبُهم من وصمات الذنوب ، وشبهات الآثام ، وتكون سيرهم كاملة في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة الإنسانية، ولم يجتمع ذلك إلا في أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه .

* * *




المحاضرة الثانية

السِّيرةُ المحمَّديَّةُ هي العَامَّةُ الخَالِدَة




سادتي! هذا اليوم هو اليوم الثاني لحفلتنا هذه. وليكنْ ما سلف في اليوم الأول على ذكرٍ منكم. وخلاصةُ ما ذكرت أمس: أنَّ ظلمات الأيام المقبلة لا تنجلي إلا بنور من مضى من طوائف المصلحين؛ الذين أحسنوا إلى الإنسانية أيَّ إحسان، ولهم جميعاً علينا الشكر الجميل، ونخصُّ منهم الأنبياء، فإنَّهم أسدوا إلى البشر من الجميل ما لم تسده طائفةٌ من المصلحين، فيجب علينا أن نضاعف الشكر لهم، ونعترف بجميلهم، وإحسانهم؛ إذ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم قدَّم لأمته من سيرته الطاهرة، وخُلُقه العظيم، وهديه العالي ما كانت به الأسوة الكاملة التي لا تتأتَّى من غيره: فمنهم مَنْ صبر على الرزايا، والنوائب، والآلام أعظمَ صبرٍ وأكمله، فكان أسوةً للصَّابرين في الضَّراء والشِّدة، ومن سيرة بعضهم خُلُقُ الإيثار، فكان إيثاره مثالاً لأمته، ومنهم من اختار مرضاة الله مقدِّماً نفسه قرباناً وأضحية، فكان المثل الأعلى لأمته في إيثار مرضاة الله حتَّى على بقاء مهجته، وحفظ حياته.

لقد ظهر للناس في سيرة الذين حملوا رسالاتِ الله عند تبليغهم عقيدة التوحيد الإلهي ما كان موضع العجب من العزيمة، والحميَّة، والتسليم لأمر الله، والعفَّة عن المنهيَّات، والزهد في زهرة الحياة الدُّنيا، وما كان ولا يزال مثلاً أعلى في هذه الفضائل العظمى، ومناراً للسائرين في ظلمات الحياة، وكم من ظلمةٍ في الحياة قد ضلَّ بها مَنْ ضلَّ، ثم أتى على البشر زمانٌ كان فيه بأشدِّ الحاجة إلى الهادي الكامل يضيء له الطريق كلَّه بقوله، وعمله، ويجلو الدُّجى[1] ـ دجى العقائد، والأعمال، والأخلاق ـ بنور تعاليمه، وضوء سيرته، وجمال خلقه، وكمال نفسه، فتكون حياته نبراساً بأيدي الناس، فمن اقتبس منه في يمينه سار في ظلمات الحياة آمناً مطمئناً، لا يخاف الزلَّة، ولا يخشى العثرة حتى يبلغ غايته، وإنَّ ذلك

---

(١) الدُّجَى: سواد الليل، وظُلمته.

الهادي الأعظم هو آخر الهداة ، وخاتم النبيين الذي لم يُرسلْ بعده رسولٌ ، ولن يرسل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

إنَّ محمداً ﷺ شهد في هذا العالم تعليم الله وهدايته ، وبشَّر الصَّالحين بالنجاح والفلاح ، فهو مبشر. وقد نادى الغافلين ، وأسمع الصمَّ ، وحذر المذنبين عاقبة ذنوبهم ، وأنذر المشرفين على الهلاك ، وأيقظ النائمين ، فهو منذر. وقد دعا إلى الله من ضلَّ عن سبيله ، فهو داع. وإنْ هو إلا نورٌ يُستضاء به إلى يوم القيامة ، ونبراسٌ يستنار بأشعته في شعاب الحياة الملتوية ، فتنكشفُ به الظُّلمات المتراكمة ، فهو السِّراج المنيرُ إلى الأبد. نعم إنَّ جميع الأنبياء كانوا شهداءَ ، ودعاةً ، ومبشرين ، ومنذرين ، بَيْدَ أنَّ هذه الصفات لم تكن سواسية في جميع الرُّسل ، بل كان بعضُها في بعضهم أظهر من أخواتها ، فكان يعقوب ، وإسحاق ، وإسماعيل عليهم السلام قد غلبت عليهم صفة الشهادة وكانوا شهداء الحقِّ ، وغلبت على إبراهيم ، وعيسى صفة التبشير ، فكانا مُبشِّرين. ومن الأنبياء من غلب عليه وصف الإنذار لمن خالف الحقَّ وجحده ، فكانوا منذرين ، كنوحٍ ، وموسى ، وهود ، وشعيب. ومنهم مَنْ غلب عليه صفة الدَّعوة إلى الحقِّ ، وامتاز بها أكثر ممَّا امتاز بسائر النعوت الأخرى ، كيوسف ، ويونس عليهم الصلاة والسلام جميعاً. وأما من كان جامعاً لهذه الصفات كلِّها ، واتصف بها جميعاً ، فكان مبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً ، وكانت حياته ملأى بهذه النعوت ، والشؤون ، وسيرته ممتازةٌ بهذه الخصال والخلال؛ فهو النبيُّ الجامع محمدٌ ﷺ؛ لأنه بُعث ليختم الله به النبيين والنبوَّات ، فأعطي الرسالة الأخيرة ليبلغها إلى البشر كافَّةً ، فجاء بالشريعة الكاملة؛ التي لا يحتاج البشر معها إلى غيرها ، ولم تنزل من السماء إلى الأرض شريعة على قلب بشر بعد هذه الشريعة. لقد حظيت التعاليم المحمدية بالخلود ، واختصَّت بالبقاء والدوام إلى يوم القيامة ، فكانت نفسُ محمدٍ ﷺ جامعةً لجميع الأخلاق العالية ، والعادات السنيَّة ، وقد بعث ليتمِّمَ مكارمَ الأخلاق.

السيـرة المحمَّديــة هي السيرةُ التاريخيَّــة :

إخواني! أنا لا أقول ما أقول جزافاً وادِّعاءً منِّي لأجل عقيدةٍ لي خاصَّةٍ أعتقدها ، وإنما هي حقيقةٌ يشهد لها التاريخ ، وتؤيدها البراهين ، والدَّلائل ، وإنَّ السيرة التي يحقُّ لصاحبها أن يتَّخذ الناسُ من حياته أسوةً حسنةً ، ومثلاً أعلى ، يشترط لها قبل كل شيء أن تكون سيرةً «تاريخيَّةً» ، أما السيرة القائمة على أساطير ، وأحاديث خرافةٍ ، لا تدعمها الروايات الموثوق بصحَّتها؛ فإنَّ من طبيعة الإنسان أن لا يتأثر بما يُحكى له من سيرةٍ لشخصيةٍ مفترضةٍ ، لا يعرف لها التاريخ أصلاً صحيحاً ، وإنَّما اختلق لها المناقبَ أناسٌ أحسنوا الظنَّ بها ، فرفعوا مكانها ، وقد يخدعون بهذه المناقب بعضَ الناس أمداً قصيراً حين يعرضونها عليهم في حلَّةٍ قشيبةٍ من الألفاظ ، وثوبٍ قشيبٍ[1] من العبارات ، ثم لا تلبث الحقيقة أن تظهر من وراء غلائل الأوهام ، فيعرض الناس عنها إعراضاً؛ لأنها قامت على غير أساسٍ من التاريخ. إذاً فلا بدَّ لكلِّ سيرة من سير الكمال الإنسانيِّ يُدعى الناس إلى الاقتداء بها ، واتخاذها أسوةً أن يدعمها التاريخ ، ويشهد لها المحقِّقون ، ولهذا نرى النفوس البشرية لا تتأثر بالأساطير والأوهام كتأثرها بحوادث التاريخ والروايات الثابتة عن الثقات الأثبات ، وذلك لأنَّ سيرة الرجل العظيم الكامل لا تعرض على الناس ليشغلوا بها أوقات فراغهم ويروِّحوا بها عن أنفسهم في حالة الملل أو الضجر ، بل تُعرض عليهم ليُدعوا إلى الاقتداء بها واتخاذها نبراساً لحياتهم يسيرون على ضوئها في ظلمات الحياة لاقتحام العقبات ، وكم من عقبة تعترض الإنسان في حياته ، فيحتاج إلى من يسير أمامه ليأخذ بيده في اجتيازها ، فإن لم تكن الشخصية تاريخيةً كيف يُدعى الناس إلى الاقتداء بها ، وهي في الواقع مفترضةٌ ، والمناقب التي تذكر عنها من الأساطير والأوهام؟!

نحن معشر المسلمين نؤمن برسالات الله كلِّها وبجميع الرسل ،

---

(١) القشيب : الجديد أو النظيف ، يُقال : ثوب قشيب .

ونعظمهم بلا استثناء ، مع علمنا بأنَّهم متفاضلون ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ، وأنَّ الدوام والبقاء لم يُتح إلا لسيرة آخر المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ ﷺ ، أمَّا غيره من الأنبياء فلم تختم النبوة بأحدٍ منهم ، ولم تكن سيرتُهم خالدةً ، بل ولا محفوظة ، وقد أرسلوا إلى أممهم خاصَّة ، وإلى زمنٍ خاصٍّ بأجلٍ مسمًّى ، فكانت حياتهم أسوةً للذين أرسلوا إليهم في عهدهم ، ثم نُسيت تلك السيرة ، وامَّحت بكرِّ الليالي ومرور الأيام ، وقد جاء في رواية إسلاميةٍ أنَّ الله أرسل من الأنبياء عشرين ألفاً ومئة ألف .

إنَّه ما من بلادٍ ، ولا أمَّةٍ قبل مبعث محمدٍ ﷺ إلا جاء فيهم نبيٌّ ، وإذا كان عدد الأنبياء على ما في تلك الرواية الإسلامية عشرين ألفاً ومئة ألف؛ فكم نبياً منهم نعرف أسماءهم؛ هل نعرف من سيرتهم كثيراً أو قليلاً؟!

سيرة متبوعي الهنادك ليست تاريخيَّة :

إنَّ من أقدم الأمم عهداً هنادك الهند كما يدَّعون ، وهم ليسوا بمسلمين ، وفي تاريخهم مئات من العظماء والنابهين ، فهل يؤيد التاريخ سيرة أحدٍ منهم؟ إن التاريخ لا يستطيع ذلك ، وكثيرٌ منهم لا يعرف الناس من شؤون حياتهم وحقائق أحوالهم إلا أسماءهم ، وهم لا يَحْظَون في كتب التاريخ بمكانةٍ ، وإنَّما تعدُّ سيرتهم من علم الأساطير ، وخرافات الوثنية . ومن أحظاهم تاريخاً ، وأحسنهم سمعةً رجال «مهابهارتا وراماينا»(١) وأبطالها ، ومع ذلك فإنَّ سيرة أولئك الرجال لا تعدَّ من التاريخ ، بل لا يعرف التاريخ زمانهم ، فضلاً عن أن تتعيَّن في الزَّمان قرونهم ، أو تعرف من قرونهم سنوات حياتهم .

لقد درس بعض علماء أوربا تاريخ الهند القديم درساً متوالياً ، وقاسوا له أقيسةً ، وذهبوا في ذلك شوطاً بعيداً ، فصاروا يُعَيِّنون عهد عظماء الهنادك

---

(١) «مها بهارتا» (Mahabharata): و«راماينا» (Ramayana) الملحمتان الهنديتان الكبيرتان اللتان تقصَّان وقائع بعض الأبطال من العظام الهنود القدامى ، والحروب التي جرت فيما بينهم في العصور القديمة .

وأبطالهم تعييناً ، يرى علماء الهنادك وفضلاؤهم أنّه مجازفةٌ ، ورجمٌ بالغيب ، وأكثر المحققين من علماء أوربا لا يعدُّون ذلك من التاريخ ، بل لا يعترفون بأنَّ هؤلاء قد وُجِدوا في العالم يوماً ما ، أو كان لما حِيْكَ حولهم من أساطير شبه وجود. وإن «زردشت» صاحب المجوسية لا يزال معظَّماً عند كثيرٍ من أتباعه ، لكنَّ التاريخ لم يكشف الحجاب عن وجوده الحقيقي بعد ، فهو لا يزال سرّاً غامضاً من أسرار التاريخ ، حتى شكَّ بعض المؤرخين من الأمريكيين والأوربيين في نفس وجوده ، أما المستشرقون الذين يعترفون بوجوده التاريخيِّ؛ فإنَّهم يُثبتون بعض شؤون حياته بظنونٍ متباينة ، وأوهامٍ متباعدة إثباتاً لا يروي غُلَّةً ، ولا يشفي عِلَّةً ، فكيف يستطيع أحدٌ أن يطمئن إلى اتخاذ حياة زردشت أسوةً لنفسه في الحياة مادام الشكُّ وتضاربُ الآراء يحومان حوله زمانه ، وبلده ، ونسبه ، وأسرته ، وشريعته ، ودعوته ، وكتابه ، ولغته ، وعام وفاته ، ومكان موته ، والروايات عن ذلك أوهامٌ ، وأقيسة ، وظنونٌ لا تغني من الحقِّ شيئاً. ومع ذلك فإنَّ المجوس ليس لهم سبيل إلى معرفة هذه الأمور المرتاب فيها إلا ما زعمه بعضُ المستشرقين والباحثين من أهل أمريكا وأوربا ، وإنَّ علم المجوس الأصلي بنبيهم وحياته وسيرته لا يعدو ما في «الشاهنامة» للفردوسي ، وَمَنْ ذا الذي يعذرُهم فيما يعتذرون من أن كتبهم الدِّينيَّة قد ذهبت بها حروبُهم مع اليونانيين ، وأنَّ أعداءهم أبادوها. ونحن ليس من غرضنا إلا أن نثبت أنَّها غير موجودة ولا معلومة ، ولا يهمُّنا كيفية انعدامها ، وزوالها ، وهذا يدل على أنَّ حياة زردشت لم تنل حظَّ الدَّوام والبقاء حتى أنكر أمثال Kern[1] وDermeletes[2] شخصية زردشت ، ووجوده التاريخي.

---

(١) هو فرديخ كيرن (Friedrich Kern) مستشرق ألماني ، دَرَسَ في جامعات أوربا ، وسافر إلى القاهرة حيث أتقن اللغة العربية ، مات سنة ١٩٢١ م ، من آثاره: «آثار البوذية في الهند» وتحقيق «اختلاف الفقهاء» للطبري.

(٢) (Dermetetes) أحد كبار المستشرقين ، وله مؤلفات حول تاريخ إيران وحول شخصية زردشت.

سيرة بوذا ليست تاريخيّة :

ودين (بوذا) أقدم الأديان ، وأوسعها نطاقاً ، وأكثرها انتشاراً في سالف الأيام، وكان له سلطان على الهند، والصين، وآسيا الوسطى، وأفغانستان ، وتركستان ، ولا يزال إلى الآن في سيام ، والصين ، واليابان ، وتبت ، وإنما تقلص ظله وعفي أثره في الهند على أيدي البراهمة ، وزال عن آسيا الوسطى بغلبة الإسلام ، لكنَّه ما برح موجوداً في آسيا القصوى تحت ظلِّ دولةٍ قويّةٍ ذات مدنيّةٍ وثقافةٍ ناضرتين ، وهي اليابان التي لم تَخْضَعْ بعد لأجنبيٍّ ، ولم يفتح بلادَها فاتح[1] .

ولسائل أن يسأل: هل يقيم التاريخ وزناً لوجود بوذا؟ وهل يقدر مؤرخٌ على أن يعرض للناس صورةً حقيقيةً لتاريخه؟ وهل يستطيع كاتبٌ أن يصف ظروفه ، وأحواله التي كان عليها في حياته وصفاً كاملاً لا يغادر شيئاً من تحديد زمن ميلاده ، ووطنه ، وأصول دينه ، كما دعا هو إليه ، ومبادىء دعوته وأهدافها؟ الذي نعلمه أن ذلك كلَّه محجوبٌ عن علم الناس بظلماتٍ كثيفةٍ متراكمةٍ ، وكلُّ ما أمكن للباحثين أنهم حاولوا تعيين زمان وجوده بحوادث راجوات بلاد (مكده) ولم يكن لهم سبيل سوى ذلك ، وتسنَّى لمؤرخٍ أن يقارن زمن هؤلاء الراجوات بملوك اليونان الذين كانت بينهم وبين راجواتٍ عدَّة روابط .

الذي نعلمه عن كونفوشيوس أقلّ من الَّذي نعلمه عن بوذا :

وأما دين الصين فلم نعلمْ عنه إلا قليلاً بطريق الحدس ، ولم يصل العلم إلى شيءٍ يقينيٍّ عنه . و(كونفوشيوس)[2] صاحب النِّحلة المعروفة في الصين نعلم عنه أقل مما نعلم عن بوذا ، مع أن المنتسبين لطريقته الدينية يبلغ عددهم مئات الملايين .

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة لما كانت اليابان في أوج سيادتها قبل الحرب العالمية الثانية .

(٢) كونفوشيوس: (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م) فيلسوف صيني ، أسس مذهباً أدبياً يدعو إلى حياة عائلية واجتماعية مثالية .

والأمم السَّامية بعث فيها مئاتٌ من الرُّسل ، لكن التاريخ لم يحفظ لنا عنهم إلا أسماء بعضهم، ولا نعلم عن هؤلاء الرسل - من نوح ، وإبراهيم ، وهود ، وصالح ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وزكريا ، ويحيىٰ عليهم السلام - إلا بعض سيرهم ، وقليلاً من صفحات حياتهم ، والذي نعلمه من ذلك لا يكاد يروي غُلَّةً أو يشفي عِلَّة. وحياة العظماء لها نواحٍ وأطراف ، وتتخلَّلها شعابٌ وعقبات في أطوارٍ وأدوار. ومادام الذي غاب عن علمنا من ذلك أكثر بكثير من الذي عرفناه ، فكيف يتسنَّى لمن شاء أن يتَّخذ من سيرتهم أسوةً كاملةً لحياته في جميع أطوارها ، وهو لم يبلغه من سيرهم إلا قليل؟

شكوك العلماء المحقِّقين في كثير من سير أنبياء بني إسرائيل:

إن أسفار اليهود التي تضمنت سير هؤلاء الأنبياء قد خالج المحققين من العلماء ضروبٌ من الشكِّ في كلِّ سفرٍ من هذه الأسفار ، على أننا إذا ضربنا صفحاً عن هذه الشكوك نرى سير هؤلاء النبيين في تلك الأسفار ناقصةً ، مثال ذلك أحوال موسى المذكورة في أسفار التوراة ، إنَّ مؤلفي «دائرة المعارف البريطانية» أنفسهم توصلوا إلى تحقيق أنَّ هذه الأسفار دونت ، وجمعت بعد موسى عليه السلام بقرونٍ كثيرة ، زد على ذلك أنَّ التوراة الموجودة فيها لكلِّ حادثةٍ روايتان مختلفتان ، وحكايتان متباينتان ، كما حقَّق ذلك بعض علماء الألمان ، وربما دفع بعض هذه الروايات بعضاً فتعارضت أولاها بأخراها ، ونحن نواجه الوصف المتعارض في سير الرجال والحوادث جميعاً ، ومن أراد أن يزداد علماً بهذا الموضوع فليراجع مادة (بايبل) في الطبعة الأخيرة من دائرة المعارف البريطانية[1] ، وإذا كان الأمر كذلك فبأيِّ منزلةٍ من التاريخ ننزل حوادث العالم من آدم إلى موسى عليهما السلام؟ وكيف نقدِّر قَدْر التاريخ الصَّحيح الثابت في هذه الأمور.

---

(١) Encyclopeadia of Britanica.

الكـــلام علـى الأناجيـــل مـن ناحيـة التّـاريـخ :

وأحوال عيسى عليه السلام وسيرته مكتوبةٌ في الأناجيل ، والأناجيل ـ كما تعلمون ـ كثيرةٌ ، غير أنَّ أكثرية المسيحيين اقتصرت على أربعة أناجيل. أما (إنجيل الطفولة) و(إنجيل برنابا) وغيرهما فلا يعتبرونهما ، ومع ذلك فإنَّ الأناجيل الأربعة التي اقتصروا عليها لم يلقَ أحدٌ من الذين جمعوها سيدنا عيسى عليه السلام ، وإذا تساءلنا: عمَّن رووا هذه الأناجيل؟ نجد التاريخ يجهل ذلك كلَّ الجهل. ويزداد المرء شكاً إذا توصل إلى حقيقةٍ أخرى ، وهي أنَّ الرجال الأربعة المنسوبة إليهم هذه الأناجيل الأربعة لا يمكن القطع يقيناً بأنهم هم الذين جمعوها في الواقع. فإذا كان الأشخاص المنسوبة إليهم هذه الأناجيل لا يطمئن التاريخ إلى صدورها عنهم فكيف يطمئن إلى صحَّتها؟

وزاد الطين بِلَّةً أنَّنا لا نعلم يقيناً اللغة التي كتبت بها هذه الأناجيل في الأصل ، وفي أيِّ زمانٍ كُتبت. فقد اختلف مفسرو الأناجيل اختلافاً شديداً في تعيين زمان جمعها ، وتدوينها ، فمن قائلٍ: إنها كتبت سنة ٦٠ للميلاد ، ومن قائلٍ: إنها جمعت بعد ذلك التاريخ بكثيرٍ. وذهب بعض نقدة العلماء الأمريكيين مذهباً بعيداً مستغرباً في أمر المسيح ، وولادته ، ووفاته ، ودين التثليث ، فأنكر ذلك الناقد الأمريكي وجود المسيح عليه السلام قائلاً: إن هذا كلَّه من الأساطير ، وإنَّ ما ذكروه عنه إنما هو بقية من بقايا وثنية الرُّوم واليونان؛ إذ أنَّ تلك الأمم كانت تدين بمِثل هذه الأفكار والعقائد في آلهتهم وأبطالهم القدماء. وقد استمرَّ الجدال أشهراً حول وجود عيسى عليه السلام في مجلَّة (روبن كورت) التي تطبع في شيكاغو[١] ، ودار البحث عمَّا إذا كان للمسيح وجود تاريخيٌّ أم هو مما ابتدعته أوهام القدماء من الأمم السالفة ، واختلقته اختلاقاً. أليس كلُّ هذا مما يوهن الأمر فيما يتعلَّق بعض سيرة المسيح عليه السلام ، وموقف التاريخ من ذلك؟ ونعود

(١) شيكاغو (Chicago) مدينةٌ أميركية.

فنقول : كيف يمكن اتخاذ الأسوة الكاملة التي تطمئن لها القلوب إن لم تكن جميع نواحي الحياة في الشخصيَّة المقتدى بها معلومةً ، وليس فيها ما يجهله الناس ، وما هو مكتومٌ عنهم وراء حجب التاريخ . إنَّ المقتدى به والذي يتَّخذ الناس من حياتـه أسوةً لا بـدَّ أن تكون حياتُه كلُّها واضحةً صافية كالمرآة ، ليلُها كنهارها ، لتبين للناس المثل العليا التي يحتذونها في حياتهم بجميع أطوارها ومناحيها .

ليس فـي أصحـاب الدَّعـوات من يمكـن التـأسِّي بـه إلا محمـد ﷺ :

إذا نظرنا إلى حياة أصحاب النِّحل ، ودعاة الملل ، وهداة البشر من الأنبياء والرسل نظر الناقد البصير ، وتأمَّلنا هديهم ، وسيرهم ؛ لم نجد فيمن تقدَّم ذكرهم من يمكن أن يُتَّخذ من حياته مثلاً أعلى للحياة الإنسانية إلا محمداً ﷺ ، وهديه ، وسيرته ، فهو الذي أرسله الله ليكون فيه أسوةٌ لبني آدم في جميع نواحي حياتهم ، وأطوارها ، وأحوالها . وقد سبق لنا القول بأنَّه ليس في مئات الألوف من المصلحين والنبيين من يشهد لهم التاريخ إلا ثلاثة أو أربعة ، ومع ذلك فإنَّ التاريخ لا يعرف من تفاصيل أحوالهم ، وشؤون حياتهم ، ودخائل سيرتهم إلا نزراً يسيراً ، وغير كامل ، فكيف يتسنَّى للإنسان أن يتَّخذ من ذلك أسوةً لحياته ذات النَّواحي المختلفة؟

أليس من المستغرب أنَّ بوذا الذي يبلغ عدد المنتسبين إليه ربع سكان المعمورة ، ولا يحفظ التاريخ من سيرته إلا عدَّة أقاصيص وحكايات ، لو أننا نقدناها بمقاييس التاريخ لِنـتَّخذَ لأنفسنا قـدوةً من حياته وسيرته ؛ لخرجنا من ذلـك خاسرين . إنَّ إحدى تلك الأقاصيص تنبئنا بأنَّه ولد في زمانٍ غير معلومٍ في وادٍ من أودية (نيبال)[1] في بيت «راجه»[2] ، فكان ذكيَّاً ، وذا طبيعةٍ متوثبةٍ ، وله نفسٌ متدبرةٌ ، وقلبٌ حسَّاسٌ ، فلما بلغ أشدَّه ، وتزوَّج ، وصار أباً ؛ اتفق أن رأى جماعةً من الفقراء والبؤساء ، فأثَّر فيه منظرهم المؤلم ، وأثـار في نفسه كامنَ الرَّحمـة والشفقة ، فخرج من

---

(١) نيبال (Nepal) دولة في وسط جنوب آسيا بين الصين والهند .

(٢) راجه ، أي : ملك .

وطنه هائماً على وجهه حتى بلغ (بنارس)[١] ثم (كيا)[٢] و(بايلي بتر)[٣] ثم (راجكير)[٤] وتاه فيما بين ذلك من جبال وغابات ومدن وقرى ، ولم يزل هائماً على وجهه متجولاً بين هذه البقاع النائية حتى بلغ في تجواله إلى (كيا) فتجلت له الحقيقة المحجوبة ، وهو تحت شجرة من أشجار «ببيل»[٥] فرأى نور الحقِّ ساطعاً ، وادَّعى أنه أدرك سرَّ الحقيقة ، فخرج يدعو الناس إلى دينه بين (بنارس) و(بهار) ثم مضى لسبيله. هذه جملة ما نعلم من سيرة «بوذا» وحياته.

وزردشت يعدُّ واحداً من الذين أسسوا بنيان الدِّين وبدؤوا بالدَّعوة إليه ، وقد أسلفنا أنَّ حياته مجهولةٌ كذلك ، ولا يتتبع أثرها إلا أهل القياس والاستنتاج من علماء التاريخ. وأنا لا أقول شيئاً من عند نفسي في سيرة زردشت ، بل أعرض عليكم نبذةً مما كتب عنه في «دائرة المعارف البريطانية للقرن العشرين» وهي تعدُّ من أوثق المصادر في التاريخ :

«إن زردشت الذي عرفناه من أبيات شعرية في (كاثا)[٦] غير زردشت الذي نراه في (وستا) الجديدة ، فالموصوف في المصدر الأول مباين للمذكور في المصدر الثاني ومضادٌّ له. وعلى كل فإن الأسطورة التي تشتمل على الحياة المستغربة (وقد نقل الكاتب شؤوناً في سيرته من كاثا) لا تدلُّنا على حياة زردشت دلالةً واضحة ، ولا تهدينا السبيل إلى معرفته معرفةً تاريخيةً ، بسبب ما نجد من غموضٍ لا ندرك معناه.

وأخذ الكاتب يسرد المصنفات التي وضعت في هذا العصر عن حياة

---

(١) بنارس (Banares) إحدى مدن الهند تقع على نهر غنغا في ولاية أترابرديش ، وهي مقدَّسة عند الهندوس.

(٢) كيا : (Gaya) مدينة هندية قديمة تقع في ولاية «بهار».

(٣) بايلي بتر : مدينة هندية قديمة تسمَّى اليوم بـ«بتنه» وهي عاصمة ولاية «بهار».

(٤) راجكير : مدينة هندية قديمة تسمَّى اليوم بـ«بهار».

(٥) ببيل : نوع من الأشجار ذات أوراق كبيرة ، تكثر في الهند.

(٦) الأفستا : هو الأسفار المقدسة عند الزرادشتية ، كان مفقوداً ، عثر عالم الآثار الفرنسي دوبرن على قسمٍ منه ، وقام بنشره وترجمته.

زردشت ، وقال: إنَّ مولده لم يعيَّن بعد ، والشهادات على ذلك يناقض بعضها بعضاً. والعهد الذي كان فيه زردشت مجهولٌ كذلك ، فالمؤرخون من اليونان اختلفوا فيه اختلافاً شديداً ، كما اختلف علماء عصرنا في تعيين عهده ، وانتهى كاتب ترجمته في دائرة المعارف البريطانية إلى القول بأنَّنا لا نعلم زمن زردشت البتَّةَ ، ونجهله جهلاً تامَّاً.

وخلاصة ما نعلمه عن حياة زردشت أنَّه ولد في مقاطعة أذربيجان ، ونشر دعوته في بلخ وأطرافها ، وأنَّ الملك هشتاسب دخل في دينه ، ثم ظهرت على يده معجزاتٌ ، وقد تزوَّج ، وولد له أولاد ، ثمَّ توفي. فهل يظنُّ أحدٌ أنَّ هذه المعلومات عن حياة رجل صاحب دعوة تكفي لأن يُتَّخذ من حياته أسوةٌ ، وأن يُقتدى به في جميع مراحل الحياة ، فيكون للناس سراجاً يستضيئون بنوره في تصرُّفاتهم ، وسلوكهم؟

ما يمكـن معرفتــه من أسفـار التـوراة عن موسـى:

ومن أكثر الأنبياء ذكراً وأوضحهم حياةً موسى عليه السلام ، تُرى ماذا تقول أسفار التوراة الخمسة عن حياته؟ ذلك ما نستعرضه بلا أيِّ نقد لما فيه من رواياتٍ ضعيفةٍ ، وغير متعرضين الآن لذكر صحتها ، أو سقمها ، بل نوردها مفترضين صحَّتها:

لا نجد في هذه الأسفار الخمسة من التوراة عن حياة موسى إلا أنَّه بعد ولادته تربَّى في قصر فرعون ، ولما بلغ مبلغَ الرجال نصر قومه بني إسرائيل على ظُلم فرعون مرَّة أو مرَّتين ، ثم هرب من مصر إلى (مَدْين) من بلاد العرب ، وتزوج فيها ، وأقام هناك برهةً من الزمن ، ثم رجع منها إلى مصر ، وبينما هو في طريقه إليها أوحي إليه من ربِّه ، وبعث إلى قومه نبيَّاً وداعياً ، ثم لقي فرعون ، وأراه آياتٍ بيِّناتٍ ، واستأذنه في الخروج ببني إسرائيل من مصر ، فلم يأذن له بذلك ، فخرج بهم على حين غفلةٍ من فرعون ، ووجد في البحر طريقاً بإذن الله ، وتبعه فرعون فأدركه الغرق. أما موسى فقصد بقومه إلا بلاد العرب ، ودخل بهم أرض الشام ، وجاهد من كانوا على الشِّركِ من أهلها ، ومازال يقاتل ويجاهد إلى أن هَرِمَ ، وبلغ من

العُمر عتيّاً ، وأرعشه الكبر ، فجاءه الموتُ وهو على رَبْوةٍ ، وقد اختتم سفر التثنية بهذه الفقرات :

«إنَّ عبد الله موسى مات بإذن الله في أرض موآب ، ودفنه الله في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسانٌ قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن عشرين ومئة سنة حين جاءه الموت. . . ولم يقمْ بعدُ نبيٌّ في إسرائيل مثل موسى»[1].

هذه الفقرات نقلناها من سفر التثنية وهو السِّفر الخامس من التوراة الموحى إلى موسى عليه السلام ، ولا يخفى على ناظر هذا السفر أنَّ الكلمات التي نقلناها لم ينطق بها موسى عليه السلام ، وهذا يدلُّ على أنَّ هـذا السفر كلَّه ، أو جزءه الأخير على الأقل ، ليس لموسى ، وأنَّ الدُّنيا تجهل كاتب هذه السيرة لموسى.

ومما يلفت نظر القارىء قول القائل في هذا السفر «ولم يعرف إنسان قبره (أي قبر موسى عليه السلام) إلى اليوم» وقوله «لم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى». إنَّ هاتين الفقرتين تدلان على أنَّ هذا الجزء الأخير من سيرة موسى عليه السلام قد أضيفت إلى كتاب حياته بعد أيامٍ طويلةٍ ذهبت فيها يد الدهر بآثار هذا المزار العظيم والمشهد الكبير حتى عمِي محلُّه عن الأجيال التالية ، ونسوه ، بل أضيف هذا الجزء من سيرة موسى إلى سفر التثنية بعد زمانٍ طويلٍ كان يرجى فيه أن يقوم في إسرائيل نبيٌّ يسدُّ فراغ موسى ، فنوَّه كاتب السفر بأنه لم يقمْ بعدُ مثله.

إنَّ موسى عليه السلام عُمِّر طويلاً ، وقد نسأ الله من أجله حتى عاش عشرين ومئة سنة ، فما الذي نعرفه عن حياته الطويلة ، وبأي الأعمال شغل فراغ حياته المباركة ، وما هي النواحي التي نعلمها واضحةً مفصَّلةً من سيرته الحافلة بكثير ممَّا كان ينبغي أن يعلم؛ لتحسن به الأسوة؟ إننا لا نعلم إلا مولده ، وشبابه ، وهجرته ، وزواجه ، وبعثته ، ثم قتاله المشركين إلى

---

(١) سفر التثنية (٣٤ : ٥ ـ ١٠).

أن لقيناه مرَّةً أخرى وهو يرتعش من الكبر ، وقد أدركه الهرمُ ، وبلغ من العمر عشرين ومئة سنة. وهل يغنينا ذكر ما يتعلق بحياته الخاصَّة مما يمرُّ بكلِّ إنسانٍ في حياته وبيئته العادية؟ إنَّ الأمور التي كان يحتاج البشر إلى معرفتها من حياة موسى الاجتماعية هي: الأخلاق ، والعادات ، والهدي ، وكلُّ ذلك لا نجده في سيرته. أما ذكر أسماء الرجال ، وأنسابهم ، وأماكنهم ، وبلادهم ، وعددهم ، فممَّا لا يهمُّنا علمُه في مقام القدوة والأسوة والهداية ، مع أنه هو الذي نراه مفصلاً في التوراة. وكذلك نرى فيها شيئاً كثيراً من القوانين ، والمبادىء ، والأصول ، لكن هذه الأمور والتي سبقتها مهما تكن أهميتها عند علماء الجغرافيا ، والأنساب ، والحقوق فإنَّها لا تعنينا نحن من جهة الأسوة والقدوة في الحياة ، ولا تسدُّ الخَلَل الواقع في سيرة موسى عليه السلام من هذه النَّاحية؛ التي لا يكمل بيانها إلاَّ بذكر أخلاقه ، وشؤون حياته ، وأحواله في معاشرته ، وهو ما لا بدَّ منه ليتخذه البشر مثالاً يعمل به.

شؤون حياة المسيح أخفى من غيره وأغمض:

وَمِنْ أقرب الأنبياء عهداً بالإسلام عيسى عليه السلام الذي يزيد عدد المنتسبين إليه بحسب إحصاءات الأوربيين على عدد المنتسبين إلى الدِّيانات الأخرى ، وإنَّ المرء ليستغرب حين يعلم أنَّ شؤون حياته وأحوال معيشته أخفى من غيره ، وأغمض ، وقد أسدل الزمان عليها حجاباً أكثف مما نراه في حياة العظماء الآخرين من الرسل الذين يُعدُّون من أصحاب الأديان المشهورة. وإنَّ أوربا المسيحية قد حملها حافز البحث والكشف على أن تستثير بطون الصَّحارى ، وقلل الجبال ، وأطراف الصُّخور والأطلال الدارسة ، ومظانَّ الآثار ، ومجالات الحوادث التي مرَّت عليها الأحقاب الطويلة ، فكتب المستشرقون التاريخ القديم لبابل ، وأشور ، والعرب ، والشام ، ومصر ، وإفريقية ، والهند ، وتركستان ، وأخذوا يلائمون بين الحوادث القديمة المجهولة الزَّمن ، ويعرضونها على الناس واضحةً ، نقيَّةً ، منسَّقةً ، مرتبطاً بعضها ببعض ، وطفقوا يعثرون على الصَّفحات المفقودة من كتاب التاريخ القديم للبشر ، إلا أنهم قد أعياهم البحث

والفحص، فلم يجدوا الصفحات المفقودة عن حياة نبيهم. وقد استفرغ العلامة رينان[1] جهده، ولقي من العناء والنصب مبلغاً عظيماً ليقف على حياة عيسى كاملةً تامَّةً، ومع ذلك فإنَّ شؤون عيسى عليه السلام وأحواله لاتزال سراً مكنوناً في ضمير الزَّمن لم يبح به لسانه بعد.

إنَّ عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثاً وثلاثين سنة كما يروي الإنجيل، والأناجيل الموجودة في الأيدي ـ على ما في رواياتها من ضعف ولبس ـ مقصورةً على ذكر أحواله لمدة ثلاث سنوات من أواخر حياته وحسبُ، فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنَّه ولد، وجيء به إلى مصر، وأراه الله آيةً أو آيتين في صباه، ثم غاب عن الناس، وظهر لهم وهو في الثلاثين من عمره، فنراه قائماً يعظ الملاَّحين، وصيادي السَّمك على الشواطىء، وفي بعض الرَّبوات، فصحبه جماعةٌ من حوارييه، وقد جادل اليهود، وناظرهم في بعض الأحيان، إلى أن حمل اليهودُ الحكامَ الروميين على القبض عليه، ورفع أمره إلى محكمةٍ يرأسها قاضٍ من الروم، فقضى عليه بالصَّلب، وبعد ثلاثة أيام وجد قبره خالياً من جسده عليه السلام.

أين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس والعشرين سنة على الأقل من حياته؟ وفيمَ قضاها؟ وبأيِّ الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره؟ إنَّ الدُّنيا لا تعلم عن ذلك شيئاً ولن تعلم. والسنوات الثلاث الأخيرة ماذا نجد فيها؟ آياتٍ ومعجزاتٍ معدودات، وبعضَ العظات، ثم قيل: إنَّه صُلِبَ، فانطوت صحيفة حياته.

الحياة المثالية هي التي يبدأ صاحب دعوتها بنفسه فيعمل بما يدعو إليه:

من الشروط المحتَّمة التي لا بدَّ منها لكلِّ من يُرَجَّى أن تكون سيرته وهدايته أسوةً للبشر: الكمالُ، والتَّمامُ، والجمع. والمراد بالكمال، والتمام، والجمع: أنَّ الطوائف الإنسانية المتفرقة والطبقاتِ البشريةَ

---

(١) هو أرنست رينان (Aurnest Renan) مستشرق وفيلسوف فرنسي، تضلَّع من اللغات الشرقية، أخذ بمذهب حرية الفكر، فصنف كتابه «حياة يسوع». عني بالعقائد الإسلامية، مات سنة ١٨٩٢ م.

المختلفة تحتاج إلى أمثلةٍ كثيرةٍ ومتنوعةٍ تتخذها منهاجاً لحياتها الاجتماعية. وكذلك الأفراد في المجتمع البشريِّ هم في حاجة إلى مثلٍ عليا يقتدون بها في مناحي حياتهم البيتية؛ لتتوثق الروابط بين الأفراد، وتحسن العلاقات بين شتَّى الطوائف في داخل الأسرة وخارجها. لذلك ينبغي أن تكون تلك المثل كلُّها واضحةً في حياة الإنسان العظيم الذي يُتَّخذ مثالاً في الحياة. وإذا صحَّت هذه النظرة ـ وهي صحيحةٌ ـ لم نجد في سالف الأيام قدوةً واضحَ الحياة غير محمَّدٍ خاتم النبيين عليه وعليهم السَّلام. والدِّين هو طاعةُ المخلوق للخالق، وبالدِّين يتعلَّم المرء ما فرضه الخالق على خلقه من فرائض، وما أوجبه من واجبات، فيؤمن بها، ويحقِّقها بالعمل. وإذا أردنا أن نعبِّر عن الدِّين بعبارة أخرى قلنا: هو القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه، إذاً فيجب على كلِّ متَّبعٍ لدينٍ أن يتعرَّف هذه الحقوق، والفرائض، والواجبات من سيرة نبيه، والأحوال التي كان عليها صاحب ملَّته، ثم يقتدي بها، ويفرغ حياته في قالبها. وإذا نظرنا إلى سير الأنبياء هذه النظرة، وحاولنا معرفة حقوق الله، وحقوق خلقه كاملةً تامَّةً من سيرتهم؛ لم نجد ذلك إلا في سيرة محمَّدٍ ﷺ المبعوث إلى الناس كافَّةً.

والدِّيانات إذا تأملناها يبدو لنا أنها على نوعين: نوعٍ لا نجد فيه ذكر الله تعالى البتة، ومن هذا النوع دين «بوذا» ودين الصين، فليس فيهما ذكر الله تعالى، ولا لصفاته، وليس فيهما فرائض وواجباتٌ على الإنسان، ومن باب أولى ليس فيهما ذكرٌ للحبِّ في الله، وتوحيده، والإخلاص له، فالذي يبحث فيهما عن هذه الأمور لا يخرج من بحثه بشيءٍ.

ونوعٌ آخر ورد فيه ذكرُ الله عزَّ وجل، وسلَّموا فيه بوجوده على وجه ما، وآمنوا به إيماناً بالجملة، لكنَّك لا ترى في سير أنبيائه، أو في تعاليم دعاته ما يعرف منه الإنسان كيف يعتقد بربه، وكيف يؤمن به، وبأيِّ الأوصاف يصفه، وكيف كان هؤلاء يعتقدون بالله، وإلى أيِّ حدٍّ تأثَّروا بتلك العقائد في أعمالهم وأخلاقهم، وفي أيِّ صورةٍ من صور الأعمال تجلَّت عقائدهم، وبرزت للوجود. كلُّ هذا لا نرى له أثراً في سير هؤلاء. اقرأ التوراة، واستقص النظر في فصولها، وفقراتها، وتدبَّر ذلك ما استطعت فإنك لن

تجد فيها إلا توحيد الله ، وشرائط القربان ، وشيئاً من الأحكام ، أما إذا أردت أن تعرف من الأسفار الخمسة التي تتألف منها التوراة شيئاً عمَّا كان في قلب موسى عليه السلام من الحبِّ لله ، والشَّوق للقائه ، وكيف كان يطيع الله ويعبده ، وكيف كان توكُّله على الله ، ويقينه به ، وكم أثرت الصفات الإلهية على قلبه ، فإنَّك لا تجد فيها شيئاً من ذلك. ولو كانت الشرعيةُ الموسويةُ وأحكامُها عامَّةً للبشر ، دائمةً بدوام الدَّهر؛ لكان واجباً على أتباع موسى عليه السلام أن يقيِّدوها بالحفظ والكتابة ، وأن يصونوها مِنْ عَبَثِ الدَّهر بها ، لكن الله عز وجل لمَّا لَمْ يُرِدْ أن تكون شريعته عامَّة خالدةً لم يُتِحْ لها هذه العناية في الحفظ والتَّخليد.

والإنجيل مرآةٌ صافيةٌ ، تجلَّت فيها حياة عيسى عليه السلام ، لكننا نجد فيه أن الله (تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً) هو أبو عيسى عليه السلام. أما كيف كانت رابطة الأبوَّة بين هذا الولد المقدَّس ووالده ، فإن الولد يخبرنا بأن أباه كان يحبه حبَّاً جمَّاً ، لكنَّنا لم نعلم إلى أيِّ حدٍّ بلغ حبُّ الولد لوالده ، وكيف كانت طاعة الابن لأبيه ، وهل كان يركع له ، ويسجد في النَّهار ، أو في الليل ، وهل سأله شيئاً غير خبز يومه ، وهل دعا أباه بدعوة في ليلةٍ من الليالي قبل الليلة التي اعتقل في نهارها؟ إنَّنا لا نعلم هذا ولا ذاك.

ولو أنَّ سيرة سيدنا عيسى عليه السلام المذكورة في الإنجيل تحتوي على بيان العلاقة بين المخلوق وخالقه ، وتهدي المرء إلى ذلك هدايةً تامَّةً؛ لما احتاج أول ملوك المسيحية أن يعقد مجلساً شهده ثلاثمئة حبر من أحبار الكنيسة بعد ثلاثة قرون ونصف قرنٍ من المسيح ، ليبتوا الحكم في أمر المسيحية. ومع ذلك بقي أمر سيدنا عيسى عليه السلام سرَّاً من أسرار الزَّمان ، وسيبقى سرَّاً في ضمير الزمان ، لا يعرب عنه لسان البحث.

هذا فيما يتعلَّق بحقوق الله ، أما حقوق الخلق؛ فلا تراها مفصَّلةً أحكامها ، محكمةً أصولها وأركانها في سيرة أحدٍ من الأنبياء ، وتعاليمهم غير محمد ﷺ.

أما «بوذا»[١] فإنَّه منذ هجر أهله وعياله إلى الصحارى والغابات لم يرجع قطُّ إلى خليلته التي كانت حبيبة إلى قلبه ، ولم يرَ ولده الوحيد مرَّةً أخرى ، وترك خلانه ، وأحباءه ، فخفَّف عن كاهله أعباء الحكم ، وارتضى الموت آخر وسيلة له إلى النجاة ، فكان الأجلُ المحتومُ الغايةَ القُصوى للحياة البشرية عنده. فمن ذا الذي يرضى بأن يتَّخذ من حياة «بوذا» أسوةً في هذه الدُّنيا التي لا بقاء لها ، ولا عمران إلا بالحياة الاجتماعية ، والروابط العمرانية ، والأواصر الإنسانية ، ولا بدَّ فيها من راعٍ يرعى رعيته ، وصديقٍ يألف صديقه ، ووالدٍ يشفق على ولده ، وأمٍّ تحنُّ على فلذة كبدها. وهل في حياة «بوذا» شيء من ذلك يكون به أسوةً للجميع: من الرهبان الذين انقطعوا للآخرة ، إلى الآباء ذوي العيال وأصحاب الضياع والمزارع والمصانع والأموال؟ كلا ثمَّ كلا ، لم تكن سيرة «بوذا» قطُّ أسوةً للهناء العائلي ، ولا لأهل الصناعات والمتاجر ، ولو اتخذ أتباع «بوذا» قدوةً لهم من حياة «بوذا» لما قامت لهم هذه الدُّول في «الصِّين» و«اليابان» و«سيام» و«تبت» و«بُرما» ، ولما عمرت للتجارة في بلادهم سوق ، ولا دبَّت الحياة في صناعاتهم ومصانعهم. ولو اختار أهل تلك البلاد سيرة متبوعهم سيرةً لهم ، وساروا عليها؛ لأقفرت الأرض العامرة ، وتحوَّلت إلى صحارى قاحلة ، ولأصبحت المدن خراباً ، أو أرضاً جرداء.

وأما موسى عليه السلام فلا نعلم عن حياته ـ حسب الأسفار الخمسة من التوراة ـ إلا قتاله وقيادته في الحرب وبسالته فيها. أما النَّواحي الأخرى من

---

(١) هو المفكر الهندي «جوتام بوذا» (Gautam Buddah) يرجع تاريخ ولادته حسب تحديد المؤرخ الغربي أدوارد توماس إلى ٥٣٦ قبل الميلاد ، ووفاته ٥٤٤ قبل الميلاد ، ومن المعلوم أن «بوذا» لم يضع كتاباً خاصاً ، أو دستوراً جامعاً واضح المعالم يحتوي على تعاليم دعوته ، ومبادىء فلسفته ، ولكنه نشر فلسفته بطريق خطبه أمام أتباعه وتلاميذته ، فقام عدد منهم بتأليف كتب تضم القواعد والمبادىء الدينية التي بشَّر بها «بوذا» في مواعظه وخطبه ، والحكم والكلمات السَّديدة التي لقنها في مختلف المناسبات ، وتجلَّت منها بوضوح الأهداف المنشودة من هذه الفلسفة ومبادئها الجوهرية.

حياته ، كالحقوق في أمور الدُّنيا ، والفرائض ، والواجبات؛ فلا نتبيَّنُها بوضوحٍ وجلاءٍ ، لذلك يتعذَّر على المرء أن يتَّخذ منها أسوةً في أعماله. ومن يحاول أن يقف على ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الزوج وزوجه ، والولد ووالده ، وشروط الصداقة بين الصديقين ، وأساليب الهدنة بين الفريقين المتقاتلين ، وكيف ينفق المرء أمواله ، وفيم ينفقها؟ وكيف يعامل اليتامى والفقراء والمساكين؟ فإنَّ من يحاول معرفة ذلك من سيرة موسى عليه السلام فسيرى: أنَّ صحيفة حياته قد خلت من ذكر هذه الأمور ، مع أنَّ موسى كان له زوجٌ ، وإخوةٌ ، وأقارب ، ولا ريب أنَّ موسى كان يعاشرهم أحسن معاشرةٍ ، فكان خيرَ زوجٍ لأهله ، وأفضل أخٍ لإخوته ، وأوفى صديقٍ لأصدقائه ، والأسوة به في ذلك كلِّه مرغوبٌ فيهاً ، محمودٌ أثرُها ، لكن كتبهم التي استعرضت سيرته خاليةٌ من ذلك. والتاريخُ لم يطرق سمعه شيءٌ عن هذه الأنباء من حياة موسى ؛ ليتسنى للناس أن يتَّخذوا منها أسوةً في الحياة.

وكان لعيسى عليه السلام أمٌّ ، والإنجيل يخبرنا بأنَّه كان له أخٌ وأخت ، بل كان له والدٌ أيضاً كما يكون لعامة الأبناء آباءٌ وأمهات ، لكن قصة حياته لا تدلُّنا على كيفية معاملته لذويه ، وكيف كان يعاشرهم ، مع أنَّ الدُّنيا معمورةٌ بالإخوة ، والخلاَّن ، وذوي القربى ، وستبقى حافلةً بهم ، وقد اعتنت الدِّيانات بحقوق هؤلاء وأولئك ، وفرضت كثيراً من فرائضها المتعلقة بحقوق الأسرة والعائلة ، وحثَّت على القيام بتلك الفرائض.

إنَّ عيسى عليه السلام عاش عيشة المغلوبين المحكومين ، فلا غرو إذا لم نجد في حياته مثالاً من واجبات الحاكم الغالب. ولم يكن له عليه السلام زوجة ، لذلك لا نرى في حياته مثالاً لما ينبغي أن يتبادله الزَّوج والزوجة من واجباتٍ وحقوق ، خصوصاً وأنَّ الذي بين الزوجين من الصلة أوثقُ ، وأشدُّ من الذي بين الأولاد وآبائهم كما جاء في سفر التكوين من التوراة[1]: أنَّ هذه الدنيا معظم سكانها يعيش عيشة الزواج والمناكحة ، فليس له في حياة

---

(١) لعلَّ العلاَّمة المؤلف يُشير إلى ما جاء في سفر التكوين: (١ : ٢٧ و٨: ١٥ ـ ١٩).

عيسى عليه السلام مثال. وأنَّ العالم الذي يحتاج سكانه في حياتهم إلى أسوةٍ تامَّةٍ ليعلموا كيف تكون الرابطة بين الزوج وزوجه، وبين الصديق وأصدقائه، والأب وبنيه، والمقاتل وأعدائه، والهدنة بين المتحاربين، وكيف تنعقد، لا يستطيع أن يجد له أسوةً في حياة من لا يجد لهذه الأمور ذكراً في سيرته. ولو أنَّ الناس في أيامنا هذه آثروا التأسي بحياة عيسى عليه السلام، وأرادوا أن يعيشوا كما عاش؛ لخربت الدُّنيا واستحالَ عمرانها خراباً يباباً، ولأصبحت القرى مقابر تتردَّد في أنحائها أصوات البوم. أما الحضارةُ، وتقدُّمها فسرعان ما يعتريهما الزوالُ، ويمحى اسمهما، وأوربا المسيحية لن تبقى بعد ذلك يوماً واحداً.

إنَّ الحياة المثالية لن تكون أسوةَ الناس ما لم تكن أعمالُ صاحبها ـ الذي يؤسس ديناً، ويدعو الناس إليه ـ مثالاً وأنموذجاً لمن يدعو إليه، ولا يتطرَّق الشكُّ إلى الناس بأنَّ ما يدعو إليه هو مما يعمل به. ومن السَّهل أن يدعو الدَّاعي إلى فلسفةٍ تحظى بإعجاب الناس، وإلى فكرةٍ يستحسنونها، أو نظريةٍ جديدةٍ في الحياة تروقُ لهم. وكلُّ ذلك مما يَقْدِرُ عليه كثيرٌ من الناس متى شاؤوا وأين شاؤوا. أما الذي لا يستطاع دائماً فهو عمل الدعاة بما يدعون إليه، وليست الأفكار الصَّحيحةُ، والنَّظرياتُ الشائقة، والأقوال الحسنة هي التي تجعل الإنسان إنساناً كاملاً، وتجعل من حياته أسوةً للناس، ومثلاً أعلى في الحياة، بل أعمال الدَّاعي وأخلاقه هي التي تجعله كذلك. ولولا ذلك لما كان هناك فرقٌ بين الخير والشر، ولما تميَّز المصلح عن غيره. ولامتلأت الدُّنيا بالثرثارين والمتفيهقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

وهنا ينبغي لنا توجيه السؤال إلى العالم أجمع: من ذا الذي تعدُّ حياته أسوةً للبشر، وفيها المثل الأعلى للبشر، من بين مئات الألوف من الرسل والأنبياء، وعظماء المصلحين مِمَّن شرعوا للإنسانية دياناتها، وسنُّوا السنن للناس؟

«تحبُّ الربَّ إلهك من كلِّ قلبكِ ومن كلِّ نفسك ومن كلِّ فكرك. أحبب

أعداءك. من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً. من سخَّرك ميلاً فاذهب معه ميلين. من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك؛ فاترك له الرداء أيضاً. اذهب وبع أملاكك، وأعط الفقراء. واعف عن أخيك سبعين مرَّةً. يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات».

إنَّ هذا وأمثاله لا شكَّ أنَّه من الموعظة الحسنة المحببة إلى النفوس، لكنَّها لا تعدُّ سيرةً ما لم يقترن بها العمل. نعم إنَّها قولٌ ليِّنٌ وحديثٌ لذيذٌ، ولكنَّ الذي لا يغلب عدوه كيف يتسنَّى له العفو، ومن لا يملك، ومن لا يكون له مال كيف يتصدَّق على الفقراء والمساكين واليتامى، وكيف يقضي لهم حاجاتهم؟ ومن لا زوج له، ولا ولد، ولا أهل كيف تكون حياتُه أسوةً للأزواج، وذوي البنين، والمتأهلين، وهم هم الناس الذين تعمر الدنيا بهم؟ وَمَنْ لم يتفق له أن يصفح عن أحدٍ في حياته كيف يقتدي به مَنْ كان شديد الغضب، سريعَ البادرة.

الحسناتُ قسمان: قسم سلبي، وآخر إيجابيٌّ. وأنت إذا اعتزلت الدُّنيا في غارٍ بسفح جبل تعبد فيه ربَّك، ولم تبرحه طوال حياتك، تصرفُ فيه أوقاتك بالتبتُّل إلى الله، فإنَّ أحسن ما يقال في مدحك: إنك اتقيت الشرَّ، ولم تقترف سيئةً تُذَمُّ عليها، وذلك من الحسنات، إلا أنها حسناتٌ سلبية. ولكن ماذا فعلت من الناحية الإيجابية من خير: هل حملت كلاًّ، أو نصرت مظلوماً، أو كسبت معدماً، أو أطعمت جائعاً، أو كسوت عارياً، أو ساعدت فقيراً، أو ذدت عن ضعيفٍ، أو هديت ضالاًّ؟ إن الأخلاق الحسنة ومكارمها من العفو، والسماحة، والقِرى، وبذل المال، والصِّدق بالحق، والحميَّة في قمع الباطل، والجهاد في أداء الواجب لا تعدُّ مكارمَ أخلاق لأجل ترك الدُّنيا، والتبتُّل في عزلةٍ عن المجتمع، وليست الحسنات من الأمور السلبية فحسب، بل معظمُ الحسنات ترجع إلى العمل الإيجابيِّ الذي يقوم به المرء، ولا يكفي فيها تركُ المعاصي، واجتنابُ السُّوء. وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ حياة العظيم لا تكون فيها الأسوة للناس ما لم تصدر عن صاحبها الأعمال الإيجابيةُ المحمودةُ، والأخلاقُ النَّافعةُ الكريمةُ ممَّا يوافق

الحياة المثالية (Idial Life) ، وأيُّ عملٍ يعمله المتأسِّي إن لم ير لمن يأتسي به أعمالاً إيجابية تتمُّ بها الحياة الصالحة في شتى أطوارها. إنَّ الإنسان ينشدُ مثالاً يقتدي به في كلِّ عملٍ يُقْدِمُ عليه في غناه وفقره ، وفي سلمه وحربه ، ويتحرَّى السبيل الـذي يسلكه إذا تزوَّج ، أو بقي عازباً ، ويريد أنموذجاً عالياً يأتمُّ به إذا عبد ربَّه ، أو عاشر الناس ، ويحاول أن يلمَّ بالقوانين التي ينبغي العمل بها بالنسبة إلى الرَّاعي والرعية ، والحكام والمحكومين. جميع هذه الأمور ينبغي للمرء أن يتَّخذَ لنفسه القدوةَ فيها؛ لأنَّ الأمم قد التوت عليها هذه المسألةُ ، فأهمَّها التماس الطريق الموصل إلى حلِّ هذه المعضلات ، وتذليل هذه المصاعب. ومعظم الشعوب تشعر بالحاجة الشديدة إلى المُثُل العليا في ذلك؛ لتخفِّف عن الإنسانية آلامَها ، وتأسو جراحها: وهي متلهفةٌ على مثالٍ لذلك من الأعمال ، لا على مثالٍ عليه من الأقوال.

ولستُ بمبالغٍ إذا قلت: إنَّ التاريخ أصدقُ شاهدٍ على أنَّه ليس في الدُّنيا أحدٌ يصحُّ أن تكون للإنسانية أسوةً من سيرته وحياته غيرُ سيرة محمَّدٍ ﷺ ، وحياته.

اشتراط أن تكون سيرةُ المتبوع تاريخيةً وجامعةً وكاملةً وعمليَّةً:

وليكن على ذكرٍ منكم ما تحدثت به إليكم من قبل ، وهو أنَّ حياة العظيم التي يجدر بالناس أن يتَّخذوا منها قدوةً لهم في الحياة. ينبغي أن تتوفر فيها أربع خصال:

١ ـ أن تكون «تاريخيَّة» ، أي: أنَّ التاريخ الصحيح الممحص يصدِّقها ، ويشهد لها.

٢ ـ أن تكون «جامعةً» أي: محيطةً بأطوار الحياة ، ومناحيها ، وجميع شؤونها.

٣ ـ أن تكون «كاملةً» أي: أن تكون متسلسلةً ، لا تنقص شيئاً من حلقات الحياة.

٤ ـ أن تكون «عمليةً» أي: أن تكون الدَّعوة إلى المبادىء، والفضائل، والواجبات بعملِ الدَّاعي وأخلاقه، وأن يكون كلُّ ما دعا إليه بلسانه قد حقَّقه بسيرته، وعمل به في حياته الشخصية، والعائلية، والاجتماعية، فأصبحت أعماله مُثلاً عليا للناس يأتسون بها. وأنا لا أقول: إنَّ الأنبياء صفرت صحائف حياتهم من هذه الميزة مدَّة وجودهم في الحياة الدُّنيا، بل أقول: إن سيرتهم التي توجد الآن بين أيدي الناس لا تنصُّ على هذه الأمور، ويخيَّل إليَّ أنَّ الحكمة الإلهية في ذلك ترجع إلى أن أولئك الأنبياء إنما بعثوا لأزمانهم، وشعوبهم، فكان الموفقون للخير من شعوبهم في أزمانهم يرون سيرتهم فيأتسون بها، ولم يكن هنالك حاجةٌ إلى أن تبقى سيرتهم معلومةً للأجيال التالية بعدهم؛ لأنَّ النبوَّات ستختم برسالة محمد ﷺ الكاملة إلى الناس كافَّةً في كلِّ زمانٍ ومكان، فمسَّت الحاجة إلى أن تكون سيرتُه ﷺ معلومةً على حقيقتها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى يوم القيامة؛ ليتيسَّر التأسِّي بها لجميع أمم الأرض. وهذا من أصدق البراهين على كون محمَّدٍ ﷺ خاتم النبيين، ولا نبيَّ بعده ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

* * *




المحاضرةُ الثَّالثة

السِّيرةُ المحمَّديَّة من النَّاحيةِ التَّاريخيَّة




امتياز الإسلام بحفظ السيرة النبويَّة وتراجم الصَّحابة والتابعين والأئمة والمتبوعين:

أيها السادة! قلنا فيما سبق: إنَّ الحياة المثالية جديرٌ بها أن تكون مشتملةً على خصالٍ أربع. وسننظر الآن إلى سيرة محمد ﷺ من هذه النواحي، وأولها أن تكون سيرةً «تاريخية».

لقد شهدت الدُّنيا أصدق شهادةٍ، ثم ازداد ذلك ثبوتاً على الأيام بأنَّ الإسلام لم يقتصر على حفظ سيرته ﷺ، بل توسَّع في ذلك إلى ما يتعلَّق بها من كلِّ النواحي، وصان هذه الأمانة القدسية، فلم تلمسها يَدُ الضَّياع، ولم تعبث بها عواملُ الدَّهر، إلى درجة أنَّ العالم كلَّه يقف من ذلك موقف العجب والاستغراب. والذين وقفوا حياتهم منذ العصر النَّبويِّ على حفظ أقوال النبيِّ ﷺ، ورواية أحاديثه، وكلِّ ما يتعلَّق بحياته أدَّوْها إلى مَنْ ضبطوها بعدهم، وكتبوها، وصاروا يسمَّون «رواة الحديث» أو «المحدِّثين» و«أصحاب السِّير»، وهم طبقاتٌ متسلسلةٌ من «الصحابة» و«التابعين» و«تابعي التابعين» حتى وافى القرن الرابع. فلما كملت هذه الذخيرة التاريخيَّة جمعاً، وكتابةً، وتدويناً جعل العلماء يكتبون سِيَرَ هؤلاء الرُّواة من الصَّحابة والتابعين، ومن بعدهم من العلماء الذين رووا شيئاً مما يتعلَّق بحياة رسول الله ﷺ، فكتبوا أسماءهم، وكناهم، وأنسابهم، ومنشأهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وبالجملة أحصوا شؤون حياتهم كلَّها، حتى أصبح ما كتبوا في هذا الباب علماً مستقلاً سُمِّي فيما بعد «علم أسماء الرجال»[1].

---

(١) إن العالم الألماني المعروف الدكتور سبرنكر كان في سنة ١٨٥٤ م وما بعدها موظفاً في ديوان من دواوين المعارف في أيالة البنغال وأمين السر للجمعية الآسيوية فيها. وقد عني بكتاب المغازي للواقدي، ونشر بعناية فان كرامر وتصحيحه سنة ١٩٥٦، وبعنايته طبع كتاب الإصابة في أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني. وقد ادَّعى أنَّه أول أوربي كتب في سيرة محمد ﷺ معتمداً على المصادر العربية الأولى، ولم يعتمد في تأليفه إلا عليها. ومع أنه ـ في الحقيقة ـ لم يكتب كتابه دفاعاً عن صاحب الرسالة ﷺ بل كان متحاملاً عليه، ومخالفاً له، إلا أنه قال في مقدمته =

عنايةُ الصَّحابة بحفظ الحديث النَّبويِّ وعنايةُ التابعين والأئمة والمتبوعين :

وقد بلغ عددُ الصحابة رضي الله عنهم في آخر حياة النَّبيِّ ﷺ ـ عندما حجَّ حجَّة الوداع ـ مئة ألف ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي مذكورة أسماؤهم وأحوالهم في كتب التاريخ التي أفردت لتدوين أحوالهم خاصَّةً. وإن التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم، ولم يحفظ لنا شؤونهم إلا لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم حفظ شيئاً من أقوال النبيِّ ﷺ، وأفعاله، وتصرفاته، وهديه، وسيرته.

لقد توفي ﷺ سنة ١١ من الهجرة النبوية، وبقي فريقٌ من كبار الصحابة بعده إلى سنة ٤٠ هـ، وبقي بعد ذلك من الصحابة الذين كانوا أحداثاً في حياة النبي ﷺ عددٌ غير قليل، فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد، وانطفأ كلُّ سراجٍ أوقد بنور النبوة. وإليكم أسماء آخر من مات من الصحابة، والبلاد التي ماتوا فيها، وسنوات وفاتهم.

آخر الصحابة موتاً	المدن التي توفوا فيها	سنة الوفاة
١ ـ أبو أمامة[(١)]	الشام	٨٦ هـ
٢ ـ عبد الله بن الحارث بن جزء[(٢)]	مصر	٨٦ هـ
٣ ـ عبد الله بن أبي أوفى[(٣)]	الكوفة	٨٧ هـ

= بالإنجليزية على كتاب الإصابة المطبوع في كلكته سنة ١٨٥٣ ـ ١٨٦٤ م: «لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة، كما أنَّه لا توجد الآن أمَّة من الأمم المعاصرة، أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمئة ألف رجل وشؤونهم».

(١) هو صدي بن عجلان بن وهب الباهلي، كان مع سيدنا علي رضي الله عنه في «صفين»، وسكن الشام، فتوفي في حمص، وهو آخر من مات من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في الشام.

(٢) هو عبد الله بن الحارث بن جزء الزَّبيدي، سكن مصر، وعمي قبل وفاته، وهو آخر من مات من الصحابة بمصر، رَوَى عنه المصريُّون أحاديث.

(٣) هو علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي، شهد الحديبية، وبايع الرضوان، وشهد خيبر وما بعدها من المشاهد، توفي بالكوفة وهو آخر من مات فيها من الصحابة.

٤ ـ السائب بن يزيد[١]	المدينة	٩١ هـ
٥ ـ أنس بن مالك[٢]	البصرة	٩٣ هـ

وأنس بن مالك هذا الذي كان آخر من بقي من الصحابة كان الخادم الخاص لرسول الله ﷺ ، استمرَّ في خدمته عشر سنوات متوالية .

الكلام على التابعين وأساتذتهم من الصحابة :

أما التابعون الذين هم تلاميذ الصحابة؛ فيبدأ تاريخ طبقتهم من السنة الأولى للهجرة ، ومنهم من ولد في عهد النَّبيِّ ﷺ لكنه لم يتشرَّف برؤيته ، أو كان في العهد النَّبويِّ صغير السن فلم يحظ بالصحبة ، ولم يقدَّر له أن ينال قبساً من مشكاة النبوة ، كعبد الرحمن بن الحارث[٣] المولود سنة ٣ هـ ، وقيس بن أبي حازم[٤] المولود سنة ٤ هـ ، وسعيد بن المسيب[٥] المولود سنة ١٤ هـ. وهؤلاء التابعون الذين ينزلون المنزلة الثانية بعد

---

(١) هو السائب بن يزيد بن سعيد الكندي ، مولده قبل السنة الأولى من الهجرة ، وكان مع النبي ﷺ يوم حجَّ النبي ﷺ حجة الوداع ، واستعمله سيدنا عمر رضي الله عنه على سوق المدينة ، وهو آخر من مات من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالمدينة ، وعنه اثنان وعشرون حديثاً مروياً.

(٢) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري ، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه ، مولده بالمدينة المنورة ، أسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى وفاته ، ثم رحل إلى دمشق ومنها إلى البصرة ، وهو آخر من مات من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالبصرة ، وعنه ألفان ومئتان وستة وثمانون حديثاً مروياً.

(٣) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي المدني ، كان من ثقات التابعين ، ومن أشراف قريش ، وهو أحد الأربعة الَّذين عهد إليهم سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ بنسخ المصاحف توفي بالمدينة عام ٤٣ هـ.

(٤) هو قيس بن عبد عوف بن الحارث الأحمسي البجلي ، تابعي جليل ، أدرك الجاهلية ، ورحل إلى النبي ﷺ ليبايعه ، فقبض ﷺ وهو في الطريق ، روى عن الأصحاب العشرة ، وهو أجود الناس إسناداً ، توفي عام ٨٤ هـ.

(٥) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي ، سيد التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع ، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته ، توفي بالمدينة عام ٩٤ هـ.

الصحابة في نشر الإسلام وتبليغ دعوته ، وقد حملوا الرسالة المحمدية إلى الأنحاء النائية ، والبلاد المترامية الأطراف ، ولم يكن لهم همٌّ في الدنيا إلا حفظ الدين ، ونشر أحكامه ، وتبليغ الإسلام ، وتعميم سننه وآدابه ، والتعريف بسيرة الرسول ﷺ وهديه . وقد ذكر ابن سعد[1] في الطبقات ١٣٩ من التابعين أهل الطبقة الأولى الذين كانوا في المدينة ، وأدركوا كبار الصحابة ، وسمعوا منهم أحاديث النبي ﷺ ، ورووها عنهم . وذكر ١٢٩ من الطبقة الثانية الذين لقوا عامَّة الصحابة ، ورووا عنهم ، أما الطبقة الثالثة من التابعين فهم الذين حظي الواحد منهم برؤية صحابي واحدٍ ، أو عدَّةٍ من الصحابة ، وعدد هؤلاء ٨٧ ، فمجموع عدد التابعين ٣٥٥ في مدينةٍ واحدةٍ وهي مدينة الرسول ﷺ ، فقيسوا على ذلك عدد الذين أخذوا عن الصحابة في بقية المدن الإسلامية التي انتشر الصحابة فيها من مكة إلى الطائف ، والبصرة ، والكوفة ، ودمشق ، واليمن ، ومصر ، وغيرها . وهؤلاء ـ كما علمتم ـ لم يكن لهم همٌّ إلا نشر رسالة الإسلام ، وتبليغ أقوال النبي ﷺ ، وهديه ، وسيرته . وانظروا إلى اهتمام المؤرخين باستيعابهم ، واستقصاء أحوالهم في إحصاء الأحاديث المروية عن الصحابة . وإليكم أسماء بعض الصحابة الذين امتازوا بكثرة ما يحفظونه من الحديث النبويِّ ، وعدد ما رُويَ عنهم منه :

أسماء الرواة من الصحابة	عدد مروياتهم	سنة وفاتهم
١ ـ أبو هريرة[2]	٥٣٧٤	٥٩ هـ

---

(١) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري ، من حفاظ الحديث والثقات ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد وتوفي بها سنة ٢٣٠ هـ ، من أشهر كتبه «طبقات الصحابة» يعرف بـ«طبقات ابن سعد» .

(٢) هو أكثر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حديثاً عن رسول الله ﷺ ، وهو معروف بكثرة ملازمته لرسول الله ﷺ ، وجرأته في السؤال ، وحبّه للعلم ، ومذاكرته حديث الرسول ﷺ في كل فرصة تسنح له.
روى له الإمام أحمد في سنده (٣٨٤٨) حديثاً (وفيها مكرر كثير باللفظ والمعنى) =

٢ ـ عبد الله بن عباس[١]	١٦٦٠	٦٨ هـ
٣ ـ عائشة الصديقة[٢]	٢٢١٠	٥٨ هـ
٤ ـ عبد الله بن عمر[٣]	٢٦٣٠	٧٣ هـ
٥ ـ جابر بن عبد الله[٤]	١٥٤٠	٧٨ هـ
٦ ـ أنس بن مالك[٥]	٢٢٨٦	٩٣ هـ
٧ ـ أبو سعيد الخدري[٦]	١١٧٠	٧٤ هـ

وعلى هؤلاء يعتمد في نقل السنة النَّبوية ، وإلى هؤلاء يرجع الفضل في حفظ الرسالة المحمدية ، وإنَّ رواياتهم هي التي تدلُّ على النبوة الواضحة والمحجَّة البيضاء ، فإذا نظرنا إلى أعوام وفاتهم بدا لنا أنَّ الله عز وجل قد

= وروى له الإمام بقي بن مخلد (٢٠١ ـ ٢٧٦ هـ) في مسنده (٥٣٧٤) حديثاً ، وله في الصحيحين (٣٢٥) حديثاً ، وانفرد البخاري أيضاً بـ (٩٣) حديثاً ، ومسلم بـ(١٨٩) حديثاً.

(١) وقد روي له (١٦٦٠) حديثاً ، أخرج له الشيخان منها (٢٣٤) حديثاً ، اتفقا على (٧٥) حديثاً منها ، وانفرد البخاري بـ(١١٠) حديث ، ومسلم بـ(٤٩) حديثاً ، وأحاديثه منتشرة في الكتب الستة وكتب السنن.

(٢) روي لها (٢٢١٠) أحاديث ، لها في الصحيحين (٣١٦) حديثاً ، اتفق الشيخان على (١٩٤) حديثاً منها ، وانفرد البخاري بـ(٥٤) حديثاً ، ومسلم بـ(٦٨) حديثاً ، وأحاديثها في جميع الكتب الستة ، وكتب السنن.

(٣) روي عنه (٢٦٣٠) حديثاً ، أخرج له الشيخان (٢٨٠) حديثاً ، اتفقا على (١٦٨) حديثاً منها ، وانفرد البخاري بـ(٨١) حديثاً ، ومسلم بـ(٣١) حديثاً ، وأحاديثه موجودة في الكتب الستة ، والسنن ، والمسانيد.

(٤) روي له (١٥٤٠) حديثاً ومنها روى الشيخان (٢١٢) حديثاً ، اتفقا منها على (٦٠) حديثاً ، وانفرد البخاري بـ(٢٦) حديثاً ، ومسلم (١٢٦) حديثاً ، وله منسك صغير في الحج أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(٥) روي عنه (٢٢٨٦) حديثاً ، وأخرج له الشيخان (٣١٨) حديثاً ، واتفقا منها على (١٦٨) حديثاً منها ، وانفرد البخاري بـ(٨٠) حديثاً ، ومسلم بـ(٧٠) حديثاً.

(٦) روي له (١١٧٠) حديثاً ، أخرج له الشيخان منها (١١١) حديثاً ، اتفقا على (٤٣) حديثاً منها ، وانفرد البخاري بـ(١٦) حديثاً ، ومسلم بـ(٥٢) حديثاً ، أحاديثه موجودة في سائر الكتب الستة ، وروى عنه جميع أصحاب المسانيد والسنن.

نسأ في آجالهم ، وأطال حياتهم ، وأخَّر موتهم ، حتى تسنَّى لكثيرٍ من الناس أن يتلقوا عنهم ما حفظوا من أمانات الحديث النَّبويِّ ، ويعوا أقوالهم ، وينشروا رواياتهم ، ولم يكن العلم يومئذٍ إلا معرفة هذه الأمور. وبه ينالون شرف الدِّين ، وعزَّة الدُّنيا ، فكان الآلاف من الصحابة يبلغون إلى الجيل الذي بعدهم ما رأوه بأعينهم ، وسمعوه بآذانهم من أحوال النَّبيِّ ﷺ ، وأقواله ، وتشريعه؛ لأنه ﷺ هو الذي أمرهم بذلك ، فقال: «**بَلِّغُوا عَنِّي**»[١] و«**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**»[٢] ، فكانوا يعلمون أولادهم ، وإخوانهم ، وأصحابهم ، وأقرباءهم من الدِّين والعلم كلَّ ما كانوا يعلمونه ، فكان ذلك شغلهم ، وهمّهم آناء الليل وأطراف النهار ، وفي الغدوِّ والآصال ، فتعلم النشء الإسلامي الأول حقائق رسالة الإسلام ، وتفاصيل حياة الرسول منذ ترعرعوا في بيئاتهم التي كانت ساحاتٍ للعلم ، ومدارس يتقلَّبون في حجرها ، وما لبثوا أن قاموا مقام الصحابة ، وسدُّوا مسدَّهم في حفظ هذه الأحاديث ، ووعي هذه المرويات ، فكان هؤلاء التابعون يحفظونها كلمةً كلمةً ، ويعيدون روايتها بألفاظها دون أن يخرموا منها كلمةً. وكما كان رسول الله ﷺ يحرِّض الصحابة على أن يبلغوا عنه ، ويفقهوا تشريعه ، وينشروا دعوته وأحكامه ، كان ينهى الناس عن أن يتقولوا عليه ما لم يقل ، أو ينسبوا إليه ما لم يفعل ، وكان ينذر من يتعمَّد الكذب عليه بأنه سيتبوَّأ نار جهنم ، لذلك كان كبار الصحابة ترتعد فرائصهم وتمتقع وجوههم عند رواية أحاديث الرسول خوفاً من أن يكذبوا عليه أو ينحلوه ما لم يقل[٣]. وكان عبد الله بن مسعود إذا قال: «قال رسول الله ﷺ» استقلته

---

(١) عن عبد اللهِ بن عمرو أن النبيَّ ﷺ قال: «بلِّغوا عنِّي ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ ، ومن كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوأ مقعدَه من النَّـار» رواه البخاري في باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب «ليبلغ العلم الشاهد الغائب» (١٠٤ و١٠٥) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب إثبات الحساب (٢٨٧٦).

(٣) لذلك نراهم مع كثرة تحملهم عن الرسول ﷺ ـ لا يكثر من الرواية ، حتى إنَّ منهم من كان لا يحدث حديثاً في السنة ، ونرى من تأخذه الرعدة ، ويقشعر جلده ، ويتغيَّر لونه=

الرِّعدة ، وقال «هكذا» أو «نحوذا» «أو قريب من ذا»[1] .

ومن المعلوم: أنَّ ذاكرة العرب كانت قويةً ، وكانوا يحفظون آلافاً من الشعر ، وينشدونها عن ظهر قلبٍ بلا زيادةٍ ولا نقص. ومن طبيعة البشر أنهم إذا أكثروا استعمال قوةٍ من قواهم تزداد هذه القوة قوةً وحيوية. وقد مرن الصَّحابة والتابعون على حفظ الأحاديث حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً ، وكانوا إذا سمعوا حديثاً وعوه ، وحفظوه كما يحفظ الصبيان سورة الفاتحة في هذه الأيام. والمحدِّثون كانوا يحفظون ألوفاً من أحاديث الرسول؛ بل مئات الألوف، ويكتبون بعد ذلك ما كانوا يسمعون ويحفظون ، لكنهم لا يبلغون منزلة الإجلال والإكرام بين العلماء وعند الناس إلا بما يخفونه من المرويات عن ظهر قلب ، ولذلك كانوا يخفون كراريسهم وصحائفهم عن الناس ويكتمونها؛ لئلا يظنَّ الناس بهم أنهم يعتمدون في علمهم على هذه الصحائف ، ولا يحفظون محتوياتها في صدورهم.

المستشرقـون وتشكيكهـم في رواية الحديث، والكلام على الحفظ والكتابة:

سادتي! إنَّ بعض المستشرقين ودعاة المسيحية ـ وفي مقدمتهم السر وليم ميوروغولد زيهير ـ أرادوا أن يشكِّكوا الناس في رواية الحديث بما

= ورعاً واحتراماً لحديث الرسول ﷺ ، ومن هذا ما رواه عمرو بن ميمون قال: «ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه ، قال: فما سمعته يقول بشيء قط «قال رسول الله ﷺ» فلما كان ذات عشية قال: «قال رسول الله ﷺ» قال: فنكس ، قال: فنظرت إليه ، فهو قائم محللة أزرار قميصه ، قد اغرورقت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، قال: أو دون ذلك ، أو فوق ذلك ، أو قريباً من ذلك ، أو شبيهاً بذلك» (سنن ابن ماجه ، ص ٨ ـ الجزء الأول).

(١) وقد غفل عن هذا بعض من تصدر للحديث من العصريين حيث عزا أحاديث كثيرة إلى مصادرها بغير لفظها ، زاعماً أنها «ليست قرآناً نُتعَبد بلفظه . . . !».
ينبغي لمن يروي حديثاً بالمعنى أن يراعي جانب الاحتياط وذلك بأن يتبعه بعبارة: «أو كما قال» أو «نحو هذا» وما أشبه ذلك من الألفاظ ، فعل ذلك ابن مسعود ، وأنس وأبو الدرداء ، وغيرهم رضي الله عنهم. (منهج النقد في علوم الحديث) للأستاذ الدكتور نور الدين عتر ـ حفظه الله تعالى ونفع به ـ ص: ٢٢٨ ـ ٢٢٩ طبعة دار الفكر ، (دمشق).

زعموه من أنَّ تدوين السنَّة بدأ بعد وفاة النبي ﷺ بتسعين سنة ، وقد ذكرت لكم فيما سلف كيف كان الصحابة والتابعون يعنون بالأحاديث ، ويحفظونها ، ويحتاطون في روايتها حتى لا يبقى مجال للشكِّ في صحتها وصدقها .

والذي دعا الصحابة إلى أن لا يقيدوا الأحاديث بالكتابة ثلاثة أمور :

أولها : أنَّ رسول الله ﷺ نهاهم في بداية الأمر عن أن يكتبوا عنه غير القرآن ؛ لكيلا يلتبس القرآن بغيره ، فلما حفظ القرآن ، فصار معروفاً ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ أذن للصحابة بأن يكتبوا ما يسمعون منه ، ومع ذلك بقي الصحابة يحتاطون في ذلك احتياطاً شديداً ، وكان معظمهم يتحرَّجون في كتابة الحديث .

وثانيها : أن الصحابة كانوا يخشون أن يعتمد الناس في الحديث على الكتابة ، فيقصِّرون في حفظها وتدبُّرها مرتكنين على أنَّها مكتوبةٌ عندهم ، ويمكنهم الرجوعُ إليها عند الحاجة ، وقد وقع الذي ظنوه ، فإنه كلَّما ازداد الاهتمام بالكتابة والتدوين قلَّت العناية بالحفظ ، وكذلك كان الصحابة يخشون أن يدَّعي كلُّ من تكون الأحاديث المكتوبة في متناول يده بأنه عالم ، وقد وقع ما كانوا يحذرون .

وثالثها : أنَّ العرب كانوا يعدون الاعتماد على الكتابة اعترافاً بنقص مواهبهم ، وضعف حفظهم ، وفي ذلك غضٌّ من شرفهم ، فكانوا يعتمدون على حفظهم ، وإذا كتبوا شيئاً ممَّا يحفظون كتموا أمره .

كان المحدِّثون يرون أنَّ الحفظ في الصدور أصون من التدوين في السُّطور ؛ لأنَّ ما يتناقله الناسخون بالكتابة معرَّض للتَّحريف ، وأما ما يتلقَّاه الحافظون الضابطون عن الحافظين الضابطين ؛ فإنه لا يتطرَّق إليه الخطأ ، ولا يصيبه أيُّ تحريف .

وإني لأكشف القناع لأول مرة في ناديكم هذا بأن من زعم أنَّ الأحاديث النبوية لم تدوَّن إلى مئة سنةٍ أو تسعين سنة قد أخطأ ، والتاريخ يعارضه ، والسبب في هذا الخطأ ظنهم أنَّ أول كتابٍ في الحديث النبوي كتاب الموطأ

لمالك بن أنس ، وأول كتاب في السيرة كتاب المغازي لابن إسحاق[1] ، وهذان الإمامان الجليلان كانا متعاصرين ، وتوفي الأول سنة ١٧٩ هـ والثاني سنة ١٥١ هـ ، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثاني بداية تدوين الأخبار والسير ، والأمر ليس كذلك ، فإن بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ عالماً جليلاً ولي إمارة المدينة ، ثم استخلف سنة ٩٩ هـ ، وقد عهد إلى القاضي أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم[2] ـ الذي كان إماماً في الحديث والخبر ـ أن يبدأ في تدوين سنن النبي ﷺ وأخباره؛ لأنه خاف على العلم أن يرفع شيئاً فشيئاً وخاف درس العلم وعفاءه[3] ، وقد ذكر هذا في تعليقات البخاري والموطأ لمالك والمسند للدّارمي . فقام بذلك أبو بكر بن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبار والسنن في القراطيس ، وأرسلت إلى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت في الصُّحف والكتب ، وبعث بها إلى البلاد الإسلامية ، وكبريات المدن يومئذ . فأبو بكر هذا الذي علمتم مكانته من العلم والفضل وكان قاضياً بالمدينة المنورة ، هو الذي اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل ، لعلمه ، وفضله ، ولأنَّ خالته عمرة كانت من كبريات تلاميذ أمِّ المؤمنين عائشة ، وكان ما روته خالته عمرة عن أمِّ المؤمنين عائشة محفوظاً عنده ، فأوعز إليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته ، وقد اختصَّها بالذكر في كتابه إليه .

كتابة الحديث في العهد النَّبوي :

وإنِّي لا أعدو الحقَّ إذا قلتُ : إنَّ كتابة الحديث ، والسنن ، والأخبار ،

---

(١) «مختصر جامع بيان العلم» للحافظ ابن عبد البر ص ١٣٨ ، طبع مصر .

(٢) هو قاضي المدينة ، وأميرها . كان أعلم أهل المدينة بالقضاء ، وله خبرة بالسِّير . توفي سنة (١٢٠ هـ) عن نيِّف وثمانين سنة . شذرات الذهب (٢/ ٩٠) والعبر؛ للذهبي (١/ ١٥٢) .

(٣) نصُّ رسالة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الموجهة إلى القاضي أبي بكر بن محمد بن حزم : «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، أو سنة ماضية ، أو حديث عمرة فاكتبه فإني خشيت دروس العلم ، وذهاب أهله» (ابن سعد ٨ : ٣٥٣) ، والتاريخ الصغير للبخاري (١٠٥) وسنن الدارمي (١ : ١٢٦) .

والسيرة قد بُدىء بها في عهد النَّبي ﷺ ، فقد جاء في باب كتابة العلم من صحيح البخاري : أنَّ رسول الله ﷺ أمر ، فكُتِبت خطبته التي خطبها يوم فتح مكة إجابةً لسؤال صحابيٍّ من اليمن يدعى أبا شاه(١). وقد أرسل رسولُ الله ﷺ رسائله إلى الملوك التي يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكلُّها كانت مكتوبةً ، والكتاب الذي أرسله إلى المقوقس ملك مصر قد وجد ملصقاً بدفَّة كتابٍ في أحد الأديرة المسيحية في مصر ، ويغلبُ على الظنِّ أنه هو أصل الكتاب المرسل من النَّبيِّ ﷺ ، وخطُّه عربيٌّ قديمٌ ، وعبارته وترتيب كلماته التي في الخاتم هي عين ما يروى في الأحاديث ، وهذا من أصدق الأدلَّة على صدق الأحاديث المروية وصحتها. ويقول أبو هريرة: **مَا مِنْ أحَدٍ أَحْفَظُ مِنِّي لِخِدْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلاَ أَكْثَرُ مِنِّي رِوَايَةً لَهُ ، غَيْرَ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو بن العَاص؛ لأَنَّه كَانَ يَكْتُبُ كُلَّ ما يَسْمَعُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ أَكُنْ أَكْتُبُ**(٢). وفي سنن أبي داود ومسند الإمام أحمد أنَّ عبد الله بن عمرو بن العاص قال: **كُنْتُ أَكْتُبُ كُل شيءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُرِيْدُ حِفْظَهُ ، فنَهَتْنِي قُرَيْش عَنْ ذَلِكَ ، وَقَالُوا: تَكْتُبُ وَرَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَقُول فِي الغَضَبِ والرِّضَا فَأَمْسَكْتُ ، حَتَّى ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ: «اكْتُبْ ، فَوَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إلاَّ حَق!»** وأومأ بأصبعه إلى فيه حين قال ذلك(٣). وسمى عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفته هذه (الصادقة)(٤) وكان يقول: لقد حبَّبَ الحياةَ إليَّ أمران: أحدُهما هذه

---

(١) لما فتح الله على رسوله ﷺ مكة ، قام رسول الله ﷺ فخطب خطبته ، «. . فقام أبو شاه ـ رجل من اليمن ـ فقال: اكتبوا لي يارسول الله! فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه. . .». (البخاري [٢٤٣٤]).

(٢) والحديث في البخاري ومسند الإمام أحمد: (ما مِنْ أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منّي إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنَّه كان يكتب ولا أكتب) (البخاري [١١٣] ومسند الإمام أحمد (٧٣٨٣).

(٣) مسند أحمد: (١٦٢) و(١٩٢) ، وسنن أبي داود (٢٢) وجامع بيان العلم ، الجزء الأول ، ص ٧١.

(٤) هي «الصحيفة الصادقة» وهي من أشهر الصحف المكتوبة في العصر النبوي ، كتبها وجمعها عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ من رسول الله ﷺ ، وقد =

«الصَّادقة». . ثم قال: وأما الصادقة فهي صحيفةٌ ما كتبت فيها إلا ما سمعتْ أذناي من رسول الله ﷺ. ويقول مجاهد: رأيت عند عبد الله بن عمرو كتاباً، فسألته: ما هذا؟ فقال: هذه «الصَّادقة» فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس في ذلك بيني وبين رسول الله ﷺ أحد[1].

وفي صحيح البخاري: أنَّ النبي ﷺ أمر بعد هجرته إلى المدينة أن يحصى له كم عدد الذين يلفظون بالإسلام، فأحصوا، فكان عددهم خمسمئة وألفاً. وأمر ﷺ، فكتبت أحكام الزكاة، وما تجب فيه، ومقادير ذلك، فكتبت مشروحة مفصلة في صفحتين، وبعث بصورة ذلك إلى أمراء البلاد وولاتها، وبقيت محفوظةً في بيت أبي بكر الصديق، وأبي بكر بن عمرو بن حزم[2]. وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة. وكان عند عليٍّ صحيفةٌ في قِراب سيفه، كتبت فيها أحاديث تتعلق بالأحكام، ورآها الناس لما سألوه عن ذلك[3].

وفي هدنة الحديبية التي كانت بين المسلمين ومشركي قريش أمر رسول الله ﷺ عليّاً، فكتب كتاب الهدنة في نسختين أعطى المشركين نسخةً منها وبقيت النسخة الأخرى عند النبي ﷺ[4].

ولما ولّىٰ رسولُ الله ﷺ عمروَ بن حزم اليمن، وبعثه إليها؛ أعطاه أحكاماً مكتوبةً في الفرائض والصدقات والدِّيات[5] وتلقّى عبد الله بن حكيم

= اشتملت على ألف حديث كما يقول ابن الأثير («في أسد الغابة» ٣/ ٢٣٣)، وإذا لم تصل هذه الصحيفة ـ كما كتبها عبد الله بن عمرو بخطه فقد وصل إلينا محتواها، لأنها محفوظة في مسند الإمام أحمد [انظر مسند عبد الله بن عمرو بن العاص في مسند أحمد]، حتى ليصح أن نَصِفَها بأنها أصدقُ وثيقة تاريخية تثبت كتابة الحديث على عهد الرسول ﷺ.

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٢: ١٢٥.

(٢) الدارقطني في كتاب الزكاة ٢٠٩.

(٣) البخاري (١٠٨٤ و: ١٠٢٠).

(٤) ابن سعد في المغازي، ص ٧١.

(٥) كنز العمال، الجزء الثالث، ص ١٨٦.

كتاباً من رسول الله ﷺ فيه أحكام الحيوانات الميتة[١] ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع إلى بلاده حضرموت؛ ناوله رسول الله ﷺ كتاباً فيه أحكام الصلاة ، والصوم ، والربا ، والخمر وغير ذلك[٢] ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال إلى أصحاب رسول الله ﷺ إن كان عند أحد منهم سنة عن النبي ﷺ في نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحَّاك بن سفيان[٣] فقال: نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ يبين فيه ذلك[٤].

وكتب عمر بن عبد العزيز في خلافته إلى المدينة يسأل عن كتاب رسول الله ﷺ في أحكام الصدقات، فوجدت نسخته عن آل عمرو بن حزم[٥].

وكان مروان[٦] قد خطب في الناس ، فذكر مكة وحرمتها ، فقال رافع بن خديج[٧] بصوت يسمعه الناس: والمدينة حرم حرَّمها رسول الله ﷺ، وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني إن شئت نقرئكه فعلنا. فناداه مروان: أجل قد بلغنا ذلك[٨].

وأرسل الضحاك بن قيس[٩] كتاباً إلى النعمان بن بشير[١٠] يسأله فيه عن

---

(١) المعجم الصغير ، للطبراني ، ص ٢١٧.

(٢) المعجم الصغير ، للطبراني ، ص ٢٤٢.

(٣) هو الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب الكلابي، صحابي ، كان نازلاً بنجد ، وولاه الرسول ﷺ على من أسلم هناك من قومه ، استشهد في قتال أهل الردة سنة ١١ هـ.

(٤) الدارقطني الجزء الثاني ، ص ٤٨٥.

(٥) الدارقطني ، ٤٥١.

(٦) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، خليفة أموي، وهو أول من ملك من بني الحكم بن أبي العاص، توفي في دمشق بطاعون سنة ٦٥ هـ.

(٧) هو رافع بن خديج بن رافع الأنصاري الأوسي الحارثي ، صحابي ، شهد أحداً والخندق ، توفي في المدينة سنة ٧٤ هـ ، له ٧٨ حديثاً مروياً.

(٨) مسند الإمام أحمد ٤ : ١٤١.

(٩) هو الضحاك بن قيس بن خالد الفهري القرشي ، أحد الولاة الشجعان في عصره ، شهد فتح دمشق وسكنها ، قُتل في مرج راهط ، سنة ٦٥ هـ.

(١٠) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري ، من أجلاء الصحابة ، نزل الشام ، وشهد «صفين» مع معاوية ـ رضي الله عنه ـ وولي القضاء بدمشق. =

السورة التي كان رسول الله ﷺ يقرؤها في صلاة الجمعة غير سورة الجمعة ، فكتب إليه يقول: كان يقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾[1] وكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة بن فرقد[2] كتاباً ذكر فيه أن رسول الله ﷺ نَهَىٰ عَنْ لبْسِ الحَرِير»[3].

وقد ثبت عندي بالدلائل الواضحة أنَّ كبار الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يدوِّنوا السنن والأحكام ، بل قد فعل ذلك بعضهم ، وقد جمع أبو بكر في خلافته الأحكام والسنن في كتابٍ ، ثمَّ بدا له أن يمحوه[4] وعزم عمر بن الخطاب أيام خلافته على جمع السنن ثم بدا له ألا يفعل ، وقد ذكرنا آنفاً: أنَّ عبد الله بن عمرو بن العاص جمع بإذن رسول الله ﷺ ما كان يسمعه منه في صحيفةٍ ، وكان الناس يقصدونه ليروها ، فيطلعهم عليها[5] ، وأتى عبد الله بن عباس بسجلٍّ فيه فتاوى عليٍّ بن أبي طالب[6] وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريسُ عدَّةٌ ، وجاء قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليرووها عنه[7] وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس[8] وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصَّادقة) موجودة عند حفيده عمرو بن شعيب[9] وكانوا يضعفون عمرو بن شعيب لأنَّه يروي من الصحيفة ، وكان

= هو أول مولود ولد في الأنصار بعد الهجرة ، قُتل يوم مرج راهط سنة ٦٥ هـ ، وله ١٢٤ حديثاً مروياً.

(١) مسلم في كتاب الجمعة في باب ما يقرأ في صلاة الجمعة (٢٠٣٠).

(٢) هو عتبة بن فرقد بن يربوع ، صحابي ، غزا مع الرسول ﷺ غزوتين ، وله رواية عنه ﷺ ، وروت عنه زوجه أمُّ عاصم.

(٣) البخاري في كتاب اللباس في باب لبس الحرير للرجال (٥٨٢٨ ، ٥٨٢٩ ، ٥٨٣٠ ، ٥٨٣٤ ، ٥٨٣٥).

(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي.

(٥) الترمذي (٥٨٦).

(٦) مقدمة صحيح مسلم.

(٧) العلل للترمذي ، ص ٦٩١.

(٨) الدَّارمي ص ٦٩٠.

(٩) الترمذي (٦١ ، ١١٣).

ينبغي له أن يروي من حفظه. وجمع وهب التَّابعي روايات جابر بن عبد الله ، وكانت عند إسماعيل بن عبد الكريم ، وضعفوه لأجل ذلك[١] ، وروى سليمان بن سمرة بن جندب أنَّه كان عند أبيه صحيفةٌ فيها أحاديث ، وكذلك روى ابنهُ حبيب بن سليمان[٢] وجمع همام بن منبه رواياتِ أبي هريرة، وهو أكثر الصحابة روايةً، وأوعاهم حفظاً لأحاديث الرسول ﷺ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدِّثين بصحيفة همام[٣] ، وقد أوردها الإمام أحمد بن حنبل في الجزء الثاني من مسنده ، وكذلك بشير بن نهيك كتب مروياته عن أبي هريرة في كتابٍ ، وقرأه عليه[٤] .

وذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري أنَّ أبا هريرة جاء برجلٍ إلى بيته ، وأراه أوراقاً ، وقال: هذه رواياتي. وقال الذي روى ذلك: إنها لم تكن

---

(١) تهذيب التهذيب ، لابن حجر ، الجزء الأول ٣١٦.

(٢) تهذيب التهذيب الجزء الرابع ، ١٩٨ .

(٣) تلفت الصحف الكثيرة التي جمعها الصحابي الجليل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ إلى صحيفة واحدة هي هذه التي رواها عنه تلميذه التابعي همام بن منبه (المتوفى سنة ١٠١ هـ) ثم نسبت إليه فاشتهرت بـ«صحيفة همام» وهي في الحقيقة صحيفة أبي هريرة لهمام.
ولا يمكننا أن نسلك هذه الصحيفة في عداد ما كتب في العصر النبوي ، لأن هماماً ولد قبيل سنة ٤٠ هـ وتوفي شيخه أبو هريرة سنة ٥٨ هـ ، فلا بدَّ أن يكون تدوينه لهذه الصحيفة قبل وفاة شيخه ، لأنَّ سماعه منه بعد مجالسته إيَّاه ـ أي في منتصف القرن الهجري الأول ـ وتلك نتيجة علمية باهرة تقطع بتدوين الحديث في عصر مبكر ، وتصحح الخطأ الشائع: أنَّ الحديث لم يدوَّن إلا في أوائل القرن الهجري الثاني. (علوم الحديث ومصطلحه «للدكتور صبحي الصالح» ص ٣١ ـ ٣٢).
ولهذه الصحيفة مكانة خاصَّة في تدوين الحديث؛ لأنها وصلت إلينا كاملةً سالمة ، كما رواها ودوَّنها همام عن أبي هريرة ، وعثر على هذه الصحيفة الباحث المحقق الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي ـ حفظه الله ومدَّ عمره ـ في مخطوطتين متماثلتين في دمشق وبرلين ، ونشره محققاً ، وقد صدرت له الطبعة الأولى من مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٤) كتاب العلل للترمذي ، ص ٦٩١ ، والدارمي ص(٦٨) ، والبيهقي ص(٦٨١).

مكتوبةً بيده[١] ، وكان أنس بن مالك ـ وهو معروفٌ بكثرة الرواية ـ يقول لأولاده: يا بنيَّ! اكتبوا العلم وقيِّدوه بالكتابة[٢] ، وكان تلميذه أبان[٣] يكتب رواياته بين يديه[٤] ، وروي عن سلمى[٥] قالت: رأيت عبد الله بن عباس يستملي أبا رافع[٦] خادم رسول الله ﷺ ما كان ﷺ يفعل ، أو يقول[٧] .

والواقدي[٨] وهو من متقدِّمي المصنفين في السيرة النبوية يقول: رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذي أرسله رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى[٩] سيد البحرين مع كتب أخرى[١٠] ، وفي تاريخ الطبري: أنَّ

---

(١) فتح الباري ، الجزء الأول ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٢) الدَّارمي ص ٦٨ .

(٣) هو أبان بن عثمان الأموي: أول من كتب السيرة النبوية ، وهو ابن الخليفة عثمان. كان من رواة الحديث الثقات، ومن فقهاء المدينة أهل الفتوى. توفي سنة (١٠٥ هـ) ، العبر (١/ ١٢٩).

(٤) الدارمي ، ص ٦٨ .

(٥) هي سلمىٰ بنت خصفة ، زوجة المثنى بن حارثة الشيباني ، وتزوجها بعد وفاته سعد بن أبي وقاص ، شهدت معه المعارك في القادسية وغيرها ، توفيت سنة ٦٠ هـ.

(٦) كان مولى العباس بن عبد المطلب ، فوهبه للنبي ﷺ ، فأعتقه لما بشّره بإسلام العباس. شهد أحداً وما بعدها. روى عن النبي وعن ابن مسعود ، وعنه كثيرون. توفي بالمدينة في خلافة علي. الإصابة (٤/ ٣٩١).

(٧) طبقات ابن سعد ٢/ ٢: ١٢٣ .

(٨) هو محمد بن عمرو بن واقد السهمي الأسلمي ، المعروف بـ«الواقدي» من أقدم المؤرخين وأشهرهم في الإسلام ، ومن حفاظ الحديث ، ولي القضاء ببغداد ، واستمر فيها إلى أن توفي سنة ٢٠٧ هـ ، من أشهر كتبه «المغازي النبوية» و«أخبار مكة» و«فتوح العراق» و«فتوح الشام».

(٩) هو المنذر بن ساوىٰ بن الأخنس العبدي ، أمير في الجاهلية والإسلام ، كان صاحب «البحرين» وكتب إليه الرسول ﷺ رسالة يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم ، مات قبل ردة أهل البحرين سنة ١١ هـ.

(١٠) زاد المعاد ، الجزء الثاني ، ص ٥٧ .

عروة بن الزبير[1] كتب جميع ما كان في غزوة بدر مفصَّلاً إلى عبد الملك الخليفة الأموي[2] .

وكان عبد الله بن مسعود ـ وهو الذي كان يكثر الدُّخول على رسول الله ﷺ ليلاً ونهاراً حتى خيِّل إلى الناس أنه من أهل البيت ـ يشكو الناس أنَّهم يكتبون منه عن رسول الله ﷺ؛ لأنه كان لا يستحلُّ أن يكتب غير القرآن الحكيم حرصاً منه على القرآن أن يلتبس به غيره[3] ، ويقول سعيد بن جبير التابعي[4] : كنت أكتب على الأقتاب ما أسمعه في الليل من عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، فإذا أصبحت كتبته واضحاً[5] .

وكان أصحاب البراء بن عازب[6] يكتبون عنده رواياته ، وكان نافع[7] ـ وقد صحب ابن عمر[8] ثلاثين سنة ـ يملي على الناس[9] ،

---

(١) هو عروة بن الزبير بن العوَّام الأسدي القرشي ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة وكبار علمائها ، وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه ، توفي بالمدينة سنة ٩٣ هـ.

(٢) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي ، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، كان فقيهاً واسع العلم ، شديد النسك ، كثير العبادة ، توفي بدمشق سنة ٨٦ هـ.

(٣) الدارمي ، ص ٦٧ .

(٤) هو سعيد بن جبير الأسدي ، من كبار التابعين وأعلمهم ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال الإمام أحمد: «قتل الحجاجُ سعيداً وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو مفتقر إلى علمه» (الأعلام للزركلي ، ٣/ ٩٣).

(٥) الدارمي ، ص ٦٩ .

(٦) هو البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي ، صحابي من أصحاب الفتوح ، أسلم صغيراً وغزا مع الرسول ﷺ خمس عشرة غزوة ، عاش إلى أيام مصعب بن الزبير ، فسكن الكوفة ، وتوفي فيها سنة ٧١ هـ ، وله ٣٠٥ أحاديث مرويةً في الصحيحين.

(٧) هو نافع المدني ، من أئمة التابعين بالمدينة ، كان علاَّمة في فقه الدين ، كثير الرواية للحديث ، من كبار الثقات التابعين ، أصابه عبد الله بن عمر صغيراً في بعض مغازيه ، فنشأ بالمدينة ، أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلِّم أهلها السنن ، توفي سنة ١١٧ هـ.

(٨) أي: عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٩) الدارمي ، ص: ٦٩ .

وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود[1] أخرج كتاباً، وقال: وايم الله هذا ما كتبته يد ابن مسعود[2]! وقال سعيد بن جبير: كنا نختلف في بعض الأمور، فنكتب ذلك، ثم نأتي عبد الله بن عمر، فنعرضه عليه، ونخفي عنه ما كتبنا، ولو علم به لكانت الفيصل بيننا وبينه. أي أنه لا يأذن لهم بحضور مجلسه[3] ويقول الأسود التابعي[4]: وقعت أنا وعلقمة على صحيفة جئنا بها إلى ابن عمر، فمحاها[5]. وأنَّ زيد بن ثابت ـ هو من كتبة الوحي ـ كان لا يرى كتابة شيء إلا القرآن، فاحتال مروان على أن أجلسه بين يديه، وأجلس كاتباً من وراء الستر يكتب ما يقول، وفعل مثل ذلك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فاستملاه حديثاً، ولكن زيد بن ثابت فطن لذلك، فألحَّ بمحوه حتى محي[6].

سادتي! لعلَّكم سئمتم سماع الأسماء، وضجرتم بهذه الأخبار، ومللتم ما اقتبسته لكم من هذه النصوص، فمعذرةً وعفواً. ولكننا قد بلغنا إلى حيث يتبين لنا الطريق واضحاً، وتبدو لنا الحقيقة جليةً.

لقد حاولت أن أثبت لكم هذه الحقيقة الرَّاهنة، وهي أنَّه إذا كان لا يُوثق إلا بما كُتِبَ ودُوِّن، فأصحاب النبي ﷺ كتبوا بأيديهم في عهده ﷺ، وجمعوا من أحاديثه في حياته، وتركوا ذلك لمن بعدهم، والذين جاؤوا

---

(١) أحد الأئمة الكبار، سيىء الحفظ. وثقه أحمد. وقال ابن القطان: اختلط حتى كان لا يعقل، فضعّف حديثه، وكان لا يتميز في الأغلب ما رواه قبل اختلاطه مما رواه بعد. ميزان الاعتدال (٢/ ٥٧٤).

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، من أكابر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم الرسول ﷺ، توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ، وله ٨٤٨ حديثاً مروياً.

(٣) جامع بيان العلم، ص ٣٣.

(٤) هو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي، من فقهاء التابعين والحفاظ، كان عالم الكوفة في عصره، توفي سنة ٧٥ هـ.

(٥) جامع بيان العلم، ص ٣٣.

(٦) مسند الإمام أحمد: الجزء الخامس، ص ١٨٢.

بعدهم أدخلوه في كتبهم. ولا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن التابعين رضي الله عنهم جمعوا جميع المرويات في عهد الصحابة، وكتبوا في حياتهم ما وصل إلى علمهم من الأخبار والشؤون، وبحثوا عن ذلك بحثاً طويلاً، وبذلوا فيه جهودهم، وسافروا له، وطرقوا أبواب العلماء والمحدِّثين، حتى لقد كانوا يطوون لأجل الحديث الواحد مسافةً طويلةً، وشُقَّةً بعيدة، ومن أشهرهم محمد بن شهاب الزُّهري[1]، وهشام بن عروة بن جبير[2]، وأبو الزناد[3]، وغيرهم. إن علماء التابعين ـ وكانوا يعدُّون بالمئات ـ جابوا البلاد، وجالوا خلال الدِّيار، وطووا الصحارى والمفاوز، وشدُّوا الرِّحال إلى أصحاب النبي ﷺ، وكذلك فعل تلاميذهم، ليرووا أحاديث رسول الله ﷺ، فجمعوا لنا هذه الذخيرة العلمية، وربما سافروا وقطعوا مئات الأميال لحديثٍ واحد. وإنَّ محمد بن شهاب الزهري ـ وهو الإمام في الحديث والسيرة ـ كتب كل ما سمع ممَّا يتعلق برسول الله ﷺ، حتى قال عنه أبو الزناد: كنا نكتب الحلال والحرام وكان الزُّهري يكتب كل شيء[4].

ويقول طاووس بن كيسان[5]: كنت أنا والزُّهري رفيقين في طلب العلم، فقلت: لا أكتب إلا السنن، فكتبت ما يتعلق برسول الله ﷺ، وقال

---

(١) هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، تابعي، من أهل المدينة، أول من دوَّن الحديث، كان من أكابر الحفاظ والفقهاء، نزل الشام واستقرَّ بها، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: «عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه» توفي بشغب (هو آخر حدّ الحجاز وأول حدّ فلسطين) سنة ١٢٤هـ.

(٢) هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، تابعي من أئمة الحديث، ولد في المدينة، وعاش فيها، زار الكوفة، فسمع منه أهلها، ودخل بغداد، وتوفي بها سنة ١٤٦ هـ. وله نحو أربعمئة حديث مروي.

(٣) هو عبد الله بن ذكوان القرشي المدني، المعروف بـ«أبو الزناد» أحد كبار المحدثين وفقهاء أهل المدينة، كان ثقةً في الحديث عالماً بالعربية، فصيحاً، توفي بالمدينة سنة ١٣١ هـ.

(٤) جامع بيان العلم، ص ٣٧.

(٥) هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني من أكابر التابعين، أصله من الفرس، ومولده ومنشؤه في اليمن، توفي حاجاً بالمزدلفة سنة ١٠٦ هـ.

الزُّهري: أكتب هذا وكلَّ ما يتعلق بأصحاب النبي ﷺ ، فإنَّه من السنة. فقلت: ليس ذلك من السنة ، ولم أكتب ذلك ، وكتبه الزهري ، ففاز ، وخسرت[1] ، وهذا قطرة من بحر. وإن المئتين من التابعين كانوا يكتبون الأحاديث والأخبار ، والزُّهري واحد منهم ، وإنَّ ما كتبه الزهري وحده بلغ فيما رواه معمر أنَّ الدفاتر من علم الزهري حملت على الدواب بعد قتل الوليد ، وكانت في خزانته.

التابعون الَّذين دوَّنوا الحديث:

ولد الزهريُّ سنة ٥٠ للهجرة وتوفي سنة ١٢٤ هـ ، وهو قرشيٌّ نسباً ، وقد بذل جهده في جمع الروايات عن سيرة النبي ﷺ ، وهديه ، وأحاديثه حتى لقي في طلب العلم عناءً ونصباً ، كما يدل عليه قول المؤرخين: إنَّه كان يطوف على بيوت الأنصار في المدينة ، ويغشى كلَّ بيت منها ، ويسأل عن أحاديث النبي ﷺ ، وهديه ، وسيرته كلَّ من يلقاه من نساءٍ ، ورجالٍ ، وشيوخٍ ، وشبابٍ ، حتى كان يسأل العواتق في خدورهن عن أحوال النبيِّ ﷺ ، وأقواله ، ويكتبه[2] ، وكان لا يزال بعض الصحابة أحياءً في حياة الزهري. ثم تلقَّى عن الزهري كثيرٌ من تلاميذه العلماء ، ويبلغ عددهم المئات ، ولم يكن لهم شغل إلا جمع الأحاديث ، وأقوال الصحابة ، وتعليم الأمَّة الإسلاميَّة الدِّين ، ونشر السنَّة ، وقد انقطعوا كلُّهم لهذا العمل ، وفرَّغوا أنفسهم له.

ومن أعظم الخطأ في تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المئة ، وذلك تبعاً لخطئهم في تحديد زمن التابعين. فإنَّه لمَّا بلغهم أنَّ التدوين بدأ في عهد التابعين ، وهم يعلمون أنَّ بعض الصحابة امتد بهم العمر إلى أواخر المئة الأولى للهجرة ، ظنُّوا أنَّ عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة ، فذهبوا إلى أنَّ التدوين بدأ بعد المئة ، وهذا كله خطأ. والحقُّ أنَّ عنوان «التابعين» يطلق على الذين لم يدركوا النبي ﷺ ، أو

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٢: ١٣٥).

(٢) انظر ترجمة الزهري في تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني.

ولدوا في أواخر عهده فلم يروه ، وإنما رأوا أصحابه ، وأخذوا عنهم ، وعلى أقل تقدير يعدُّ تابعياً من ولد بعد وفاة النبي ﷺ (ربيع الأول سنة ١١) ، وأعمال التابعين التي تنسب إليهم يبدأ عهدها من سنة ١١ هـ ، وليس من المحتم ألا يُنسب إلى التابعين إلا ما صدر عنهم بعد وفاة آخر الصحابة بقاءً على قيد الحياة ، فآخر الصحابة بقاءً على قيد الحياة امتدَّ زمنه إلى أواخر المئة الأولى للهجرة ، وأعمال التابعين ـ ومنها البدء بتدوين الحديث ـ ينبغي أن تنسب إلى زمنهم الذي بدأ من بعد سنة ١١ هـ التي انتقل فيها النبيُّ ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى.

جمع الحديث له ثلاثة أطوار:

والحق أنَّ جمع الأحاديث ، والأحكام ، والأخبار ، وتدوينها عند المسلمين له ثلاثة أطوار: **الطور الأول**: هو الذي جمع فيه الرجال ما عندهم من العلم. **والطور الثاني**: هو الذي قام فيه أهل كلِّ مصر من الأمصار الإسلامية بتدوين ما عند علماء ذلك المصر من العلم في كتبٍ خاصَّةٍ بأهل مصرهم. **والطور الثالث**: هو الذي جُمعت فيه علومُ الدِّين الإسلاميِّ كلُّها من جميع الأمصار ، ودُوِّنت في الدواوين الكبرى ، والمصنفات الجليلة ، وهي التي صارت إلينا ، ولا تزال بين أيدينا.

والطَّور الأول استمرَّ إلى سنة ١٠٠ هـ ، وامتدَّ الطَّور الثاني إلى سنة ١٥٠ هـ ، وبدأ الطور الثالث من سنة ١٥٠ هـ إلى القرن الثالث للهجرة ، أو بعده بقليل. وإنَّ الطَّور الأول هو الذي كان فيه الصحابة ، وكبار التابعين. والطور الثاني هو الذي كان فيه صغار التابعين ، وتابعو التابعين. والطور الثالث هو عهد المحدِّثين ، وأئمة السنة ، كالإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، والإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح ، والإمام الترمذي ، والإمام أحمد بن حنبل ، وغيرهم من المحدِّثين. وما جمع في الطور الأول دوِّن في كتب الطور الثاني ، وما دوِّن في الطور الثاني جُمِع ، ونُظِم في كتب الطور الثالث. ونرى أمامنا أكثر ما جمع في الطورين الثاني والثالث مدوناً في كتبٍ كثيرةٍ تشتمل على آلاف من الأوراق هي في الواقع من أثمن الذخائر

العلمية في العالم ، بل لا يوجد في جميع ذخائر الدنيا العلمية أوثق منها سنداً ، وأصحَّ تاريخاً وروايةً. ولقد صدق الأستاذ الكبير العلامة الشيخ شبلي النعماني[1] حين قال: (لما أرادت الأممُ الأخرى مِن غير المسلمين أن تجمع في أطوار نهضتها أقوالَ رجالها ، ورواياتِهم كان قد فات عليهم زمنٌ طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهدٌ بعيد ، فحاولوا كتابة شؤون أمَّةٍ قد خلت ، ولم يميزوا بين غثِّ ذلك الماضي وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ، ولا أسماءهم ، ولا تواريخ ولادتهم ، فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم ، ويلائم بيئتهم ، وينطبق على مقاييسهم.

ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات معدودةً كالحقائق التاريخية المدوَّنة في الكتب ، وعلى هذا المنهاج السَّقيم صُنِّفت أكثر الكتب الأوربية مما يتعلق بالأمم الخوالي وشؤونها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ، ومذاهبها ، ورجالها.

أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمةً يرجعون إليها ، وأصولاً متقنةً يتمسَّكون بها ، وأعلاها ألاَّ تروى واقعةٌ من الوقائع إلا عن الذي شهدها ، وكلَّما بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذي نقله عمَّن شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة ، والتحدُّث عنها إلى زمن وقوعها ، والتثبت من أمانة هؤلاء الرواة ، وفقههم ، وعدالتهم، وحسن تحمُّلهم للخبر الذي يروونه ، وإذا كانوا على خلافِ ذلك وجب تبيينُه أيضاً. وهذه المهمَّة من أشقِّ الأمور ، ومع ذلك فإنَّ مئاتٍ من المحدِّثين تفرَّغوا لها ، ووقفوا أعمارهم على تحرِّي ذلك ، واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لأجله البلاد ، ورحلوا بين الأقطار ، باحثين دارسين لأحوال الرواة ، وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة؛ لينقدوا أحوالهم ، وإذا اطمأنوا إلى سيرة فريقٍ منهم سألوهم عما

---

(١) هو أستاذ العلامة المؤلف ، كان من كبار الباحثين والمؤرخين المصلحين في الهند ، وقد سبقت ترجمته في صفحة (٥).

يعرفونه من أحوال الطبقة التي كانت قبلهم ، وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علمٌ مستقلٌّ من العلوم الإسلامية ، أطلق عليه فيما بعد عنوان (أسماء الرجال) فتيسَّر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على أقدار مئات الألوف من الحفَّاظ ، والعلماء ، والرواة ، وغيرهم.

علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم:

هذا فيما يتعلق بالرواية وحملتها ، وهنالك **علمُ نقد الحديث** من جهة الدراية والفهم ، وأنَّ له أصولاً محكمةً ، وقواعد متقنةً اتخذوها لنقد المرويات ، وتمييز صحيحها من سقيمها ، وغثِّها من السمين ، والرَّاجح من المرجوح ، وقد تحرَّى علماء السُّنَّة في هذا الأمر الحقَّ وحده ، وتمسَّكوا فيه بالمحجَّة البيضاء ، وكل ما يؤدي إليه الصدق ، فكان عملهم هذا من مفاخر الإسلام ، وأنت تعلم أنَّ ممَّن تحمل الرواية رجالاً من الولاة ، والحكام ، والأمراء الذين يخشى جانبهم ، ويحذر الناس بطشهم وجبروتهم ، فكان المحدِّثون يلتزمون فيهم قول الحقِّ ، وينزلونهم في المنازل التي يستحقُّونها ، ولا يبالون بما قد يصيبهم من مكروهٍ بسبب هذه المصارحة بما يرضي الله ويصون أمانات الإسلام. وكان وكيع[(١)] محدِّثاً كبيراً ، وكان أبوه عاملاً للدولة على بيت المال ، فكان إذا روى عن أبيه شيئاً عضده برواية راوٍ آخر ، فإذا انفرد أبوه برواية خبر توقّف وكيع عن الأخذ بذلك حتى تعضده روايةٌ أخرى. فهل رأيتَ مثل هذا الاحتياط ، ومثلَ هذه المبالغة في التثبت عند أهل ملَّةٍ أخرى غير ملَّة الإسلام؟ ويقول الإمام معاذ بن معاذ[(٢)]: رأيت المسعودي في سنة ١٥٤

---

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي ، أحد حفاظ الحديث ، كان محدث العراق في عصره ، أراد الرشيد أن يوليه قضاء الكوفة ، فامتنع ورعاً ، قال الإمام أحمد بن حنبل: «ما رأيتُ أحداً أوعى منه ، ولا أحفظ ، ووكيع إمام المسلمين». توفي بفيد راجعاً من الحجِّ سنة ١٩٧ هـ.

(٢) هو معاذ بن معاذ بن نصر بن حسان العنبري التميمي ، من الأثبات في الحديث ، قال الإمام أحمد بن حنبل: «ما رأيتُ أعقل من معاذ ، كأنه صخرة!» ، توفي بالبصرة سنة ١٩٦ هـ.

هـ[1] يطالع كتاباً ، يعني أنه قد تغيَّر حفظه[2]. ومما يثير العجب والاستغراب أنَّ الإمام معاذ بن معاذ تقدَّم إليه رجل بألف دينار على ألا يكتب في كتابه شيئاً عن رجلٍ سماه ، فلا يوثقه ، ولا يجرحه ، بل يسكت عنه ، فرفض الإمام ذلك المال بشدَّةٍ ، وقال: إنِّي لا أكتم الحق[3] ، فهل يعرف أحد في تاريخ البشر مثالاً للاحتياط في العلم والأمانة للحقِّ والاستقامة على منهج الصِّدق أعلى من هذا المثال؟ على أنَّ جميع مرويات السنة لا تزال محفوظةً كما هي إلى زماننا هذا ، وإنَّ قواعد النقد الموضوعة ، وأحوال الرواة الممحَّصة ، قد يسَّرت لكلِّ من شاء حتى في زماننا هذا وفي كل زمانٍ أن يميز بها بين الصحيح والسقيم ، والغثِّ والسمين ، والرَّاجح والمرجوح ، والقويِّ والضعيف.

ستة مصادر لسيرة النبيِّ ﷺ وهديه:

سادتي: لقد شغلت شطراً من وقتكم الثمين بإيراد هذه الأمور العلمية التي قلَّما يستطيبها السَّامعون ، لكنِّي فيما أظنُّ قد استعرضت لكم أنحاء مختلفةً من السِّيرة النبوية ، ومثلت أمامكم جوانبها التاريخية المتنوعة ، وأريد أن ألفت أنظاركم إلى المصادر التي أخذت عنها سيرة النبي ﷺ وهديه ، وكيف دُوِّنت تلك المصادر وجُمعت ، وإنَّ أهمَّ ما في سيرته ﷺ ، وأوثقها ، وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من عزيز حميد ، وهو الذي لم يشك في صحته العدوُّ اللدود فضلاً عن الحبيب الودود. والقرآن يقصُّ علينا جميع مناحي السيرة النبوية ، وطرفاً من حياته ﷺ قبل النبوة ، فيذكر لنا يتمه ، وفقره ، وتحنثه ، كما يذكر لنا شؤونه بعد النبوة من هبوط الوحي الإلهي عليه ، وتبليغه إيَّاه ، والعروج به ، وعداوة الأعداء ، وهجرته ، وغزواته ، وفي القرآن الكريم ذكر أخلاقه ﷺ ، كلُّ ذلك تراه مذكوراً في

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الملك بن مسعود ، توفي سنة ١٦٥ هـ.
(٢) تهذيب التهذيب ، الجزء السادس ، ص ١١.
(٣) نفس المرجع.

القرآن ببيانٍ واضحٍ ، وأسلوبٍ متينٍ رائق ، ومن ذلك تعلمون أنَّه لم تطرّق أذنَ التاريخ سيرةُ رجلٍ بأحسنَ ، ولا أصحَّ ، ولا أوثقَ من سيرة محمَّدٍ ﷺ .

والمصدر الثاني من مصادر السيرة النبوية[1] : كتب الحديث ، وهي كتب حفظت لنا من أقوال النبي ﷺ ، وأفعاله ، وأحواله ما يبلغ مئة ألف حديث ، وقد امتاز الصحيح منها عن الضعيف والموضوع ، والقوي منها عن غير القوي . ومن الكتب المصنفة في الحديث الكتب الستة الصحاح التي محَّص العلماءُ كلَّ ما ورد فيها ، وذكروا شواهده ، ومتابعاته ، حتى لم

---

(١) تأتي كتابة السيرة النبوية ـ من حيث الترتيب الزمني ـ في الدرجة الثانية بالنسبة لكتابة السنة النبوية ، فلا جرم أن كتابة السنة ـ أي الحديث النبوي كانت أسبق من كتابة السيرة النبوية عموماً ، إذاً السنة بدأت كتابتها كما هو معلوم ، في حياة رسول الله ﷺ بإذن بل بأمر منه عليه الصلاة والسلام ، وذلك بعد أن اطمأن إلى أن أصحابه قد تنبهوا للفارق الكبير بين أسلوبي القرآن المعجز والحديث النبوي البليغ ، فلن يقعوا في لبس بينهما . أما كتابة حياة رسول الله ﷺ ومغازيه بصورةٍ عامَّة فقد جاء ذلك متأخراً عن البدء بكتابة السنة ، وإن كان الصحابة يهتمون بنقل سيرته ومغازيه شفاهاً .
ولعلَّ أول من اهتم بكتابة السيرة النبوية عموماً ، هو عروة بن الزبير المتوفى ٩٢ هـ ثم أبان بن عثمان المتوفى ١٠٥ هـ ، ثم وهب بن منبه المتوفى ١١٠ هـ ثم شرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣ هـ ، ثم ابن شهاب الزُّهري المتوفى ١٢٤هـ .
إنَّ هؤلاء يُعدُّون ، ولا ريب ، في مقدمة من اهتموا بكتابة السيرة النبوية ، غير أن جميع ما كتبه هؤلاء قد باد وتلف مع الزمن ، فلم يصل إلينا منه شيء ، ولم يبق منه إلا بقايا متناثرة ، روى بعضها الطبري ، ويقال : إنَّ بعضها الآخر ـ وهو جزء مما كتبه وهب بن منبه ـ محفوظ في مدينة هايدلبرج بألمانيا .
ولكن جاء في الطبقة التي تلي هؤلاء من تلقَّف كلَّ ما كتبوه ، فأثبتوا جلَّه في مدوناتهم التي وَصَلَ إلينا معظمها بحمد الله وتوفيقه ، ولقد كان في مقدمة هذه الطبقة محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٢ هـ ، وقد اتفق الباحثون على أن ما كتبه محمد بن إسحاق يعدُّ من أوثق ما كتب في السيرة النبوية في ذلك العهد ولئن لم يصل إلينا كتابه «المغازي» بذاته ، إلا أن أبا محمد عبد الملك المعروف بابن هشام قد جاء من بعده ، فروى لنا كتابه هذا مهذباً منقحاً ، ولم يكن قد مضى على تأليف ابن إسحاق له أكثر من خمسين سنة (فقه السيرة النبوية ، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي مع اختصار ، ص ٢٢٦) .

يتركوا في النفوس منزعَ ظفرٍ لمحققٍ منصفٍ ، بل ولا لمدققٍ جائز. ويتلو الكتبَ الستَّةَ كتبُ المسانيد ، وأعظمُها مسند الإمام أحمد بن حنبل في ستة مجلدات كبار ، كلُّ مجلَّدٍ منها يحتوي على نحو خمسمئة صفحة من القطع الكبير بحروفٍ دقيقة. وقد تضمَّن هذا المسند مروياتِ كلِّ صحابي مجموعةً ومذكورةً على حدة ، وفي هذه المجموعات جميع تعاليم الرسول ﷺ ، وأحواله ، وسيرته غير مرتبة على المواضيع.

والمصدر الثالث: كتب المغازي ، ومعظم ما فيها ذكرُ الغزوات النبوية ، وقد تتضمن أموراً أخرى. ومن المصنفات القديمة في المغازي مغازي عروة بن الزبير[1] المتوفى سنة ٩٤ هـ ، ومغازي الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ ، ومغازي موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ، ومغازي ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠ هـ ومغازي زياد البكائي المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، ومغازي الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وغيرهم.

والمصدر الرابع: كتب التاريخ الإسلامي العام التي تبتدىء بالسيرة النبوية ، ومن أوثقها ، وأصحها ، وأطولها ، وأضخمها: طبقات ابن سعد ، وتاريخ الرسل والملوك للإمام أبي جعفر الطبري ، والتاريخ الصغير ، والتاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري ، وتاريخ ابن حيان ، وتاريخ ابن أبي خيثمة البغدادي المتوفى سنة ٢٩٩ هـ ، وغيرهم.

والمصدر الخامس: الكتب التي ألفت في المعجزات ، وتسمَّى بكتب الدلائل ، ومنها دلائل النبوة لأبي إسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، ودلائل النبوة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، ودلائل النبوة للإمام البيهقي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، ودلائل النبوة للمستغفري المتوفى سنة ٤٣٢ هـ ، ودلائل

---

(١) هذا الكتاب كان مفقوداً ، وقد أخرجه فضيلة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي بعد عناء طويل وجهد حثيث ، وهو الآن على قيد الطباعة في الأكاديمية البريطانية الإسلامية بلندن بتحقيقه وتعليقاته.

أبي القاسم إسماعيل الأصفهاني المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، وأضخمها وأبسطها كتائب الخصائص الكبرى للجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ.

والمصدر السادس: كتب الشمائل ، وهي مقصورة على ذكر أخلاق النبي ﷺ ، وعاداته ، وفضائله ، وما كان يعمل في يومه من الصباح إلى المساء ، وفي ليله من المساء إلى الصباح. وأشهر هذه الكتب وأولها (كتاب الشمائل) للحافظ الترمذي. وقد كتب كبار العلماء زيادات عليه ، أهمُّها وأضخمها وأطولها (كتاب الشفا في حقوق المصطفى) للقاضي عياض ، وقد شرحه الشهاب الخفاجي ، وسمَّاه: نسيم الرياض ، وصنف في هذا الموضع علماء آخرون ، منها: كتاب (شمائل النبي ﷺ) لأبي العباس المستغفري المتوفى سنة ٤٣٢ هـ ، و(النور السَّاطع) لابن المقري الغرناطي المتوفى سنة ٥٥٢ هـ ، و(سفر السعادة) لمجد الدين الفيروز أبادي المتوفى سنة ٨١٢ هـ.

يضاف إلى ما ذكرناه الكتب التي صنفها بعض العلماء المتقدمين في أحوال مكَّة المعظمة ، والمدينة المنورة ، وذكروا فيها ما في هذين البلدين الطيبين من بقاعٍ ، وأماكن ، وأودية ، وجبالٍ ، وخطط ، وذكروا من تولى إماراتهما بادئين بكلٍّ ما له علاقة بالنبي ﷺ. وأقدم كتاب في هذا الموضوع (أخبار مكة) للأزرقي المتوفى سنة ٢٢٣ هـ و(أخبار المدينة) لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٨ هـ ثم أخبار مكة للفاكهي ، وأخبار المدينة لابن زبالة.

ساداتي! لقد عرضت عليكم أسماء الكتب في السيرة النبوية ، وذكرت لكم ما صنف في هذا الباب من قديم الزمان ، ومنه يعلم القارىء مكانة السيرة المحمَّدية من التاريخ ، وأنَّ هؤلاء المحدِّثين والخلفاء الإسلاميين لم يقتصروا على حفظ الروايات عن ظهر قلب ، وتقييدها بالكتابة وحسب ، بل اتخذ الولاة والخلفاء معاهد لكبار العلماء والأئمة يتولَّون التدريس فيها ، وأقاموا المباني في المساجد ليشتغل فيها المعلمون والمدرسون من كبار العلماء بتعليم المغازي ، وكان عاصم بن عمر المتوفى سنة ١٢١ هـ ـ وهو

حفيد قتادة الصحابي - يدرس في المسجد الجامع بدمشق بأمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

كتب السيـرة النَّبويـة تُـعَـدُّ بالألـوف :

والذي ألفه الناس في سيرة النبي ﷺ من عهد الرسالة إلى يومنا هذا في مختلف الأوطان الإسلامية والأجنبية في معظم لغات العالم يُعَدُّ بالألوف ، واعتبر ذلك بما صنف باللغة الأوردية الحديثة وحدها في موضوع السيرة النبوية ، مع أن الأوردية لم تَصِرْ لغة تأليف إلا منذ قرنين على الأكثر ، وفي تقديري أنَّ ما صنف بها وحدها في السيرة النبوية يبلغ ألفاً إن لم يزد عليه[١] .

مرجليـوث أشــدُّ المستشرقين تحامــلاً على الإســلام :

وَدَعْ عنك المسلمين وما صنفوا في سيرة نبيِّهم ﷺ ، فإنَّهم يحبُّونه حبّاً عظيماً ، ويقدمون ذلك بين يدي الله فرطاً وذخراً لهم يوم القيامة ، وتعال ننظر إلى من ألف في سيرته ممَّن لا يؤمنون بنبوته ، ولا يوقنون برسالته ، فإننا نجدُ في الهند نفسها على اختلاف مللها : من الهنادك ، والسيخ ، والبرهمو سماج كثيراً من علمائهم قد ألفوا في سيرته ﷺ ، أما الأوربيون الذين لا يدينون بالإسلام ، ولا يؤمنون بالرسالة المحمدية فقد صنَّف منهم في سيرة النبي ﷺ حتى المبشرون من دعاة النصرانية والمستشرقون ، عنايةً منهم بالتاريخ ، وإرواء لظمئهم العلمي ، ويعد ما ألفوه في ذلك بالمئات . وكنت قرأت في مجلة «المقتبس» التي كانت تصدر في دمشق قبل نحو أربعين سنة إحصاءً لما صنف في السيرة النبوية بمختلف اللغات الأوربية ،

---

(١) ومن أشهر وأفضل ما أُلِّف بالأردوية في موضوع السيرة النبوية هو «سيرة النبي ﷺ» (في سبع مجلدات ضخمة) للعلامة شبلي النعماني وتلميذه صاحب هذه المحاضرات العلامة سيد سليمان الندوي ، و«سيرة رحمة للعالمين» للقاضي سليمان المنصور فوري في ثلاث مجلدات التي طبعت أخيراً في دار السلام ، الرياض نقلها إلى العربية الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، وهي من أعظم كتب السيرة تأثيراً ، و«النبي الخاتم» للشيخ مناظر أحسن الكيلاني و«رسول رحمت» لمولانا أبي الكلام آزاد .

فبلغ نحو ثلاثمئة كتاب وألف كتاب ، ولو أضفنا إلى هذا العدد ما صدر من المطابع الأوربية في السيرة النبوية خلال الأربعين سنة بعد ذلك الإحصاء الذي نشرته مجلة «المقتبس» لأربى على ذلك كثيراً. وإنَّ مرجوليوث الذي كان أستاذاً للغة العربية في جامعة أوكسفورد أصدر في سنة ١٩٠٥ م كتابه (محمد) وجعله حلقةً في سلسلة «عظماء الأمم» وهو لم يكتب كتابه هذا ليثني فيه على رسول الله محمد ﷺ ، بل لعلَّه لم يؤلف كاتب بالإنجليزية كتاباً أشدَّ تحاملاً على النبي ﷺ مما جاء في هذا الكتاب ، وقد حاول مرجليوث أن يشوِّه كلَّ ما يتعلق بالسيرة الشريفة ، وأن يشكِّك في أسانيدها ، ولم يأل جهداً في نقض ما أبرمه التاريخ ، ومعارضة ما حقَّقه المحقِّقون من المنصفين ، لكنه مع كل هذا لم يتمالك عن الاعتراف في مقدمة كتابه بأنَّ الذين كتبوا في سيرة محمد ﷺ لا ينتهي ذكر أسمائهم ، وأنهم يرون أن من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوُّئه مجلساً بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية.

The biographers of the prophet Mohammad from a Long Series it is impossible to end but in Which Would be honourable to find a plaee.

اعترافـــات كبـــار المستشرقين حــول السيــرة النبويـــة :

وقد كتب جون ديون بورت سنة ١٨٧٠ م كتاباً بالإنجليزية في السيرة المحمدية عنوانه (اعتذار من محمد والقرآن Appologey for Mhammad Quran) والذي يقرؤه يُخيَّل إليه أنَّه كتبه بنزعة الإخلاص والإنصاف ، ويقول في مقدمته : لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين ، والمشرعين ، والذين سنوا السنن من يعرف الناس حياته وأحواله بأكثر تفصيلاً ، وأشمل بياناً مما يعرفون من سيرة محمد ﷺ وأحواله.

وألقى ريورند باسورث سميث Basworth smith عضو كلية التثليث في أوكسفورد سنة ١٨٧٤ م محاضرات عن (محمد والمحمدية) في الجمعية الملكية لبريطانيا العظمى ، هذا الكتاب أشد تحاملاً على النبي ﷺ ، ومما جاء فيه : «كلُّ ما يقال في الدِّين يغلب فيه الجهل ببدايته ، ومما يؤسف له

أن هذا يصحُّ إطلاقه على الدِّيانات الثلاث[١] وعلى أصحابها الذين نعدُّهم تاريخيين؛ لأننا لا نعمل لهم وصفاً أحسن من هذا الوصف ، فإنَّنا قلَّما نعلم عن الذين كانوا في طلائع الدعوة ، والذي نعلمه عن الذين جاؤوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن أصحاب الدعوة الأولين. فالذي نعلمه من شؤون زردشت ، وكونفوشيوس أقل من الذي نعلمه عن سولون ، وسقراط. والذي نعلمه عن موسى ، وبوذا أقل مما نعلمه عن أمبرس[٢] (Ambrase) وقيصر. ولا نعلم من سيرة عيسى إلا شذرات تتناول شُعباً قليلة من شُعب حياته المتنوعة والكثيرة. ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شؤون ثلاثين عاماً هي تمهيد واستعداد للثلاثة أعوام التي لنا علم بها من حياته. إنَّه بعث ثلث العالم من رقدته ، ولعله يحيي أكثر مما أحيا ، وحياته المثالية بعيدةٌ عنَّا مع قربها منَّا ، وإنها تتراوح بين الممكن والمستحيل ، بيد أنَّ كثيراً من صفحاتها لا نعلم عنها شيئاً أبداً ، وما الذي نعلمه عن أمِّ المسيح ، وعن حياته في بيته ، وعيشته العائلية ، وما الذي نعلمه عن أصحابه الأولين، وحواريه، وكيف كان يعاملهم ، وكيف تدرجت رسالته الروحية في الظهور ، وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته. وكم وكم من أسئلة تجيش في نفوسنا، ولن يستطيع أحدٌ أن يجيب عليها إلى يوم القيامة؟!

«أما الإسلام فأمره واضحٌ كلُّه ، ليس فيه سرٌّ مكتومٌ عن أحد ، ولا غُمَّةٌ ينبهمُ أمرها على التاريخ. ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كالذي يعلمونه من أمر لوثر ، وملتن ، وإنَّك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون أساطير ، ولا أوهاماً ، ولا مستحيلات ، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحدٍ هنا أن يخدع نفسه ، أو يخدع غيره ، والأمر كلُّه واضحٌ وضوح النهار ، كأنه الشمس رأد الضُّحى يتبين تحت أشعة نورها كلُّ شيء».

---

(١) يريد ديانات «بوذا» و«كونفوشيوس» و«زردشت».

(٢) أمبرس (٣٣٩ ـ ٣٩٧ ق.م) رئيس أساقفة ميلانو ، هدى القديس أوغسطينس ، وله أناشيد دينيَّة.

السيرة النبوية أوثق رواية وأكثر صحةً من كل ما كتب في سيرة النبيين:

لقد ألف المسلمون في السيرة النبوية ألوف الكتب ، بل أكثر من ذلك ، ولا يزالون ماضين في التأليف فيها ، وكلُّ كتابٍ في السيرة المحمَّدية مهما كان لا ريب أنَّه أوضح بياناً ، وأوثق روايةً ، وأكثر صحةً من كل ما كتبه الناس في قصص النبيين وسيرهم عليهم السَّلام. والكتب الأولى في السيرة المحمدية تلقاها عن أصحابها مئون ، وآلاف من تلاميذهم ، وأتقنوها فهماً ، وأحكموها فقهاً ولم يتركوا فيها كلمةً غامضةً ، ولا عبارةً معضلةً إلا أوضحوا مبهمها ، وحلُّوا معضلها. وأول كتاب عندنا في الحديث النبوية كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس ، وقد سمعه من مؤلفه ستمئة من تلاميذه فيهم: الخلفاء ، والولاة ، والعلماء ، والفقهاء ، والأدباء ، والزهَّاد ، والنسَّاك. والجامع الصحيح لأبي عبد الله بن إسماعيل البخاري تلقاه ستون ألفاً من أهل العلم عن تلميذٍ واحدٍ من تلاميذه وهو الإمام الفربري[1]. فهل في العالم دينٌ احتاط أهله مثل هذا الاحتياط ، واهتمُّوا مثل هذا الاهتمام في كلِّ ما يتعلَّق بأمر نبيهم وهدايته ، وهل ألف في هذا الباب تأليفٌ أكثر صحةً ، وأعظم ثقةً ، وتثبتاً ، وهل نال مثل هذه الصحَّة التاريخية دينٌ غيره ، وهل حفظ التاريخ من تفاصيل حياة نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام مثل الذي حفظه من سيرة محمَّدٍ ﷺ؟!

* * *

(١) هو محمد بن يوسف: صاحب البخاري. كان ثقة ورعاً ، رحل إليه الناس ، وسمعوا منه صحيح البخاري. وهو أحسن مَنْ روى الحديثَ عن البخاري. توفي سنة (٣٢٠هـ). شذرات الذهب (٤/ ١٠١) والعبر (٢/ ١٨٩) وسير أعلام النبلاء (١٥/ ١٠ ـ ١٣).




المحاضرةُ الرَّابعة

في السِّيرة المحمَّديَّة من ناحيةِ كمالها وتمامها وإحاطتها بشؤون الحياة البشريَّة




لا تكون حياةُ أحدٍ كاملةً إلا إذا كانت معلومة للناس ، وحياةُ محمد ﷺ من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومةُ التفاصيل بجميع دخائلها .

سادتي وإخواني! موضوع كلامنا اليوم في أنَّ السيرة المحمَّدية هي السيرة التامَّة الكاملة الشاملة لجميع أطوار الحياة ، وما من حياة أحدٍ ـ مهما بلغت من صحة التاريخ وثبوت الرواية ـ يصح أن يكون منها للناس أسوةٌ تتبع ومثالٌ يقتدى به إلا إذا كانت متصفةً بالكمال ، ولا تكون حياةُ أحدٍ كاملةً ومنزهةً عن العيوب والمثالب إلا إذا كانت معلومة للناس بجميع أطوارها ، ومتجليةً لهم دخائلها من كلِّ مناحيها. وحياة محمد ﷺ من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومةٌ للَّذين عاصروه ، وشهدوا عهده ، وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم ، وهو في حياته لم يحتجبْ عن عيون قومه إلا مدَّةً يسيرة ليعدَّ عُدَّته للمستقبل ، وليهيِّىء الأسباب لحياته القابلة. إنَّ جميع شؤونه وأطوار حياته ـ من ولادته ، ورضاعه ، وطفولته إلى أن صار يافعاً وشاباً ـ كلُّ ذلك ظاهرٌ أمره ، معلومةٌ تفاصيله. وقد علم التاريخ عن هذا النبي ﷺ باشتغاله في التجارة ، وكيفية زواجه ، وعلم الناس سجاياه في صداقته ، وفي وفائه للناس قبل النبوة ، واتصلوا به حين اتخذوه أميناً ، وأقاموه حكماً فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الأسود في موضعه من الكعبة ، ثم وقفوا على أمره حين حبَّب الله إليه الخلوة ، فاعتزلهم في غار حراء ، ثم علموا حاله حين نزل عليه الوحي من ربِّ العالمين ، وحين بدأ أمر الإسلام يظهر للوجود ، فأخذ يدعو الناس إليه ، ويبلغ ما أنزل عليه. وقد رأى التاريخ كيف خالفوه وعاندوه. وهل غاب عن التاريخ ما لقي ﷺ في نشر الإسلام من جهدٍ وعناء ، وما قابله به أهل الطائف حين سار إليهم ينهاهم عن عبادة الأوثان ؟ ويأمرهم بعبادة الرحمن. وهل نسي التاريخ حين أخبر أهلَ مكَّةَ ـ وهم أقليةٌ قليلة من المسلمين وأكثريةٌ ساحقةٌ من المشركين ـ بخبر العروج به إلى السماء ؟ ثم هل خفي عن التاريخ أمر

هجرته، ومع مَنْ هاجر ، والغزوات التي غزاها ، والأسباب الباعثة عليها ، وموقفه من الهدنة[1] إذا هادن ، وعهوده إذا عاهد ؟ وما صلح الحديبية بسرٍّ. والذين طالعوا كتب السيرة النبوية يعلمون ما ذكرنا ، وما لم نذكر ، وقد وقفوا على كتبه ﷺ إلى الملوك ، والأقيال ، والولاة ، يدعوهم فيها إلى دين الله ، دين السلام والوئام ، وعرفوا جهاده في سبيل الحق ، وما بذله في تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس ، إلى أن أكمل الله للإنسانية دينها ، وحجَّ ﷺ حجَّة الوداع ، وتوفاه الله إليه. فهل في شيءٍ من ذلك ما يجهله التاريخ ، وهل فيما يتعلق بهذا الرسول الأعظم ورسالته ما أسدل عليه ستارٌ من خفاء؟ إنَّ كل ما ينسب إليه ﷺ ، أو يعزى إليه من حق أو باطل ، وصدق أو كذب ، وصحيحٍ أو فاسد معلومٌ بالتفصيل ، وواضحٌ أمره للناقدين. وقد يخطر ببال سائل أن يسأل: ما بال المحدِّثين حفظوا موضوعات الأحاديث وضعافها ، وهلا اكتفوا بالصحيح وأهملوا غيره؟ والذي ينعم النظر في ذلك يبدو له من المصلحة أن لا يوجه القادحون اللائمة إلى المسلمين بأنَّ هنالك مروياتٍ قضوا عليها ، وأخباراً نبذوها ليخفوا من أمر نبيهم ما فيه مغمز ، كما يطعن الطاعنون في هذه الأيام على الأخبار المسيحية لأجل ذلك. أما المحدِّثون الكرام من علماء المسلمين؛ فقد جمعوا كلَّ ما له علاقة بالنبي ﷺ صحيحاً كان أو سقيماً ، حقاً أو باطلاً ، وجعلوا لنقده قواعد ، وأصَّلوا لتحقيقه أصولاً ، يرجع إليها في تمييز الصحيح من الفاسد ، والغثِّ من السمين. وهم قد حفظوا شؤون حياة النبي ﷺ ، وأحواله ، وأخباره كلَّها ، ولم يتركوا أمراً من أموره ، ولا شأناً من شؤونه إلا ذكروه. حتى لقد وصفوه في قيامه ، وجلوسه ، ونهوضه من النوم ، وهيئته في ضحكه ، وابتسامه ، وعبادته في ليله ونهاره ، وكيف كان يفعل إذا اغتسل ، وإذا أكل ، وكيف كان يشرب ، وماذا كان يلبس ، وكيف يتحدث إلى الناس إذا لقيهم ، وما كان يحبُّ من الألوان ، ومن الطيب ، وما هي حليته وشمائله ، ووصفوا جسده الطاهر وصفاً كاملاً كأنك

(١) الهُدْنَة: المُصالحة بعد الحرب.

تراه ، ووصفوا حياته العائلية من معاشرة الرجل أهله ، وخليلته ، وأتبعوا ذلك بذكر الطهارة من الغسل ، فوصفوا ذلك كما وصفوا الوضوء للصلاة.

مثال من كتب الشمائل لتفاصيل ما يعرفه التاريخ عن محمد ﷺ من جليل ودقيق:

وأستعرض لكم فهرسة أقدم كتاب في الشمائل للترمذي؛ لتعلموا كيف ضبط المسلمون أحوال النبي ﷺ ، وأحصوا أخباره جليلها ودقيقها ، خطيرها وحقيرها ، كثيرها وقليلها: (١) باب ما جاء في حلية النبيِّ ﷺ ، (٢) في ذكر شَعره ، (٣) في ترجُّله ، (٤) شيبه ، (٥) خضابه ، (٦) كحله ، (٧) لباسه ، (٨) عيشهُ ، (٩) خُفُّه ، (١٠) نعله ، (١١) خاتمه ، (١٢) صفة سيفه ، (١٣) درعه ، (١٤) مغفره ، (١٥) عمامته ، (١٦) إزاره ، (١٧) مشيته ، (١٨) تقنُّعه ، (١٩) جلسته ، (٢٠) فرشه ووسادته ، (٢١) ما جاء في اتكائه ، (٢٢) صفة أكله ، (٢٣) خبزه ، (٢٤) إدامه ، (٢٥) وضوءُه ، (٢٦) ما يقوله قبل الطعام وبعده ، (٢٧) قدحه ، (٢٨) فاكهته ، (٢٩) شرابه ، (٣٠) صفة شربه ، (٣١) تعطره وتطيبه ، (٣٢) كيف كان كلامه ، (٣٣) إنشاده الشعر ، (٣٤) مسامرته وقصصه ، (٣٥) نومه ، (٣٦) عبادته ، (٣٧) ضحكه وتبسمه ، (٣٨) مزاحه ، (٣٩) عبادته بعد طلوع الشمس ، (٤٠) تطوعه في بيته ، (٤١) صومه ، (٤٢) تلاوة القرآن ، (٤٣) بكاؤه وخشوعه ، (٤٤) فراشه ، (٤٥) تواضعه ، (٤٦) أخلاقه ، (٤٧) أسماؤه الكريمة ، (٤٨) معاشرته ، (٤٩) سنه ، (٥٠) وفاته ، (٥١) ميراثه ، (٥٢) حجامته.

ذلك ممَّا يتعلق بنفسه الشريفة ، وشخصه الكريم ، وهنالك أحاديث عن كلِّ طورٍ من أطوار حياته ، وناحيةٍ من نواحيها ، كلُّ ذلك في وضوحٍ وجلاءٍ ، بحيث لم يبق شيءٌ من حياته مخفياً أمره ، مكتوماً سرُّه ، فإذا دخل بيته؛ فهو بين أهله ، وعياله ، وأولاده ، وإن خرج منه؛ فهو بين أصحابه ، ورفقائه ، وكلُّ ذلك محفوظٌ ، مذكورٌ ، مشهور.

كلمات المستشرقين الكبيرين عما يعرفه التاريخ من دخائل محمد ﷺ:

إخواني! إنَّ أعظم الناس وأجلَّهم إذا انقلب إلى بيته كان فيه رجلاً من الرجال، وواحداً كآحاد الناس، ولقد صدق فولتير[1] في كلمته المشهورة: «إنَّ الرجل لا يكون عظيماً في داخل بيته، ولا بطلاً في أسرته» يريد أنَّ عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس إليه، لاطّلاعه على دخيلته في مباذله. وهذا الحكم يشذُّ عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فيقول باسورت سمث: إن ما قيل عن العظماء في مباذلهم لا يصحُّ ـ على الأقل ـ في محمد رسول الإسلام، واستشهد بقول كبن[2]: «لم يمتحنْ رسولٌ من الرسل أصحابه كما امتحن محمدٌ أصحابه، إنه قبل أن يتقدَّم إلى الناس جميعاً، تقدم إلى الذين عرفوه إنساناً المعرفة الكاملة، فطلب من زوجته، وغلامه، وأخيه، وأقرب أصدقائه إليه وأحبِّ خلانه أن يؤمنوا به نبياً مرسلاً، فكلٌّ منهم صدَّق دعواه، وآمن بنبوَّته. وإنَّ حليلة المرء أكثرُ الناس علماً بباطن أمره، ودخيلة نفسه، وألصقهم به، فلا يوجد من هو أعرف منها بهناته، ونقائصه، أليس أول من آمن بمحمد رسول الله زوجه الكريمة التي عاشرته خمسة عشر عاماً، واطَّلعت على دخائله في جميع أموره، وأحاطت به علماً ومعرفة، فلما ادَّعى النبوَّة كانت أول من صدَّقه في نبوَّته».

تفاصيل أخرى عما يعرفه التاريخ عنه ﷺ:

إنَّ أعظم الناس لا يأذن لزوجه ـ وإن كانت له زوج واحدة ـ بأن تحدِّث الناس عن جميع ما تراه من حليلها، وأن تعلن كلَّ ما شاهدته من أحواله، لكنَّ رسول الله كانت له في وقت واحد تسعُ زوجات، وكانت كلٌّ منهن في

---

(١) فولتير (Voltaire)، من كبار المؤلفين الفرنسيين، كتب في الشعر، والتاريخ، والمسرح، والمراسلة، والفلسفة، وأجاد في أكثرها، ومن مؤلفاته المشهورة «محمَّد» و«زئير» و«كنديد» و«شارك ١٢». مات سنة ١٧٧٨ م.

(٢) أحد كبار المستشرقين، وله كتب قيمة في التاريخ، ومن أشهرها: The History of Decline and Fall of the Roman Empire.

إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كلَّ ما تراه منه في خلواته ، وهن في حلٍّ من أن يخبرن الناس في وضح النهار كلَّ ما رأين منه في ظلمة الليل ، وأن يتحدَّثن في الساحات ، والمجامع بما يشاهدن منه في الحجرات ، فهل عرفت الدُّنيا رجلاً كهذا الرجل يثق بنفسه كلَّ هذه الثقة ، ويعتمد عليها إلى هذا الحد ، ولا يخاف قالة السُّوء عنه من أحدٍ؛ لأنه أبعد الناس عن السوء.

هذا ما يتعلق بذات الرسول ، وأما ما تحلَّت به نفسه من دماثة الخلق ، ورجاحة العقل ، وحصافة الرأي ، وكرم النفس ، وعلوِّ الهمَّة ، ورحابة الصدر ، فإنَّ كتب الحديث ملأى بتفاصيله. وأحسن كتاب في ذلك كتاب (الشفا) للقاضي عياض الأندلسي. وقد قال لي يوماً وأنا في فرنسا مستشرقٌ اسمه ماسنيون[١]: يكفي لتعرف أوربا محاسن رسول الله محمد ﷺ ومحامده أن ينقل كتاب (الشفا) للقاضي عياض إلى إحدى اللغات الأوربية.

إنني بوَّبت في الجزء الثاني من السيرة[٢] عند ذكر شمائله ﷺ هذه الأمور: خلق رسول الله ﷺ ، وحليته ، وخاتم النبوة ، وشعره ، ومشيته ، وكلامه ، وضحكه ، وتبسمه ، ولباسه ، وخاتمه ، ومغفره ، ودرعه ، وطعامه ، وصفة أكله ، وسنن طعامه ، وشارته ، واللون المحبب إليه ، واللون الذي كان يرغب عنه ، وتعطره ، وحبه للنظافة والطهارة ، وركوبه. وذكرت في أشغاله: ما كان يعمله في نهاره من الصباح إلى المساء ، ثم نومه ، وتهجُّده ، ووظائفه في الصلوات ، وأسلوب خطبته ، وأعماله في السفر ، وأعماله في الجهاد ، وسنته في عيادة المرضى ، وتعزيته أهل الميت ، وسنته في لقاء الناس ، وعامة أشغاله. وإليكم ما ذكرت عن مجلسه ﷺ: مجالس الإرشاد ، آداب المجلس ، أوقات جلوسه مع الناس ، مجالسه الخاصة بالنساء ، طريقة هديه وإرشاده ، لقاؤه الناس بالبشاشة والبشر ، تأثير صحبته فيمن يصحبه ، وأسلوب كلامه معهم ،

---

(١) ماسنيون (Massignon) مستشرق فرنسي ، عُني بالصُّوفية ، واهتمَّ بنشر مؤلفات الحلاَّج ، وله مؤلفات في الشؤون الإسلاميَّة ، مات سنة ١٩٦٢ م.

(٢) أراد المحاضرُ كتابه في السيرة النبوية بالأردوية.

وأنواع خطبه النبوية ، وأثرها في السامعين . ومن العناوين التي وردت فيما ذكرته عن عبادته : دعاؤه ، صلاته ، صومه ، زكاته وصدقاته ، حجُّه ، مداومته ذكر الله ، ذكره الله عز وجل في مواقف القتال ، خشيته من الله ، بكاؤه ، محبته لله ، توكله عليه ، صبره ، شكره لمفيض النعم جلَّ جلاله . ومما جاء في كتابي المذكور عن أخلاقه ﷺ: أخلاقه بالتفصيل ، مواظبته على العلم ، مكارم أخلاقه ، حسن معاملته للناس ، عدله ، جوده وكرمه ، إيثاره ، ضيافته وقراه ، كراهته سؤال الناس ، إباؤه لأموال الصدقة ، قبوله الهدية ، ترفعه عن فضل الغير ومنته ، تنزهه عن الفظاظة ، وموقفه من التقشف ، وكرهه للهجاء والمدح ، والتزامه عدم التكلف في الحياة ، وبعده عن التأنق في المشرب والمأكل ، اجتنابه الرياء والخيلاء ، مساواته ، تواضعه ، كرهه للمبالغة في التعظيم والإطراء ، حياؤه ، عمله بيده ، عزيمته ، شجاعته ، صدقه في القول ، وفاؤه بالوعد ، زهده في الدُّنيا ، قناعته ، حلمه ، عفوه عن الناس ، صفحه عن أعدائه ، إحسانه إليهم ، معاملته للكافرين والمشركين ، معاملته لليهود والنصارى ، حبُّه الفقراء والمساكين ، عفوه عن أشد أعدائه ، دعاؤه لأعدائه بالخير ، شفقته على الصبيان ، معاملته للنساء ، رحمته بالحيوان ، ما فطر عليه من الرحمة والمحبة بوجهٍ عام ، لين قلبه ورقته ، عيادته للمرضى ، سجاحة خلقه ، ودماثته ، محبَّته لأولاده ، معاشرته لأزواجه الطاهرات ، هديه في المراسلة ، معالجته لأمراض النفس وأمراض البدن .

استقصاء ابن القيم في «زاد المعاد» كلَّ أحوال النبي ﷺ الخاصَّة وشؤونه اليومية :

وقد استقصى الحافظ ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) كل ما ينبغي معرفته عن النبي ﷺ وأحواله ، فاستوعب ذلك أكثر من غيره من المؤلفين . وإليكم فهرس ما ورد فيه عن أحواله الخاصَّة ﷺ وشؤونه اليومية : هديه في إرسال الكتب والرسائل ، هديه في الأكل ، وذكر كيفيته ، هديه في النكاح ومعاشرة الأهل ، هديه في نومه وانتباهه ، هديه في ركوب الدواب ، هديه في العبيد والإماء ، هديه في البيع والشراء ، والتعامل مع الناس ، هديه

عند قضاء الحاجة ، هديه في أمور الفطرة ، هديه في قص الشارب ، هديه في كلامه ، وسكوته ، وضحكه ، وبكائه ، هديه في خطبته ، هديه في وضوئه ، هديه في مسح الخفين ، هديه في التيمم ، هديه في الصلاة ، هديه في الجلسة بين السجدتين ، هديه في السجود ، كيفية تورُّكه[1] في القعدة الأخيرة بعد السجدة ، هديه في جلوسه وإشارته بالتشهد ، هيئة تسليمه عند الخروج من الصلاة ، دعاؤه بعد التسليم ، هديه في سجدة السهو ، هديه في السنن الرواتب ، وصلاة التطوع في الحضر والسفر ، وفي المسجد والبيت ، هديه في قيام الليل (التهجد) ، اضطجاعه بعد سنة الفجر ، صلاته في الليل ووتره ، صلاته جالساً بعد الوتر ، قنوت الوتر ، هديه في قراءة القرآن ، وترتيله ، هديه في صلاة الضحى ، هديه في سجود الشكر ، هديه في سجدات القرآن ، هديه في الجمعة ، هديه في عبادات الجمعة ، هديه في خطبة الجمعة ، هديه في العيدين ، هديه في صلاة الخوف ، وصلاة الكسوف ، هديه في الاستسقاء ، هديه في السفر ، والتطوع فيه ، هديه في الجمع بين الصلاتين ، هديه في تلاوة القرآن ، والاستماع له ، هديه في عيادة المرضى ، هديه في الجنائز ، والإسراع بها ، هديه في تسجية الميت ، هديه في السؤال عن الميت إذا حضرت جنازته ، هديه في الصلاة على الجنازة ، هديه في الصلاة على جنازة الصغير ، هديه في تركه الصلاة على قاتل نفسه والغالِّ ، هديه في المشي أمام الجنازة ، هديه في الصلاة على الميت الغائب ، هديه في قيامه للجنازة إذا مرت به ، هديه في التعزية ، وزيارة القبور ، هديه في الإكثار من العبادة في رمضان ، هديه في الصوم عند رؤية الهلال ، والإفطار لرؤية الهلال ، هديه في قبول الشهادة لرؤية الهلال ، هديه في الإفطار في السفر ، الإفطار يوم عرفة ، صومه أيام الجمعة ، والسبت ، والإثنين ، هديه في صوم الوصال ، هديه في صوم التطوع ، وإفطاره ، وترك قضائه ، كراهيته

---

(١) التورّك: وضع الورك اليمنى على الرجل اليمنى منصوبةً مصوِّباً أطراف أصابعها إلى القبلة.

تخصيص الجمعة للصوم ، هديه في الاعتكاف ، هديه في الحجِّ والعمرة ، اعتماره مرتين في سنةٍ واحدة ، أداؤه الحج ، وهديه في التضحية بيده ، هديه في تضحية البدنة ، هديه في العقيقة ، أذانه في أذن المولود ، وتسميته ، وختانه ، هديه في تسمية الناس ، وتكنيتهم ، احتياطه في الكلام ، وتخيُّر الألفاظ ، هديه في الذكر والدعاء ، هديه في دخول البيت ، هديه في لبس الثياب ، هديه في الذهاب إلى الخلاء والرجوع منه ، هديه في الدعاء عند الوضوء ، هديه في ترديد كلمات الأذان ، هديه في الدُّعاء لرؤية الهلال ، والدُّعاء قبل الطعام وبعده ، هديه في الطعام ، وفي السلام ، وأن لا يدخل أحد على الناس في بيوتهم إلا بعد الاستئذان ، هديه في الدعاء في السفر ، وعند النكاح ، هديه في كراهية بعض الكلمات ، هديه في الغزو والجهاد ، معاملته لأسرى الحرب والعبيد ، وهديه في معاملة الجواسيس إذا أسروا ، هديه في عقد الصلح ، وتأمين المحارب ، وضرب الجزية ، ومعاملته أهل الكتاب والمنافقين.

لقد أجملت لكم فيما تقدَّم ما جاء في أحوال النبيِّ ﷺ خاصَّةً ، ليتبين لكم أنه إذا كانت هذه الأمور الدقيقة قد عُنيَ المسلمون بحفظها ، فما ظنكم بالأمور الجليلة العظيمة الخطر ، وكم بذل رواة الشريعة من عنايتهم في إحصاء أمهات السنن ، وأصول الرسالة ، وإحصائها ، وضبطها مفصلةً ، ويظهر لكم من ذلك : أنَّ جميع وجوه الحياة النبوية ، ومناحيها ، وألوانها قد صينت ، وحفظت من أن تعبث بها أيدي الدَّهر .

إخواني ! حسبكم الآن أنكم قد علمتم ما أوردته في أول هذه المحاضرة من وصف السيرة المحمدية بالكمال ، والتمام ، والإحاطة ، وقد تبيَّن لكم صدق ما ادعيته لها من أنه ما من أحدٍ من الرسل قد حفظت سيرته ، وأحصيت أخباره ، وأحواله كما حفظت سيرة محمد ﷺ ، وأحصيت أخباره وأحواله .

إباحة النبي ﷺ لأصحابه أن يذكروا عنه كل ما يعرفونه بلا تحفُّظ :

إنَّ الوقت ضيق ، والذي أريد أن أفضي به إليكم متنوعٌ ، ومترامي

الأطراف ، وكثيرُ المناحي ، فأنا أجمل لكم في القول ما استطعت ، وأرجو منكم أن تستمعوا له . إنَّ النبي ﷺ أذن لأصحابه ولمن يحضر مجالسه أن يبلغوا عنه لمن غاب عنها ، وهذا الإذن عامٌّ لما يكون عنه في بيته ، وبين أهله وعياله ، أو ما يصدر عنه في حلقته مع أصحابه ، أو ما يقفون عليه من أعماله ، وأقواله عند تعبده في مسجده ، أو قيامه على منبره خطيباً ، أو جهاده في ساحة الحرب تجاه أعدائه ، وهو يسوِّي صفوف المجاهدين في سبيل الله ، أو إذا خلا إلى ربه في حجرةٍ منعزلةٍ في بيته يعبد الله ويتضرَّع إليه ، فكان أزواجه وأصحابه يتحدثون جميعاً بكلِّ ما يصدر عنه من قولٍ أو عمل . ثم إنَّه كان تجاه مسجده صُفَّة يأوي إليها فقراء الصحابة الذين لم تكن لهم بيوت يأوون إليها ، فكانوا يتناوبون الخروج إلى ما بعد بنيان المدينة يحتطبون من أشجار الصحراء والجبل ، ويبيعون ما يأتون به ليقتاتوا جميعاً بثمنه ، ولم يكن لسائرهم عملٌ غير صحبة النبي ﷺ ولزوم مجالسه؛ ليحفظوا عنه ما يقول ، وما يعمل ، ثم يروونه للناس بعنايةٍ ، وأمانة ، وقد بلغ عدد أهل الصفة هؤلاء سبعين رجلاً ، كان منهم أبو هريرة الذي لم يكن صحابيٌّ أكثرَ منه حديثاً عن رسول الله ﷺ ، وهؤلاء السبعون كانوا كأنهم جواسيس الحكومة وعيونها في نشاطهم وإخلاصهم لما يسَّرهم الله له من حفظ كلِّ ما يستطيعون حفظه مما يدخل في موضوع الحديث النبوي ، ولا يفترون عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار ، وقد استمرَّ الحال بهم على ذلك يومياً مدَّة عشر سنوات متوالية ، وإذا ارتحل عن المدينة في غزوٍ ، أو حجٍّ كانوا معه ، وكذلك غيرهم من الصحابة ، حتى لم تخف عنهم خافيةٌ من أمره ، ولم يغبْ عنهم معنىً من معاني رسالته ، ولما كان فتح مكة كان معه من أصحابه عشرة آلاف ، ولما سار إلى تبوك كان في معسكره ثلاثون ألفاً ، ولما حجَّ حجَّة الوداع حجَّ معه في تلك السنة مئة ألف مسلم ينطبق عليهم عنوان الصحابة ، وما منهم إلا من يحرص على الوقوف على شيءٍ من هداية نبيه ﷺ ، أو أيِّ أمرٍ من أموره ، فيتحدَّث عنه . بل هو الذي أمرهم أن يبلغوا عنه ما يسمعون منه ، أو يرون من تصرفاته ، فما ظنُّكم به بعد ذلك؛ هل يخفى عن التاريخ وجه من وجوه حياته ، أو ناحية من نواحيها .

هذا من جهة أصحابه ، وأما أعداؤه؛ فإنهم أفرغوا جهدهم ، واستنفذوا سعيهم؛ ليقفوا على دخيلةٍ من دخائله ، وليؤاخذوه بحقيقةٍ يعلمونها عنه ، فلم يستطع أحدٌ منهم أن يجد له ناحية ضعف ، ولا ما يندِّد به. وأقصى ما استطاع أعداؤه في كل زمانٍ ومكانٍ أن يقولوه عنه: إنه سلَّ سيفه للقتال ، وإنَّه كان كثير الأزواج ، وقد تبين لكم مما سلف أنَّ حياته الطاهرة التي فصَّلنا حقيقتها تفصيلاً ، وأحطنا بجوانبها علماً ، هي حياة العصمة من كلِّ نقصٍ ، البريئة من كلِّ عيب ، فأين هذا من حياةٍ لا نعلم عنها شيئاً ، ولا تزال نواحيها ووجوها سرّاً في ضمير الزَّمن؟!

كـان الرسول ﷺ معروف الدخائـل لأعدائـه أيضاً فلم ينقلوا عنه إلا خيـراً:

إخواني! أريد أن ألفت أنظاركم إلى أمرٍ آخر: إنَّ الرسول ﷺ لم يقض حياته كلَّها بين أحبابه وأصحابه ، بل قضى أربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث ، فكان بين أهلها مشركي قريش ، وكان يتعاطى فيهم التجارة ، ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار ، وهي الحياةُ اليومية ، وما تنطوي عليه من أخذٍ وعطاء ، ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء ، فيتبين للناس فسادُها وصلاحُها ، وهي عيشةٌ طويل طريقُها ، كثيرةٌ منعطفاتُها ، وعرةٌ مسالكها ، تعترضها وهداتٌ مما قد يصدر عن المرء من خيانةٍ ، وإخفار عهدٍ ، وأكل مالٍ بالباطل ، وعقباتٍ من الخديعة والخيانة ، وتطفيف الكيل ، وبخس الحقوق وإخلاف الوعد. وإنَّ الرسول ﷺ اجتاز هذه السبيل الشائكة الوعرة ، وخلص منها سالماً نقياً ، لم يصبه شيء مما يصيب عامَّةَ الناس ، حتى لقد دعوه «الأميْن». وإنَّ قريشاً بعد بعثته وادِّعائه النُّبوَّة كانوا يودعون عنده ودائعهم ، وأموالهم لعظيم ثقتهم به ، وقد علمتم أنَّه ﷺ لما هاجر من مكة خلَّف فيها عليّاً ليردَّ ما كان لديه من الودائع إلى أهلها. فقريش خالفوه أشدَّ الخلاف في دعوته ، ولم يتركوا سبيلاً إلى ذلك إلا سلكوه ، فقاطعوه ، وعاندوه ، وصدُّوا عن سبيله ، وألقوا عليه سلى جزور وهو يصلِّي ، ورموه بالحجارة ، وأرادوا قتله ، وكادوا له كيدهم ، وسمَّوه ساحراً ، ودعوه شاعراً ، وفنَّدوا آراءه ، وسخَّفوا حلمه ، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئاً في أخلاقه ، ولا أن يرميه بالخيانة ، أو ينسب

إليه الكذب في القول ، أو إخلاف الوعد ، أو إخفار الذمَّة ، أو نقض العهد. وإنَّ من ادَّعى النبوَّة ، وقال: إن الله يوحي إليه؛ فكأنه ادَّعى العصمة والبراءة من جميع المفاسد ، ومساوىء الأعمال. ألم يكن يكفي قريشاً في ردِّهم على الرسول أن يذكروا أموراً عمل فيها الرسول بغير الحقِّ ، وأن يشهدوا عليه بأن أخلفهم وعداً ، أو خانهم في أموالهم ، أو كذبهم في شيءٍ مما قاله لهم؟ إنَّ قريشاً أنفقوا أموالهم ، وبذلوا نفوسهم في عداوة الرسول ، وضحوا بفلذات أكبادهم في قتاله حتى قتل منهم وجرح كثيرون ، لكنَّهم لم يستطيعوا أن يدنسوا ذيله الطَّاهر ، ولا أن يصموه بشيءٍ في عظيم أخلاقه. وكانت أحوال الرسول وشؤونه وهديه ظاهرةً لجميع الناس ، معلومةً لهم ، استوى في ذلك أحبابه وأعداؤه ، ولم يخف عليهم شيءٌ من أمره.

كان عظماء قريش مجتمعين ذات يوم في ناديهم، فجرى ذكر الرسول ﷺ ، وفيهم النضر بن الحارث[1] وكان رجلاً داهية محنَّكاً ، وعالماً بالأخبار ، فقال لهم: يا معشر قريش! لقد أعياكم أمر محمد ، وعجزتم عن أن تدبروا فيه رأياً لما أصابكم به. إنَّ محمداً قد نشأ فيكم حتى بلغ مبلغ الرجال ، وكان أحبَّ الناس إليكم ، وأصدقهم فيكم ، واتخذتموه أميناً ، فلما وخطه الشيب ، وعرض عليكم هذا الأمر قلتم ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون. تالله لقد سمعت كلامه فليس فيه شيء مما ذكرتم!

وأبو جهل كان أشدَّ الناس عداوةً للرسول ، وقد قال له ذات يوم: يا محمد إنِّي لا أقول: إنَّك كاذب ، لكني أجحد الذي جئت به ، وما تدعو إليه. فأنزل الله هذه الآية: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣][2].

---

(١) هو النضر بن الحارث بن علقمة ، كان من شجعان قريش ووجوهها ، وهو ابن خالة الرسول ﷺ ، ولما ظهر الإسلام استمرَّ على عقيدة الجاهلية ، وآذاه كثيراً ، شهد «بدراً» مع مشركي قريش ، فأسره المسلمون ، وقتلوه.

(٢) قال السدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام ، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد ، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من يسمع كلامك غيري. فقال أبو جهل: والله إنَّ محمداً لصادق ، وما كذب محمَّد قط ،=

ولما تلقى الرسول أمر ربه بأن يدعو ذوي قرباه إلى الإسلام ، وينذر عشيرته الأقربين؛ صعد الجبل؛ ونادى: يا معشر قريش! فلما اجتمعوا؛ قـال: هل كنتم مصدِّقـيَّ إن قلت: إن جيشاً قد بلغ سفح هذا الجبل؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً قطُّ (صحيح البخاري: سورة تبَّت).

شهادة أبي سفيان (قبل إسلامه) للنبي ﷺ عند هرقل:

ولما أرسل النبي ﷺ كتاب الدعوة إلى هرقل عظيم الروم؛ دعا هرقل أبا سفيان ليسأله عن هذه الدعوة وصاحبه ، وأنتم تعلمون أنَّ أبا سفيان كان يومئذ على العداوة للإسلام ورسوله مدة ست سنوات متوالية انقضت بحشد المقاتلة ، واستنفار المشركين لحرب المسلمين. وانظروا إلى هذا الموقف يدعى فيه عدو ليسأل عن عدوه اللدود الذي يتمنى لو استطاع أن يقتله ، ويمحو اسمه ، ويخفض من شأنه ، ثم يدعى إلى مجلس رجلٍ عظيم صاحب سلطان ليشهد عنده في عدوِّه. فسأله هرقل عن النبي ﷺ:

ـ كَيْفَ نَسَبُهُ فِيْكُم؟

قَالَ أَبُو سُفْيَان: هُوَ فِيْـنَـا ذُوْ نَسَبٍ.

ـ هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟

قَالَ أَبُوْ سُفْيَانَ: لاَ.

ـ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟

قَالَ أَبُوْ سُفْيَانَ: لاَ.

فَأَشْرَافُ النَّاسِ اتَّـبَعُوْهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟

= ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء ، والسقاية ، والحجابة ، والندوة ، والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش؟ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال أبو ميسرة: إن رسول الله ﷺ مرَّ بأبي جهلٍ وأصحابه ، فقالوا: يا محمد! إنا والله ما نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذِّب ما جئت به. فنزلت ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]. (أسباب النزول ، للنيسابوري ، ص ١٨٢).

قَالَ أَبُوْ سُفْيَان : بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ .

- أَيَزِيْدُوْنَ أَمْ يَـنْـقُصُوْنَ؟

قَالَ أَبُوْ سُفْيَانُ : بَلْ يَزِيْدُوْنَ .

- فَهَلْ يَرْتَـدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِيْنِهِ؟

قَالَ أَبُوْ سُفْيَان : لاَ .

- فَهَلْ كُنْتُمْ تَـتَّهِمُوْنَـهُ بِالْـكَـذِبِ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَان : لاَ .

- فَهَلْ يَغْدِرُ؟

قَالَ أَبُوْ سُفْيَان : لاَ ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَـدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيْهَا .

- مَاذَا يَـأْمُرُكُمْ؟

يَقُوْلُ : اعْبُدُوْا اللهَ وَحْدَهُ ، وَلاَ تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئَاً ، وَاتْرُكُوْا مَا يَقُوْلُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ ، وَالصِّدْقِ ، وَالْعَفَافِ ، وَالصِّلَةِ[1] .

فهل تجدون شهادة أعظم من هذه الشهادة؟ إنَّ الموقف حرج ، والسائل ملك ذو شوكةٍ وقوةٍ ، يسأل رجلاً ملأ الضغن صدره عن أمر الرسول ، فلا يقول فيه إلا الصِّدقَ ، والحقَّ . فهل تجدون رسولاً كاملاً أعظم من محمد ﷺ ، وأيُّ شهادة أصدق من هذه الشهادة؟ إنَّ تاريخ الرسل أعجز من أن يأتي بمثلها عن غيره .

رجاحة عقول العرب تجعلهم لا ينخدعون في أمر الرسول ﷺ فاتبعوه وهم على بينة :

سادتي ! أريد أن ألفت أنظاركم إلى أمرٍ آخر جدير بأن تهتمُّوا له ، وتعنوا به ، ذلك أنَّ الذين آمنوا بمحمد ﷺ أولاً لم يكونوا من صيادي الشواطىء ، ولا من الذين استعبدهم فرعون مصر ، بل كان الذين آمنوا بمحمد أولاً

---

(١) البخاري ، كتاب بدء الوحي (٧).

رجالاً من أمةٍ عريقةٍ في الحرية ، ذات عقولٍ ناضجةٍ وفطنةٍ ، ولهم حماسةٌ وحميَّة ، لم تلن قناتهم لحكومةٍ قاهرة ، ولا ذلَّلت أنفتَهم دولةٌ قوية منذ فجر التاريخ ، وكانت لهم تجارةٌ واسعةُ النطاق تصدر فيها ، وترد سلعهم وأمتعتهم بين بلاد وبلاد ، وكانت مملكة فارس ، وبلاد الشام ، ومصر ، وآسيا الصغرى مضربهم وموارد تجاراتهم ، ولاحتكاكهم بالأمم المتمدنة ولقائهم الرجال من مختلف الأمم تفتقت آراؤهم ، واتسعت عقولهم ، وازدادت تجاربهم. يدلُّ على ذلك ما أثر عنهم من الأحكام ، وما وصل إلينا من صفحات التاريخ من الأخبار. وكان من هؤلاء من قاد الجيوش ، وانتصر بها ، فعدَّ من أعظم القادة الفاتحين ، وكان منهم من ساس البلاد ، وحكم الناس ، فأحسن الإحسان كلَّه في سياسته وحكمه حتى عدَّ من أعدل الولاة وأحكم الحكام سياسةً وتدبيراً. وهل يسوغ في العقل ، أن من أوتي مثل هذا العقل الراجح ، والمواهب العظيمة ، والرأي الحصيف يخفى عليه شيء من أمر هذا الرسول ﷺ ، أو ينخدع به! هؤلاء الرجال هم الذين نقلوا عنه ما شهدوه بأنفسهم ، وسمعوه بآذانهم ، وكانوا يرون الاقتداء به سعادةً لهم ، والاهتداء بهديه شرفاً لهم في الدُّنيا ، وذخراً لهم في الآخرة ، فاقتفوا آثاره ، وسلكوا سبيله ، واستنوا بسنته ، وهذا دليلٌ واضحٌ على أنه الرسول الكامل ، وأنَّه على الحق ، ومما لا يردُّه ، ولا يجادلُ فيه إلا مكابر.

إنَّ رسول الله محمداً ﷺ لم يحاول أن يخفي عن الناس أمراً من أموره ، ولا أن يكتمهم حالةً من حالاته ، لذلك عرفوه كما كان في الواقع ، وهو الآن في أذهان عارفيه كما كان في أعين مشاهديه. تَقُوْلُ أُمُّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَقَدْ عَاشَرَتْهُ زَوْجَةً مُدَّةَ تِسْعِ سنين: **لاَ تُصَدِّقُوْا مَنْ يَزْعَمُ أَنَّ مُحَمَّدَاً رَسُوْلَ اللهِ قَدْ كَتَمَ مِمَّا أُوْحِيَ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يُبْدِهِ لِلنَّاسِ؛ إِذْ يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾** [المائدة: ٦٧][1].

إن من طباع الناس ـ ولا سيما من يقوم لهم بالإصلاح والهداية

---

(١) البخاري في كتاب التوحيد (٧٥٢٩).

والتهذيب ـ أنَّهم لا يحبُّون أن يظهر للناس من نفوسهم ما يؤاخذون به ، أو يُعاب عليهم. وفي القرآن الحكيم عدَّة آيات نبه الله فيها رسوله على بعض خَطَئه ، فكان الرسول يتلو هذه الآيات كلَّها على الناس ، ويدعوهم إلى حفظها وإلى تلاوتها في الصلاة والمساجد ، ولا تزال هذه الآيات ـ كأخواتها ـ تتلى بألسنة أتباع محمد رسول الله ﷺ ، فحيثما يبلغ انتشار الدِّينِ المحمَّديِّ ، ويدين به كثيرٌ أو قليل من الناس تتلى هذه الآيات ، ولولاَ أنَّ هذه الأمور ذكرت في القرآن لما انتشر العلم بها هذا الانتشار ، وهكذا السيرة الطاهرة ، والحياة الكاملة هي التي تتَّضح للجميع بمثل وضح النهار أو أشد.

لو كتم الرسول شيئاً لكتم ما في القرآن من مؤاخذته :

كان العرب في الجاهلية ينكرون نكاح الرَّجل مطلقة متبناه ، وقد تزوج الرسول زينب التي كانت من قبلُ زوجاً لمتبناه زيد بعد أن طلقها ، فوردت هذه القصة في القرآن ببيان صريح ، وإنَّ أمَّ المؤمنين عائشة تقول: لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية (أي: قصة طلاق زيد لزوجه زينب وزواج النبي ﷺ بها) لكيلا يسيء فهمها الجهلاء وضعاف العقول ، لكن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك ، أليس هذا مما يدل على أنَّه ﷺ لم يكتمْ من أمره شيئاً ولا خفي على الناس شيءٌ من سيرته.

كلمات كبار المستشرقين في المقارنة بين محمد ﷺ والذين قبله :

وجديرٌ بالذكر شهادة الفاضل الإنجليزي باسورث سميث[1] ؛ إذ يقول: «ترى الشمس هاهنا بارزةً بيضاء ، تنير أشعتُها كلَّ شيءٍ ، وتصل إلى كل شيء. لاشك أن في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئاً ، ولا نتبين حقيقتها أبداً ، أو تبقى منها أمورٌ مجهولة ، بيد أنَّ التاريخ الخارجي لمحمد ﷺ نعلم جميع تفاصيله من نشأته إلى شبابه ، وعلاقته بالناس ، وروابطه ، وعاداته ، ونعلم أول تفكيره ، وتطوره وارتقاءه التدريجي ، ثم

(١) هو مستشرق أمريكي ، مات سنة ١٨٥٧ م.

نزول الوحي العظيم عليه نوبةً بعد نوبةٍ ، ونعلم تاريخه الدَّاخلي بعد ظهور دعوته وإعلان رسالته ، وإنَّ عندنا كتابه (القرآن) لا مثيل له في حقيقته وفي كونه محفوظاً مصوناً ، وفي عدم التزام الترتيب في معانيه ، وإنَّه لم يستطع أحدٌ أن يشك في قيامه على أساس الصدق شكّاً يعتدُّ به ، فهو عندنا ممثلٌ لروح عصره ، ومرآةٌ لبيئته ، فهو لذلك بريء من كل تصنُّعٍ أو تكلف. وإنه بعدم التزام الترتيب فيه ، وفي تحدُّثه عن الشيء وضدِّه معتِبٌ لنا ، غير أنه عامرٌ بالأفكار العظيمة. فترى منه نفساً ملأى بتلك الرُّوحانية ، مرتبطةٌ بها ، مقصورةٌ عليها ، ثملةٌ بأمر الله مع الضعف الإنسانيِّ؛ الذي لم يدَّعِ أنه بريء منه ، بل أكبر دليلٍ على عظمة محمد أنه لم يدَّعِ قطُّ أنه بريء من ذلك» (ص ١٥). ويقول جيِّبن: «لم ينجح في الامتحان العسير رسولٌ من الرسل الأولين من بداية أمره كما نجح محمَّدٌ ﷺ حين عرض نفسه باديء ذي بدء ـ بصفته رسولاً يوحى إليه ـ على الذين عرفوا ضعفه البشري ، وعرفوه أكثر مما يعرفه غيرهم ، فعرض رسالته على زوجه ، وعبده العنيد ، وابن عمه ، وصديقه القديم؛ الذي لم يتحوَّل عنه ولم يخذله ، وهؤلاء هم الذين سبقوا الناس إلى الإيمان بنبوَّته. إنَّ نصيب الأنبياء انقلب في حقِّ محمَّدٍ وتغيَّر عما كان عليه فيمن مضى من الرسل ، فلم يكن محمَّدٌ غير محبوب إلا من الذين لم يعرفوه». فهذه الشهادات على أنَّ مَنْ كان أعرف الناس برسول الله وأقربَهم إليه كان أشدَّهم إيماناً برسالته ، وأما الرسل الآخرون فكان الأجانب والغرباء الذين لم يعرفوهم إلا قليلاً هم الذين سبقوا إلى الإيمان بهم ، وتأخر عن الإيمان بهم ، وتلكأ ذووهم ، وأهل بيوتهم ، والذين كانوا أكثر معرفةً بهم. وهكذا كان المؤمنون برسالة محمد ﷺ هم أعرفُ الناس بحقيقته ، وأكثرُهم اطِّلاعاً على أخلاقه ، وسننه ، وهديه ، وقد بُلي كلٌّ منهم في سبيل هذا الإيمان بلاءً عظيماً ، وامتحن امتحاناً شديداً ، حتى أنَّ خديجة زوج النبي ﷺ قضت معه ثلاث سنوات محصورةً في شعب أبي طالب ، تقاسي معه الجوع والظمأ ، والفاقة المنهكة. وأبو بكر صحب النبي ﷺ يوم ضاقت به أرضُ مكة ، فخرج معه مرتدياً ظلام الليل خائفاً يترقَّب ، والعدو في أثرهما يتعقَّب مواطيء أقدامهما ، فقام أبو بكر بحق

الصحبة ، وكان الوفيَّ بعهد الصداقة ، أما عليٌّ فبات على فراش الرسول الذي كان المشركون قد بيتوا الفتك به. وعبدُه زيد حلَّ من النبي الكريم محل الولد بعطفه عليه ورأفته به ، فلما جاء أبوه الذي ولد من صلبه يطلب ردَّ ابنه عليه خيَّره رسول الله ﷺ بين أن يصحب أباه ، أو يبقى تحت جناحين من عطف الرسول ورأفته ، فاختار صحبة النبي ﷺ على الرجوع مع أبيه إلى قبيلته. يقول هيجنس في كتابه (الاعتذار عن محمد والقرآن Appology for md. and Quran): إنَّ أتباع عيسى (عليه السلام) ينبغي لهم أن يجعلوا على ذكرٍ منهم أنَّ دعوة محمد ﷺ أحدثت في نفوس أصحابه من الحميَّة ما لم يحدث مثله في الأتباع الأولين لعيسى (عليه السلام) ، ومن بحث عن مثل ذلك لا يرجع إلا خائباً ، فقد هرب الحواريون ، وانفضوا عن عيسى حين ذهب به أعداؤه ليصلبوه ، فخذله أصحابه ، وصحوا من سكرتهم الدِّينية ، وأسلموا نبيَّهم لأعدائه يسقونه كأس الموت ، أما أصحاب محمد فالتفوا حول نبيهم المبغيِّ عليه ، ودافعوا عنه مخاطرين بأنفسهم إلى أن تغلَّب بهم على أعدائه[1].

وحين كرَّ مشركو قريش يوم أحد على المسلمين ، فاختلَّتْ صفوفُهم ، وتفرَّق جمعُهم نادى الرسول ﷺ: من يفديني؟ فخرج من الأنصار سبعةٌ دافع كلُّ واحدٍ منهم عن الرسول ، ومازال يقاتل دونه حتى قتل ، وقد قتل لامرأة من الأنصار في هذه الحرب ثلاثة رجال من بيتها: أبوها ، وأخوها ، وزوجها ، وتتابع إليها نعي الثلاثة واحداً بعد واحد ، فكانت تسأل أولاً عن الرسول ﷺ: كيف هو؟ فيقولون لها: إنَّه سالم ، ثم لما رأت وجهه ﷺ سُرِّيَ عنها ، ولم تتمالك أن صاحت قائلة: «كُلُّ مُصِيْبَة بَعْدَكَ جَلَلٌ يَا رَسُوْلَ اللهِ!»[2].

إنَّ الذين دافعوا عنه ، وقُتلوا دونه ، وفدوه بأنفسهم قد عرفوه حقَّ المعرفة ، وعلموا سنته ، وهديه ، وخلقه ، ولولا أنَّ حياة الرسول ﷺ

---

(١) انظر الترجمة الأردوية ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ، طبع برلين سنة ١٨٧٣ م.
(٢) سيرة ابن هشام ، ص ٩٩.

كانت عظيمةً كاملةً ، ونفسه كانت أحبَّ النفوس إليهم ، وأعظمها في أعين أصحابه وأحبابه؛ لما فدوه بأنفسهم. ومن أجل ذلك كانت حياة النَّبيِّ ﷺ أسوةً لأصحابه ، ومحبته ذريعةً لمحبة الله ، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل اتِّباع الرسول في أخلاقه وأعماله ، والاقتداء بسنته وهديه من علامات حبِّهم لله ، ومن السَّهل أن يبذل الإنسان نفسه حميَّةً لدينه لأمرٍ يعرض له فجأةً ، ولكن من العسير أن يقتدي المرء مدَّة حياته كلِّها في جميع أطوارها ، وشعبها ، ومناحيها بهدي شخصٍ وسننه اقتداء كاملاً ، لا يحيد عنه ، ولا يعدل إلى شيءٍ غيره ، أما أصحاب محمد رسول الله ﷺ؛ فإنهم اتبعوه في جميع أخلاقهم ، وأعمالهم ، وسائر نواحي حياتهم وطرقها ، واقتفوا أثره ، وامتحنوا في ذلك امتحاناً شديداً ، وأبلوا فيه بلاءً عظيماً ، ثم خرجوا من هذا الامتحان فائزين. وإنَّ الولع الشديد بالرسول ، والمحبَّة الصادقة له قد حمل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، ثم المحدِّثين ومؤلفي السير والمؤرخين ، على أن يعنوا عنايةً كبرى بجمع كلِّ ما يتعلق بالرسول ﷺ من قولٍ وعملٍ ، وأمرٍ ونهيٍ ، وحديثٍ وخلق ، وأن يُبلغوا ذلك للذين يأتون بعدهم ، فأحسنوا كلَّ الإحسان ووفوا هذه المهمَّة حقها ، ليعمل بهذه الهداية كلُّ مسلمٍ ما استطاع ، ولولا أنَّ حياة محمد ﷺ كانت كاملة وعظيمةً في عيون أصحابه؛ لما اعتبروا اتِّباعه شرفاً لهم وكمالاً ، ولما عدُّوا الاقتداء به ملاكَ السَّعادة ، وأصل الهناء ، وقوام الخير.

فالإسلام قرَّر أنَّ حياة محمد هي المثلُ الكامل لجميع المسلمين ، وينبغي بيان جميع نواحيها ، وشعبها ، ووجوهها للناس كافَّةً ، وقد حقَّق المسلمون ذلك ، وحرصوا على تعرف ذلك وبيانه ، فلمَ تُخْفَ منه خافيةٌ ، ولم تُفْقد ولا حلقةٌ واحدةٌ من سلسلة الحياة النبوية المباركة ، فجميع أحواله وشؤونه مسطورةٌ في كتب التاريخ ، ومن ذلك يستدلُّ على أنَّها كانت حياةً كاملةً ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت واضحةً ناصعةً معلومةً من كل وجوهها ونواحيها ، جامعةً لجميع المحامد ، شاملةً لأكرم الأخلاق وأحسن التعاليم.

سنن الأمم السالفة في الأخلاق بادت ولم يبق إلا سنن الإسلام:

لقد كانت لبلاد بابل، والهند، والصين، ولمصر، والشام، واليونان، والرومان حضاراتٌ زاهرةٌ، ومدنيَّاتٌ عظيمةٌ، وثقافاتٌ عاليةٌ، وقد كانت لأهالي تلك البلاد سنن في الأخلاق اتخذوا منها أصولاً، وضوابط للثقافة، وآداباً للمعاشرة: في النهوض، والقعود، والكلام، والطعام، والشراب، واختاروا مناهج خاصَّةً بمعيشتهم، ووضعوا آداباً لهم في الزِّيِّ والشارة، وأوضاعاً في الملابس، وكان لهم هديٌ في نومهم، ويقظتهم، وحدودٌ في لقاء الناس، والتعامل معهم، وسنُّوا لأنفسهم سنناً في الزواج، ورسموا رسوماً للتهنئة، والتعزية، وتكفين الموتى، ودفنهم، ولم يتركوا حالاً من أحوال الإنسان ـ من عيادة المريض، ومصافحة الإخوان، ولقاء الخلاَّن، والاستحمام ـ إلا اتخذوا لها السنن، والرسوم، والآداب، فنشأت من ذلك أصولٌ وقواعدُ لمدنيتهم، وثقافتهم. وبديهيٌّ أنَّ هذه السنن والآداب لم تتم لهم إلا في قرونٍ متطاولةٍ، ثم درست آثارُها، ومحيتْ رسومُها، وطُمست معالمُها، فكان قيامها واكتمالها في زمانٍ طويل، وزوالها في مدَّةٍ قليلةٍ. أما مدنية الإسلام وثقافته؛ فإن قيامهما، واكتمالهما، وظهور بهائهما في سنوات قليلة، ولا تزال مدنيةُ الإسلام، وثقافته مستمرةً، ومعمولاً بها في الدُّنيا منذ أربعة عشر قرناً بين أمم شتَّى، وأقوام مختلفة، يستوي في ذلك العربيُّ، والهنديُّ، والشرقيُّ، والغربيُّ؛ لأنَّ المسلمين اقتبسوا ذلك من مشكاة نبيهم ﷺ، وتأسَّوا فيه بحياته الكريمة، فاستنارت بهذا النور حياةُ الصحابة، وانعكست أضواؤها على حياة التابعين، ومن جاء بعدهم، فنشأت عن ذلك بيئةٌ صالحةٌ زكيَّةٌ، وكان منها للعالم الإسلامي كلِّه أسوةٌ حسنةٌ في رسومه الفاشية، وآدابه القويمة.

ويمكننا أن نقول بعبارةٍ أخرى: إن الحياة المحمدية كانت مركز الدائرة، فجاء الصحابة، فخطُّوا حول نقطة المركز خطوطاً تمَّت بها تلك الدائرة والتف المسلمون بعد ذلك مِن حولها. وإذا كانت المدنية الإسلامية

لم تبق اليوم في مثل كمالها الأول ، وجمالها الأسنى؛ فإن آثارها لا تبرح باقيةً تلمع ، والمسلمون يقتفون تلك الآثار إلى يومنا هذا. وقد علمنا أنَّ حياة محمد ﷺ كانت في بادىء الأمر قدوةً لجميع الصحابة في حياتهم ، فكانوا يهتدون بهديه ، ويستنُّون بسنَّته ، ثم كان لسائر المسلمين أسوةٌ حسنةٌ بها يتخذونها مثالاً كاملاً لهم ، ولا تنفكُّ صورتُها معروفةً لهم ، باقيةً فيهم. ولو أنَّ قبيلةً من وثنيي الهند ، أو إفريقية تنصَّرت ، ودخلت في دين المسيح عليه السلام فإنَّها تأخذ مسيحيتها من الأناجيل ، أما مدنيتها ، ومنهاج حياتها في مظاهرها ، وأوضاعها؛ فإن تلك القبيلة تأخذه عن مدنية أوربا وثقافتها ومنهاج حياتها ، وليس ذلك من المسيحية في شيء. أمَّا الإسلام فإذا دخل في هدايته قومٌ جددٌ لم يكونوا مسلمين من قبل ، فإنهم كما يقتبسون دينهم مما كان يدعو إليه النبي ﷺ ، فإنَّهم من هديه ومن سنته أيضاً يتعلمون آدابَ المعاشرة ، ومنهاجَ الحياة الاجتماعية ، وطرقَ المعيشة. وإنَّ تعاليم الرسول ﷺ ـ من أدبٍ ، وخُلُقٍ ، ومعاشرةٍ ـ هي التي تؤثر في أخلاق المسلمين ، فتصاغ في هذه البوتقة حتى تسبك بها في أزكى قالب. وقد قال يهوديٌّ مرَّةً لأحد الصحابة وهو يُعرِّض بالإسلام: إنَّ رسولكم يعلمكم كلَّ شيء ، حتى بعض الأمور الحقيرة ، فأجابه الصحابي وهو مغتبط: نعم ، إن رسولنا يعلمنا كل شيء ، حتى آداب الخروج إلى الخلاء.

وكذلك نحن لا نزال نقدِّم للناس تلك السيرة الكاملة التي هي لنا سراجٌ وهَّاجٌ في جميع شؤون الحياة البشرية ، فكأنَّ السيرة المحمَّدية مرآةٌ صافيةٌ للدُّنيا كلِّها يرى فيها كلُّ إنسان صورته وروحه ، ظاهره وباطنه ، قوله وعلمه ، خلقه وأدبه ، هديه وسنته ، وفي استطاعته أن يصلح أخلاقه ، ويثقف عوجه بحسب ما يراه في تلك المرآة الصَّافية.

المسلمون لا يحتاجون من خارج دينهم إلى أصول وضوابط:

لأجل ذلك لا ترى أمَّةً مسلمةً تبحث ـ في خارج دينها وبمنأى عن سيرة نبيِّها ـ عن أصولٍ وضوابطَ تقوِّم بها اعوجاجها ، وتثقف منآدها ، وتصلح زيغها ، لأنها في غنى عمَّا هو أجنبيٌّ عنها ، وعندها في هدي سيرة نبيها ﷺ

الميزان القويم والقسطاس المستقيم ، الذي تتبين به ما في العالم من خيرٍ وشرٍّ ، وتميِّز به الحقَّ من الباطل. وفي الحق إنَّ العالم كله لفي حاجةٍ شديدةٍ إلى سيرة بشرٍ كاملٍ تتَّخذُ من حياته الأسوةَ العظمى ، وليس في الدُّنيا إنسانٌ كاملٌ يعرف التاريخ سيرته على التفصيل كما يعرف تفاصيل حياة محمَّدٍ ﷺ خاتم النبيين. فالناس كلُّهم في أمسِّ الحاجة إلى أن يتخذوا من السيرة المحمدية منهاجَ حياتهم ، ففيها الأسوةُ الطَّاهرة ، وهي الحياة المثاليَّة للناس جميعاً ﷺ.

* * *




المحاضرةُ الخامسة

السِّيرةُ المُحمَّدِيَّــةُ من ناحيتها الجامعة




الأديـان الأخرى تتحـرى أقوال أنبيائهـا والمسلمون يتحرَّون أعمـال نبيِّـهم:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

سادتي! إنَّ جميع الأديان والنِّحَل حثَّت الناس على اتِّباع أصحاب هذه الأديان، وأن يقتفوا آثـارهم، ويعملوا بأقوال أنبيائهم، لينالوا بذلـك رضاء الله ومحبته.

أمَّا الإسلام فقد اختار طريقاً آخر خيراً من ذلك، وهو أنه قدَّم للناس أعمال نبيه، وعرض عليهم التأسِّي به في سيرته كاملةً ليس فيها خرم، وجعل اتباعُهم لتلك السيرة وتأسيهم بصاحبها وسيلةً لهم في الحصول على رضاء الله ومحبته؛ لأجل ذلك ترى في الإسلام مرجعين: كتاب الله، وسنة نبيه. فأحكامه تعالى قد جاءتنا في كتابه، وهو القرآن الحكيم، وفي سنة نبيه ﷺ. والسنة في اللغة: الطريقة[1]. والمراد بها في اصطلاح الشريعة الإسلامية: الطريقة التي اختارها الرسول وسلكها عاملاً بأحكام الله. فمعنى السنة إذاً: الأسوةُ النبوية، وسيرة الرسول الطاهرة التي أثرت عنه، وبلغتنا كاملةً في كتب الحديث الصحيحة. والمسلم لا ينجح في دينه، ولا يكمل في إسلامه إلا باتباع السنَّة النبوية وحدها.

وليس من الممكن أن يكون جميع الداخلين في دينٍ من الأديان من طائفةٍ بشريَّةٍ واحدةٍ، أو أن يكونوا من شعبٍ إنسانيٍّ واحد، لأنَّ الدُّنيا قد قام بنيانها على التنوع في الأعمال والاختلاف في الأفعال، ولولا أنَّ الناس مختلفون في مهنهم، ومكاسبهم، وأشغالهم، ومعايشهم، وهم يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً؛ لخربت الدنيا. ولا بدَّ للعالم من ملكٍ، أو رئيس جمهورية، أو والٍ يتولَّى أمورَهم العامَّة، وحاكم يحكم بينهم فيما

---

(١) والسنة في اصطلاح المحدِّثين: ما أثر عن النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفةٍ خلقية أو خلقيةٍ أو سيرةٍ، سواء أكان قبل البعثة أم بعدها. (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للدكتور مصطفى السباعي، ص ٥٩).

يختلفون فيه ، وكذلك لا تخلو الدنيا من رعيةٍ يرعى أمورَهم رئيسٌ ، ومن محكومين يحكم فيهم حاكمٌ ، ومن خصوم يقضي بينهم قاضٍ بالعدل ، ليسود الأمان ، ويستتب السَّلام. وكذلك الأمم تحتاج إلى أن يكون لها جنودٌ يدافعون عن كيانها ، وأن يكون على الجنود ضباطٌ وقادةٌ. وتجد فيهم الفقراء الذين يعانون الشدَّة والبؤس كما تجد فيهم الأغنياء من أهل التَّرف والسَّرف. وفيهم عبادٌ لله يقومون بطاعته في جوف الليل ، وزهادٌ تحرروا من متع الدُّنيا ، وزخارفها ، ومجاهدون في سبيل الله يقارعون الباطل ، ويقيمون الحقَّ في الأرض ، وكذلك ترى في الدنيا العائلين الذين يكدحون لمن يعولونهم ، وترى فيها لفيفَ الأصدقاء المتحابِّين ، وطوائف التُّجار والمحترفين ، وأصحاب المصانع والمعامل. وهكذا الدُّنيا لا تخلو من قادة الأمم ، وساسة الشعوب ، وزعماء الأحزاب. وعلى شتَّى الطوائف ومختلف الفرق قام نظام هذه الدنيا ، وكلٌّ منهم يحتاج في عمله إلى حياةٍ مثاليَّةٍ وأسوةٍ كاملة يقتدي بها؛ ليكون سعيداً في الحياة. والإسلام دعا جميع هذه الفرق ، والطوائف ، والأحزاب لأن يتَّبعوا سنَّة محمدٍ ﷺ ، ويقتفوا آثاره ، ويسلكوا طريقه. وَمَنْ تتبَّع ذلك يتبين له أنَّ السنَّة المحمدية تكفي جميع شعوب البشر ، وطوائفهم ، وفرقهم إذا اتخذوا منها الأسوة والقدوة ، ففيها النور الذي يستضاء به في ظلمات الحياة الاجتماعية ، وكم مِنْ ظلمةٍ حالكةٍ في الحياة! ومن هنا تعلم أن سيرة محمد رسول الله ﷺ جامعةٌ ، تجد فيها كلُّ طائفةٍ من طوائف البشر المثل الأعلى الذي تقتدي به ، والأسوة التي تأتسي بها. ومن الظاهر الواضح أنَّ حياة المحكوم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة الحاكم ، كما أن حياة الحاكم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة المحكوم. وكذلك الفقير المعدم لا يتسنى له أن يسير في معيشته على ضوء من حياة الغني المثري. ومن ثم مَسَّتِ الحاجة إلى أن تكون الحياة المحمدية جامعةً يجد فيها الناس كلُّهم على اختلاف طوائفهم الأسوة الكاملة في جميع ألوان الحياة وأطوارها. وإنَّ مثلها كمثل الباقة الجامعة لكل أصناف الزهور والورود بجميع ألوانها: ففيها الأحمر القاني ، والأبيض النَّاصع ، والأخضر النَّاضر ، والأصفر الفاقع.

وفي البشر طوائفُ مختلفةٌ ، وفرقٌ شتَّى ، تحتاج كلُّها إلى حياةٍ مثاليةٍ تكون نموذجاً لها في حياتها ومعيشتها. و لكلِّ إنسانٍ من هذه الطوائف أعمالٌ وأحوالٌ تتقلب عليه بتقلب الظروف: بين قيامٍ ، وقعودٍ ، ومشيٍ ، وأكلٍ ، وشربٍ ، ونومٍ ، ويقظةٍ ، وضحكٍ ، وبكاءٍ ، وارتداء الملابس ، وخلعها ، وأخذٍ ، وعطاءٍ ، وتعلُّمٍ ، وتعليمٍ ، وقد يموت حتف أنفه ، أو يقتل ، ويكون محسناً لغيره ، أو محتاجاً لإحسان الآخرين إليه ، وقد يكون في عبادة ربه ، أو في معاملة الناس ، ومعاشرتهم ، وقد ينزل على غيره ضيفاً ، أو يستقبل الضيف ويقوم له بحقِّ القِرى. هذه الأحوال وغيرُها تطرأ على الإنسان ، وتعرض له فيما يتعلَّق بجسمه ، وجوارحه ، فيحتاج في كلِّ حالٍ منها إلى هدايةٍ نافعةٍ ، وأسوةٍ كاملةٍ.

وأعظم من الأسوة في أعمال الإنسان الظاهرة ، الأسوة فيما يتعلق بخطرات القلوب ، ومجالات الفكر ، ونزعات العواطف ، فنحن نشعر بين كلِّ حينٍ وآخر بنزعاتٍ ، وعواطف ، تخالج قلوبنا وأفكارنا ، فنرضى ونسخط، ونفرح ونحزن، وتعترينا السكينة والطمأنينة ، أو القلق والضجر. وتترتب على هذه الأحوال عواطفُ مختلفةٌ ، ونوازع متعدِّدةٌ. وليس الخُلُقُ الحسنُ إلا التعديل بين هذه الأحوال ، وإقامة الوزن بالقسط بين العواطف القوية والنوازع الثائرة ، ولا يحظ بنصيبه من مكارم الأخلاق إلا الذي يعرف كيف يكبح النفس عند جموحها ، ويُحْسِنُ التصرُّف فيها وقت ثورتها ، ومع ذلك فلا بدَّ للإنسان من إمامٍ تكون له فيه الأسوة التامة في هذه الأمور ، فيأتمُّ به في قهر هذه القوى الثّائرة ، والعواطف المتوثبة إلى أن تسكن ثورة نفسه ، ويسلكَ في ذلك مسلك قدوته الأعظم ، وهو النبي ﷺ؛ الذي يحمل بين جنبيه قلباً زكياً ، ونفساً طاهرةً ، وروحاً عالية نزيهة.

حيـاة محمد ﷺ جمعت ما تفرق في الأنبيـاء مما امتازوا بـه:

وهكذا المرء في كلِّ خَلَّةٍ من خلال العزيمة ، والشجاعة ، والشكر ، والتوكل ، والرِّضا بالقدر ، والصبر على النوائب ، والتضحية ، والقناعة ، والاستغناء ، والإيثار ، والجود ، والتواضع ، والمسكنة ، وسائر ما يطرأ

على البشر في منفسح حياتهم ، ومدى عيشهم ، وما ربما يعتري هذه الخصال في ساعاتٍ مختلفة من مضطرب حياة الإنسان؛ فإنه يحتاج في كل ذلك إلى أسوةٍ ، وهدايةٍ مِمَّن سبق له العمل بذلك ، وأنَّى لنا هذه الأسوة الكاملة والهداية التامة إلا في حياة محمَّدٍ رسول الله ﷺ.

إنَّ حياة موسى عليه السلام تمثِّل لنا القوة البشرية العظيمة ، والبطش الشديد ، ولكنَّنا لا نعرف في المأثور عنه ما تكون لنا فيه الأسوة من ناحية دماثة الخلق ، وخفض الجناح ، وسجاحة النفس ، وسماحتها.

وفيما نعرفه من حياة المسيح نماذج لسماحة النفس ، ورقَّةِ الطبع ، ودماثة الخلق ، ولين الجانب ، لكننا لا نجد فيما وصل إلينا من أخلاقه وأعماله تفاصيل عن شؤون حياته ، وأسرته ، تُحرِّكُ ساكن القوى ، وتثير كوامن النفس ، وتنبه القوى المتراخية. والإنسان في حياته محتاجٌ إلى هذا وهذا ، فكما يحتاج إلى ما يهدىء ثائر قواه ، ويسكن جائشها ، يحتاج كذلك إلى ما يثير الكامن من هذه القوى ، ويهيج ساكنها ، وينبه المتراخي منها. إنَّه في حاجةٍ إلى حياةٍ يتَّخذها قدوةً له في هاتين الحالتين المختلفتين ، على أن يكون بيد صاحبها ميزانُ العدل بالقِسْطِ تستوي كِفَّتاه ، ولن تجدَ الجمع بين هاتين الخصلتين المختلفتين جمعاً قوياً عزيز الوجود إلا في حياة محمَّدٍ ﷺ ، فإنه هو الذي مثلت حياته أعمالاً كثيرةً متنوعةً ، بحيث تكون فيها الأسوة الصَّالحة ، والمنهج الأعلى للحياة الإنسانيَّة في جميع أطوارها؛ لأنها جمعت بين الأخلاق العالية ، والعادات الحسنة ، والعواطف النبيلة المعتدلة ، والنوازع العظيمة القويمة.

إذا كنت غنيّاً مثرياً؛ فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجراً يسير بسلعه بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين. وإن كنت فقيراً مُعْدَماً؛ فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شِعب أبي طالب ، وحين قدم إلى المدينة مهاجراً إليها من وطنه ، وهو لا يحمل من حُطام الدُّنيا شيئاً. وإن كنت ملكاً؛ فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب ، وغلب على آفاقهم ، ودان لطاعته عظماؤهم ، وذوو أحلامهم. وإن كنت رَعِيَّة ضعيفاً؛

فلك في رسول الله أسوةٌ حسنة أيام كان محكوماً بمكة في نظام المشركين. وإن كنت فاتحاً غالباً؛ فلك من حياته نصيبٌ أيام ظفره بعدوِّه في بدر، وحنين، ومكة. وإن كنت منهزماً ـ لاقدر الله ذلك ـ فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى، ورفقائه المثخنين بالجراح. وإن كنت معلِّماً؛ فانظر إليه وهو يعلِّم أصحابه في صفَّة المسجد. وإن كنت تلميذاً متعلِّماً؛ فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثياً مسترشداً. وإن كنت واعظاً ناصحاً ومرشداً أميناً؛ فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النَّبوي. وإن أردت أن تقيمَ الحقَّ، وتصدعَ بالمعروف، وأنت لا ناصر لك، ولا معين؛ فانظر إليه وهو ضعيفٌ بمكَّة، لا ناصر ينصره، ولا معين يعينه، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحقِّ، ويعلن به. وإن هزمت عدوَّك وَخَضَدْتَ شوكته، وقهرت عِناده، فظهر الحقُّ على يدكَ، وَزَهَقَ الباطلُ، واستتب لك الأمر؛ فانظر إلى النبيِّ ﷺ يوم دخل مكة، وفتحها. وإن أردت أن تصلح أمورك، وتَقومَ على ضياعك؛ فانظر إليه ﷺ وقد ملك ضياع بني النضير، وخيبر، وفدَك؛ كيف دبَّر أمورها، وأصلح شؤونها، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها. وإنْ كنت يتيماً؛ فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله وقد توفيا وابنهما صغيرٌ رضيعٌ. وإن كنت صغير السنِّ؛ فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية. وإن كنت شاباً؛ فاقرأ سير راعي مكَّة. وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع؛ فلاحظ شؤون سيد القافلة التي قصدت بصرى. وإن كنت قاضياً، أو حكماً؛ فانظر إلى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون، ثم ارجع البصر إليه مرَّةً أخرى، وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل، يستوي عنده منهم الفقير المعدم، والغنيُّ المثري. وإن كنت زوجاً؛ فاقرأ السيرة الطاهرة، والحياة النزيهة لزوج خديجة، وعائشة. وإن كنت أبا أولاد؛ فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء، وجدُّ الحسن والحسين. وأياً من كنت، وفي أيِّ شأنٍ كان شأنك، فإنَّك مهما أصبحت، أو أمسيت، وعلى أيِّ حال بتَّ، أو أضحيت؛ فلك في حياة محمَّدٍ ﷺ هدايةً حسنةً وقدوةً

صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي لك بضوئها ظلامُ العيش ، فتصلح ما اضطرب من أمورك ، وتثقف بهديه أَوَدَك ، وتقوِّم بسنته عوجك. وإنَّ السيرة الطيبة الجامعة لشتَّى الأمور هي ملاك الأخلاق ، وجماع التعاليم لشعوب الأرض ، وللناس كافَّةً في أطوار الحياة كلِّها ، وأحوال الناس على اختلافها ، وتنوُّعها. فالسيرة المحمدية نورٌ للمستنير ، وهديُها نبراسٌ للمستهدي ، وإرشادها ملجأٌ لكلِّ مسترشد.

انتباه أحد البراهمة لهذه الناحية من الحياة المحمَّديَّة :

كان الواعظ الذائع الصيت الأستاذ حسن علي[1] ـ رحمه الله ـ يصدر في (بتنه) قبل خمسين عاماً مجلة (نور الإسلام) وقد قال في جزءٍ منها: إن صديقاً له من البراهمة قال له: إني أرى رسول الإسلام أعظمَ رجالِ العالم ، وأكملهم. فقال له الأستاذ حسن علي: وما هي منزلة المسيح عيسى ابن مريم عندك من رسول الإسلام؟ فأجابه: إنَّ المسيح ابن مريم عندي في جانب محمَّدٍ ﷺ كمثل ولدٍ صغير يتكلم بكلام عذب ، ويتحدَّث حديثاً حلواً عند أعقل أهل زمانه ، وأكثرهم حَزماً. ثم سأله حسن علي: وبماذا كان رسول الإسلام عندك أكمل رجال العالم؟ فأجاب: لأني أجد في رسول الإسلام خلالاً مختلفةً ، وأخلاقاً جمَّةً ، وخصالاً كثيرةً لم أرها اجتمعت في تاريخ العالم لإنسانٍ واحدٍ في آنٍ واحد: فقد كان ملكاً دانت له أوطانه كلُّها ، يصرِّف الأمر فيها كما يشاء ، وهو مع ذلك متواضعٌ في نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئاً ، وأن الأمر كلَّه بيد ربه. وتراه في غنىً عظيمٍ تأتيه الإبل موقرةً بالخزائن إلى عاصمته ، ويبقى مع ذلك محتاجاً ، ولا توقد في بيته نار لطعام في الأيام الطوال ، وكثيراً ما يطوي على الجوع. ونراه قائداً عظيماً يقود الجند القليل العدد الضعيف العُدد ، فيقاتل بهم ألوفاً من الجند المدجَّج بالأسلحة الكاملة ، ثم يهزمهم شرَّ هزيمة. ونجده محبَّاً للسلام ، مؤثراً للصلح ، ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلبٍ مطمئنٍ ، وجأشٍ هادىء ، ومعه ألوفٌ من أصحابه كلٌّ منهم شجاعٌ باسلٌ ، وصاحب حماسةٍ

---

(١) أحد كبار الكتاب والوعاظ في الهند في مطلع القرن العشرين ، توفي سنة ١٩٢١ م.

وحميَّةٍ تملأ جوانحه ، ونشاهده بطلاً شجاعاً ، يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بكثرتهم ، وهو مع ذلك رقيقُ القلب ، رحيمٌ رؤوفٌ ، متعففٌ عن سفك قطرة دم. وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلِّها ، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته ، وأزواجه ، وأولاده ، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم ، ويهتمُّ بأمر الناس الذين نسوا خالقهم ، وصدُّوا عنه ، فيحرص على إصلاحهم. وبالجملة: إنَّه إنسانٌ يهمه أمرُ العالم كله ، وهو مع ذلك متبتلٌ إلى الله ، منقطعٌ عن الدُّنيا ، فهو في الدُّنيا وليس فيها ، لأنَّ قلبه لا يتعلَّق إلا بالله ، وبما يرضي الله. لم ينتقم من أحدٍ قطُّ لذات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير ، ويريد لهم الخير ، لكنَّه لا يعفو عن أعداء الله ، ولا يتركهم ، ولا يزال ينذر الذين قد صدُّوا عن سبيل الله ، ويوعدهم عذاب جهنم. تراه زاهداً في الدُّنيا ، عابداً ، يقوم الليل لذكر الله ومناجاته. كما تتصور من شمائله: أنَّه الجنديُّ الباسل المقاتل بالسَّيف. وتراه رسولاً حصيفاً ، ونبياً معصوماً في الساعة التي تتصوره فيها فاتحاً للبلاد ، ظافراً بالأمم. وإنَّه ليضطجع على حصيرٍ له من خوصٍ ، ويتكىء على وسادة حشوها من ليفٍ حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب ، ونناديه به ملكاً على بلاد العرب. ويكون أهل بيته في فاقةٍ وشدَّةٍ عقب استقباله الأموال العظيمة آتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية ، فتكون في فناء مسجده أكواماً ، وتأتيه بنته وفلذة كبده فاطمة تشكو إليه ما تكابده من حمل القربة والطَّحن بالرَّحى حتى مَجَلَتْ يداها ، وأثَّرت القربة في جسمها ، والرسول يومئذٍ يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها ، فلا تنال بنته من ذلك إلا دعاءه لها بكلمات يعلِّمها كيف تدعو بها ربَّها. وجاءه ذات يوم صاحبُه عمر ، فأجالَ بصره في الحُجْرَة فلم يجد إلا حصيراً من خوصٍ قد اضطجع الرسول عليه ، وأثر في جنبه ، وكل ما في البيت صاعٌ من شعيرٍ في وعاء ، وعلى مقربة منه شنٌّ معلَّقٌ على وَتِدٍ. هذا كل ما كان يملك رسول الله يوم دان له نصف العرب. فلما رأى عمر ذلك لم يتمالك نفسه من دموعٍ تذرفُها عيناه ، فسأله رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟! فقال: ومالِيَ لا أبكي ، إنَّ قيصر ، وكسرى يتمتعان بالدُّنيا ،

وينعمان بنعيمها ، وإنَّ رسول الله ﷺ لا يملك إلا ما أرى! فقال له الرسول سلام الله عليه: أما ترضى يا عمر أن يكون ذلك نصيب كسرى وقيصر من نعيم الدُّنيا ، وتكون لنا الآخرة خالصةً من دون الناس؟!

وعندما أحدق النبيُّ ﷺ بجيوشه ليفتح مكة قام أبو سفيان إلى جانب العباس عمِّ النبيِّ ﷺ ينظران إلى المجاهدين من المسلمين تتقدَّمهم الأعلام الكثيرة ، وكان أبو سفيان لا يزال على ما كان عليه من المخالفة للإسلام ، فراعه ما رأى من كثرة جموع المسلمين ومن انضوى إليهم من القبائل المسلمة ، وأنَّهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف لا يصدُّه صادٌّ ولا يمنعه شيء ، فقال لصاحبه: يا عباس! إنَّ ابن أخيك أصبح ملكاً عظيماً. فأجابه العباس وهو يرى غير الذي يراه أبو سفيان: ليس هذا من الملك في شيءٍ يا أبا سفيان ، هذه نبوَّةٌ ورسالة.

وعدي الطَّائي[1] ، كان سيد طيىء ، وحضر مجلس الرسول ﷺ ذات يوم وهو لا يزال على المسيحية ، فشاهد إعظام الصَّحابة للرسول ، وعليهم عدَّةُ الجهاد من الأسلحة واللأمة للدِّفاع ، فاشتبه عليه أمر النبوة بأمر السُّلطان ، وتساءل في نفسه: أهذا ملكٌ من الملوك ، أم رسول من رسل الله؟ وفيما هو كذلك جاءت إلى النبي ﷺ امرأةٌ فقيرةٌ من إماء المدينة ، وقالت له: أريد يا رسول الله! أن أسرَّ إليك شيئاً. فقال لها: انظري في أي سكك المدينة شئت أخلُ لك. ثم نهض معها ، وقضى لها حاجتها. فلما رأى ابن حاتم الطائي هذا التواضع العظيم من الرسول العظيم ، وهو بين أصحابه في مثل عظمة الملك ، انجلى عنه ظلام الباطل ، وتبيَّن له الحقُّ واضحاً ، وأيقن أنَّ هذا الأمر من رسالات الله ، فعمد إلى صليبه ، فنزعه عنه ، ودخل مع أصحاب رسول الله ﷺ في نور الإسلام.

---

(١) هو عدي بن حاتم بن عبد الله الطائي ، أبوه الذائع الصيت الَّذي تضرب به الأمثال في الجود والسخاء ، وكان عدي نصرانياً فأسلم سنة تسع ، وقد ثبت على الإسلام كما ثبَّت قبيلته عليه زمن الردَّة ، وجاء بصدقة قومه إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ، شهد فتوح العراق ، ثم نزل الكوفة ، وتوفي بها سنة ٦٨ هـ ، وله ستة وستون حديثاً مروياً.

وفي الجملة: إنَّ كلَّ ما ذكرتُه آنفاً ليس من الإطراء في الثناء ولا من المبالغة في المدح، بل هو من حقائق الواقع التي سجَّلها التاريخ بأصحِّ ما استطاع أن يسجِّل به حقائقه. ومما لا ريب فيه أنه لا يستحق إنسانٌ أن يكون قدوةً للعالم في جميع مناهج الحياة إلا إذا اجتمعت فيه الخلال الشريفة كلُّها، والخصال الإنسانية الكاملةُ بأجمعها ممَّا يحتاجُ إليه الناس في معايشهم، فتكون لهم في سيرته أمثلةٌ كثيرةٌ، وفي هديه أمورٌ متنوعةٌ، تستنير بها كلُّ طائفةٍ من طوائف الناس، وكلُّ فرقةٍ في كلِّ أمَّةٍ من أممهم، فيتخذون في أنفسهم سنناً، وآداباً، ومناهج من حياته الشريفة لحياتهم الاجتماعية والعائلية، وبذلك يكون الشخص العظيم المقتدى به هادياً للناس بأعماله، وأخلاقه، وخصاله عندما يكون في حالات الغضب، أو الرحمة، أو الجود، أو الفاقة، أو الشجاعة، أو رقَّة القلب، فيهتدون به في هذه الأحوال بدنياهم كما يهتدون به بصحة الاعتقاد وسلامة العبادة لآخرتهم. فهو يجمع إلى إسعاد الناس في آخرتهم إسعادهم في حياتهم الدُّنيا وأحداثها اليومية، فييسر لهم خلافة الله على الأرض كما يدلُّهم على مقام الكرامة في ملكوت السَّماء. وهو مع ذلك يسنُّ لهم السُّنَنَ، ويشرِّع لهم الأحكام لينظموا حياتهم في الأرض والسماء. وإن العفو، والمسامحة، واللين، وخفض الجناح للآخرين من قوام الحياة الإنسانية، ولا يسعد الإنسان إلا بلين القول، والعفو عن الناس، وخفض الجناح لهم، ومن كان نصيبه وافراً من هذه الخصال كان المعلم العظيم، والمحسن الكبير، وإني أسائلكم فأجيبوني: هل هذه الخصال وحدها هي التي تكون في الإنسان، أم تكون في أضدادها أيضاً؟ أليس في خصال الإنسان الغضب بجانب ما فيه من رحمة، والعداوة بجانب الصداقة والخِلَّة، والطَّمعُ مع القناعة، والشَّرَه مع العفَّة. أليس ينزع إلى الثأر كما يميل إلى العفو، أليس هذا كله مما تقتضيه جبلّة الإنسان وغريزته؟ إنَّ المعلم الكامل هو الذين يستطيع أن يعتدل بين هذه الأحوال والخصال المتضادَّة، ويقيم الميزان في هذه النزعات والعواطف حتى يكسر سورتها، ويخفف من شدَّتها، ويكون عادلاً معتدلاً، فتكون له من سجاياه الطيبة مطيةٌ كريمةٌ تبلغ به الغاية

القصوى من الحقِّ. أما الذين يزعمون أنَّ ملاك أديانهم ، وقَوام نِحَلِهم العفوُ واللينُ فحسب ، وليس في سيرة رسلهم إلا المسامحة وخَفض الجناح ، فأنبئوني ـ بفضلكم ـ كم يوماً عمِل أتباعُهم بهذه السيرة في مجتمعهم ، وإلى متى استمرُّوا على هذا الهدي في حياتهم الاجتماعية بين زمن قسطنطين أول الملوك المسيحيين إلى يومنا هذا ، وأيُّ ملكٍ مسيحي عمل في دولته بسيرة نبيه؟

لقد قامت للأمَّة المسيحية دولٌ كثيرةٌ في بقاع الأرض ، فخبروني أيَّ دولةٍ مسيحية سنَّت لرعيتها قوانين تلائم سيرة رسولها من العفو عن الجناة ، واللين لمن أغلظ ، وخفض الجناح لمن اشتدَّ؟ وإذا لم تكن في سيرة رسولٍ من رسل الله أسوةٌ لأتباع ذلك الرَّسول أنفسِهم ؛ فكيف يكون حالها؟!

ما أعطى الله الرسل جميعاً متفرقين قد أوتيه محمد ﷺ وحده :

وإذا رجعت إلى حياة نوح ترى الغيظ ، والحنق على الكفر وأهله ، وعلى الشرك ومن يدين به. وترى في حياة إبراهيم جهاداً في تحطيم الأصنام ، وإبطال عبادة الأوثان. وفي حياة موسى قتالاً للمشركين بالله ، وقد سنَّ للمؤمنين به سنناً اجتماعيةً ، وقوانين ملكيةً. وترى المسيح عيسى ابن مريم يعفو ، ويصفح ، ويلين للناس ، ويخفض لهم جناحه ، فتمتلىء نفسك إعجاباً بعفوه وعفته. وأما سليمان عليه السلام فيعجبك بجلالته ، وسلطانه ، وأبهة ملكه. وتمثل لك حياةُ أيوب معانيَ الصَّبر على المكاره ، وشكرَ الله على الرغائب. ويملؤك يونس إعجاباً بإنابته إلى الله ، وندمه على ما فرط منه. ويوسف عليه السلام يهديك كيف يقوم الإنسان بدعوة الحقِّ وهو أسيرٌ عانٍ ، وكيف يصون نفسه ، ويستمسك بعفافه حين تراوده امرأةٌ ذات جمالٍ ، وجلالٍ ، ومالٍ ، وعظمةٍ. وفي حياة داود درسُ عَظَمةٍ ، وصحيفةُ عِبرةٍ ؛ إذ يبكي من خشية الله ، ويحمده ، ويدعوه متضرعاً إليه. وفي سيرة يعقوب أسوةٌ للمرء فيما يرجوه من رحمة الله ، والثقة به ، والتوكل عليه عندما تظلم الدنيا في عينيه. أما سيرة محمد ﷺ فإنَّها تجمع ذلك كلَّه ، وتشتمل على جميع هذه الخصال ، وتعمُّ الأخلاق الكريمة

بحذافيرها وما تفرّق منها في سيرة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وسليمان ، وداود ، وأيوب ، ويونس ، ويوسف ، ويعقوب عليهم الصلاة والسلام ، فكأنَّ السيرة المحمدية بحرٌ لجيٌّ تنصبُّ فيه جميع الأنهار ، وتتصل به كل البحار من سير الأنبياء والرسل ، وهديهم ، وسننهم.

روى الخطيب البغدادي[1] في تاريخه بإسنادٍ ليِّنٍ: أن نداءً سُمع عند مولد النبيِّ ﷺ أنْ طوفوا بمحمد جميع البلاد ، واغطِسوه في قعر البحار ليعرف العالم كلَّه ، ثم اذهبوا به إلى جميع الإنس ، والطير ، والحيوان ، وأعطوه من خلق آدم ، ومعرفة شيث ، وشجاعة نوح ، وخِلَّة إبراهيم ، ولسان إسماعيل ، ورضا إسحاق ، وبلاغة صالح ، وحكمة لوط ، وشدَّة موسى ، وصبر أيوب ، وطاعة يونس ، وجهاد يوشع ، ولحن داود ، وحب دانيال ، ووقار إلياس ، وعفَّة يحيىٰ وزهد عيسى ، واغمسوه في بحر أخلاق الرُّسل كلِّهم.

والعلماء الذين رووا هذه الرواية في كتبهم أرادوا بها أن يعربوا عن حقيقة سيرة الرسول ، وأنَّها كاملةٌ جامعةٌ ، وأنَّ ما أُعطي الرسلُ جميعاً متفرقين قد أوتيه محمد ﷺ وحده ، وأن ما تفرَّق من مكارم الأخلاق في الرُّسل قد اجتمع فيه ﷺ.

مقارنات بين النبي ﷺ وإخوانه الأنبياء:

تأمَّلوا سيرة محمَّدٍ ﷺ؛ تجدوا فيها كلَّ ما كانت به حياته المثالية كاملةً. أليس الرسول المكيُّ الذي خرج من بلده مهاجراً إلى يثرب يشبه الرسول الإسرائيليَّ الذي خرج من مصر يريد مدين؟ أليس الذي انزوى في غار حراء يعبُد ربه كالذي قصد جبل سيناء ليناجي ربَّه؟ إن هذا يشبه ذلك مع فارقٍ بينهما ، وهو أنَّ عيني محمد كانتا مفتوحتين وعيني موسى كانتا مغمضتين ،

---

(١) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، المعروف بالخطيب ، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين ، كان فصيح اللهجة ، ولوعاً بالمطالعة والتأليف ، توفي سنة ٤٦٣ هـ ، ومن أشهر كتبه «تاريخ بغداد» و«الكفاية في علم الرواية».

وأنَّ رسولَ الإسلام كان ينظر في داخله ، ورسولَ بني إسرائيل كان ينظر إلى خارجه .

إنَّ عيسى عليه السلام في ذهابه إلى جبل الزيتون ليلقي عظته يشابه محمداً ﷺ وقد ارتقى جبل الصفا لينادي معاشر قريش . والذي قاتل مشركي بلاد العرب في بدر ، وحنين ، ويوم الأحزاب ، وتبوك يشبه موسى الذي قاتل المؤابيين ، والعموريين ، والآموريين .

وإنَّ الرسول محمداً ﷺ دعا على سبعة رجالٍ من أعيان مكة فهلكوا ، وموسى دعا على فرعون ومن التف حوله حين رأوا بأعينهم آيةً بينةً من الله مرَّةً بعد أخرى ، لكنَّهم لجُّوا في عتوٍّ ونفور؛ ولم يؤمنوا به ، فهلكوا مغرقين في البحر الأحمر ، فتشابهت سنة الرسول محمد وسنةُ الرَّسول موسى عليهما الصَّلاة والسلام .

إنَّ محمداً نبيَّ الله دعا بالخير لمن أراد قتله من المشركين يوم أحد ، وإنَّ عيسى عليه السلام لم يدع على أحدٍ ومازال يبغي الخير لأعدائه ، أليس هدي محمد رسول الله ﷺ يشابه من هذه الناحية هدي عيسى رسول الله ﷺ؟ وإنَّ محمداً رسول الله ﷺ حين تراه في فناء المسجد يقضي بين الناس بالحقِّ ويحكم بالعدل ، أو في ساحات الحرب يقاتلُ الكفار والمشركين ، فكأنك ترى موسى رسول الله وهو يجاهد أعداءه ، ويقاتل الذين يعبدون الأوثان . وحين ترى محمداً رسول الله يعبد ربَّه ، ويتضرَّع إليه في خلوة عن الناس ، إمَّا في حجرةٍ منفردةٍ ، أو في مغارةِ الجبل ، وقد أرخى الليل سدوله ، فكأنك ترى عيسى وقد خلا بنفسه يوحِّد الله ، ويناجيه بالعبودية له .

ولو رأيت نبي الإسلام وهو يذكر الله دائماً ، ويحمده ، ويسبِّحه في البكور والآصال وفي كلِّ حال ـ فإذا بدأ بالأكل بدأه باسم الله ، وإذا فرغ منه حمد الله ، وإذا جلس مع أحد كان التذكير بالله من عمله في ذلك المجلس ، وإذا نام نام وهو يذكر ربه ، ويستعرض آلاءه عليه ـ فكأنك برؤية نبيِّ الإسلام قد رأيت النبيَّ صاحب الزبور في ترتيله محامد الله ونعمه . وكأنك ترى سليمان في جنوده وعليه جلال الملك ، وأبهة السلطان حينما ترى

محمداً بين أصحابه ، وقد فتح مكة ، ودخلها تحت رايات المجاهدين بأيديهم السيوف مصلتةً لإقامة الحقِّ ، والعوالي السمر مشرعةً لتقويض دعائم الباطل . أما إذا رأيته وهو محصور مع ذويه في شعب أبي طالب ، وقد مُنع دخولُ الطعام والشَّراب إليه من الخارج ، فكأنك ترى يوسف الصديق وهو في سجن مصر يعاني شدائد الظالمين ، ويكابدها .

إنَّ موسى قد جاء بالأحكام، وداود امتاز بدعاء الله ، والتغني بمناجاته ، وعيسى بعث ليعلم الناس مكارمَ الأخلاق ، والزهد في الدنيا ، وأما محمد رسول الله ﷺ فقد جاء بكل ذلك بالأحكام ، ودعاء الله ، والتوجيه إلى مكارم الأخلاق ، والحضِّ على الزهد في الدنيا وزينتها ، وكلُّ هذا تجده في القرآن الحكيم لفظاً ومعنىً ، وفي السيرة المحمدية قدوةً وعملاً .

سادتي! وأحبُّ أن ألفت أنظاركم إلى ناحيةٍ أخرى من نواحي السيرة المحمدية تدلُّ على جامعيتها :

إنَّ في الدُّنيا نوعين من المدارس: نوعٌ يختص بفرعٍ واحدٍ من فروع المعرفة ، كالطبِّ ، أو الهندسة ، أو التجارة ، أو الصِّناعة ، أو الفنون الحربية ، أو الزراعة ، أو الحقوق ، أو اللغة والآداب . ونوعٌ يجمع هذه المعاهد العلمية كلها ، فمن قصده استطاع أن ينتسب إلى أيِّ فرعٍ شاء من فروع المعارف الإنسانية . وهذا النوع الثاني هو الذي تهرع إليهِ طوائف الطلبة من جميع البلاد ، فيجد فيه كلٌّ منهم ما تميل نفسه إلى التخصص فيه من العلوم ، وبهذا سمِّيت مجموعة هذه المعاهد باسم (الجامعة) ، ومنها يتخرَّج قضاة المحاكم ، والأطباء ، والمهندسون ، وقادة الجند ، والناهضون بعلوم الزراعة ، أو الصناعة ، أو التجارة ، والمتخصصون بالآداب وعلومها ، والثقافة العليا وفنونها .

ومن البيِّن الواضح للمتأملين أنَّ المجتمع الإنساني لا يتمُّ كماله ، ولا تسعد حياته بضربٍ واحدٍ من العلوم ، ولا بصنفٍ خاصٍّ من أهل الحرف والصناعات ، بل يحتاج إلى مجموع ذلك كلِّه . وإذا استقصينا ما يعرفه التاريخ من سير الأنبياء، ولاحظنا ما خلفوه من ثمرات أشجارهم ،

عملاً بقول المسيح: «من ثمارهم تعرفونهم» ، فإننا نجد لهؤلاء المعلمين الربّانيين ، والأنبياء والمرسلين تلاميذ ومهتدين ، فالواحد منهم يكون له عشرةُ تلاميذ ، وآخر منهم يكون له عشرون تلميذاً ، ونرى لبعضهم ستين ، أو سبعين ، ومئةً أو مئتين ، وألفاً أو ألفين ، ونادراً ما يكون لأحد الأنبياء من التلاميذ والأصحاب ما يبلغ خمسة عشر ألفاً. أما المدرسة الأخيرة من مدارس النبوَّة ، وهي مدرسة خاتم النبيين محمد ﷺ ، فقد كان تلاميذها يعدون بمئات الألوف.

وإذا أردت أن تعلم من هم تلاميذ المدارس النبوية الأخرى؟ ومن أين جاؤوا إليها؟ وفي أيِّ البلاد ولدوا؟ وما مبلغهم من العلم؟ ثم كيف كانت أخلاقهم؟ وكم أخذوا من أخلاق نبيهم وشمائله؟ وكم كان تأثير تعليم نبيهم فيهم؟ وما هي سيرتهم وهديهم؟ وكم صاحت أعمالهم بإصلاحِ رسولهم لهم؟ فإنك لن تجد لأسئلتك هذه أجوبةً عليها إلا فيما يتعلق بآخر مدارس النبوَّة ، فإنك تجد لها جواباً على كلِّ سؤال من هذه الأسئلة كلِّها بالتفصيل ، وتستطيع أن تقيد في دفترك أسماء تلاميذَ هذه المدرسة ، وأماكنَ ميلادهم ، ووصف ما تعلموه منها ، ومبلغ تأثرهم بأخلاق نبيهم ، ومعرفتهم بأحواله وشؤونه ـ كلُّ ذلك تجده مسجلاً ، مدوَّناً ، مضبوطاً بوضوحٍ وجلاء.

وهلم بنا نعرِّج على جهة أخرى: إنَّ جميع أصحاب الملل والنِّحَل يدَّعون أنَّ أبوابهم مفتحةٌ للجميع. فتعالوا نر مَن منهم كانت دعوته عامةً لجميع الناس ، وأبوابه مفتحةٌ لمختلف الأمم والطوائف البشرية بلا استثناء. ومَن منهم كانت حلقته في عهده مقصورةً على رجالٍ من أمةٍ واحدةٍ ، وعلى طائفةٍ خاصَّةٍ من تلك الأمَّة. إنَّ جميع أنبياء بني إسرائيل لم تتجاوز دعوتهم بلاد العراق ، أو بلاد الشام ، أو بلاد مصر ، أي أنَّهم لم يخرجوا من الأرض التي كانوا يسكنونها ، ولم يوجهوا دعوتهم إلا لأمتهم من بني إسرائيل. ولذلك لا ترى في مدارس عيسى عليه السلام رجلاً غير إسرائيلي ، لأنه إنما كان ينشد الغنم الضالة من بني إسرائيل[1] وإنما اقتصر

---

(١) متى ٧: ٢٤.

على بني إسرائيل لئلا يلقي رغيف الصبيان إلى كلاب[1]. وأصحاب الأديان في الهند لم يكن يخطر ببالهم أن يخرجوا من أرض الأمة الآرية المقدسة[2].
نعم لقد نشر ملوك البوذية دينهم في خارج الهند، وبلَّغوا دعوة بوذا إلى الأمم الأخرى، لكن ذلك جاء بعد زمن الدَّعوة من أتباعها المتأخرين عنها، كما فعل الذين نشروا المسيحية فيما بعد خارج دائرة إسرائيل. أما أصحاب الدعوة الأولون فقد خلت صحائف حياتهم من تعميم الدَّعوة حتى تشمل جميع بني آدم.

مدرسة محمد ﷺ كانت جامعةً للطوائف وعامة للأمم:

والآن تعالوا نشاهد مدرسة الرسول العربيِّ الأميِّ: أيُّ طالبٍ هذا؟ هذا أبو بكر، هذا عمر، ذاك عثمان، وذلك عليّ، وهذان طلحة[3]، والزبير[4]. ومَنْ هؤلاء؟ هؤلاء تلاميذ من قريش البطاح بطاح مكة، وذانك من غير قريش، إنهما أبو ذر[5] وأنيس[6] من تهامة من قبيلة غفار، وهذان

---

(١) الإنجيل.
(٢) باك أريه ورت.
(٣) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التميمي القرشي المدني، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، شهد أحداً وثبت مع الرسول ﷺ، وبايعه على الموت، شهد الخندق وسائر المشاهد، قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة ـ رضي الله عنها ـ ودفن بالبصرة، وله ٣٨ حديثاً مروياً.
(٤) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، صحابي شجاع، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سلَّ سيفه في الإسلام، وهو ابن عمة النبي ﷺ، شهد بدراً، وأحداً، وغيرهما، وشهد الجابية مع عمر بن الخطاب، قُتِل يوم الجمل بوادي السِّباع، والواقع قريباً من البصرة سنة ٣٦ هـ.
(٥) هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد، من بني غفار أحد كبار الصحابة، يضرب به المثل في الصدق، وهو أول من حيَّا الرسول ﷺ بتحية الإسلام، هاجر بعد وفاة الرسول ﷺ إلى الشام، فسكن دمشق، توفي سنة ٣٢ هـ، روى البخاري ومسلم ٢٨١ حديثاً له.
(٦) هو أنيس بن مرثد الغنوي، صحابي، وهو ممن شهد فتح مكة، وكان عين النبي ﷺ في غزوة حنين بأوطاس، توفي سنة ٢٠ هـ.

أبو هريرة وطفيل[١] ، جاءا من اليمن من إحدى قبائلها ، وتسمَّى دوس ، ومَن هذان؟ هذا أبو موسى[٢] ، وذاك معاذ بن جبل[٣] ، قدما من اليمن من قبيلة أخرى ، وهذا ضماد بن ثعلبة[٤] من قبيلة الأزد القحطانية ، وهذا خبَّاب بن الأرت[٥] أخو تميم. ومن أي قبيلة هؤلاء القوم؟ منقذ بن حبان[٦] ، ومنذر بن عائذ[٧] من قبيلة عبد القيس استجابا لهذه الدَّعوة ، ووفدا إليها من البحرين على الخليج الفارسي. وفيهم عبيد[٨] وجيفر[٩] من

---

(١) هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص الدوسي الأزدي من أشراف الصحابة ، استشهد في اليمامة سنة ١١ هـ.

(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب ، أبو موسى من بني الأشعر ، من كبار الصحابة ، استعمله الرسول ﷺ على زبيد وعدن ، توفي بالكوفة سنة ٤٤ هـ ، وكان أحسن الصحابة صوتاً في التلاوة ، وله ٣٥٥ حديثاً مروياً.

(٣) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل ، كان من أعلام الأمة بالحلال والحرام، وهو أحد الستة الَّذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ ، بعثه رسول الله ﷺ قاضياً ومرشداً لأهل اليمن ، توفي سنة ١٨ هـ ، وله ١٥٧ حديثاً مروياً.

(٤) هو ضماد بن ثعلبة الأزدي ، كان صديقاً للنبي ﷺ في الجاهلية ، وكان رجلاً يتطبب ، ويرقي ، ويطلب العلم ، وكان من السابقين إلى الإسلام.

(٥) هو خباب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد التميمي ، صحابي ، وهو أول من أظهر إسلامه ، ولما أسلم عذَّبه المشركون ليرجع عن دينه ، شهد المشاهد كلها ، توفي بالكوفة سنة ٣٧ هـ ، وله ٣٢ حديثاً مروياً في الصحيحين.

(٦) هو مُنقذ بن عمر بن حبان الأنصاري الخزرجي ، صحابي ، كان يخدع في البيع ، وكان لا يدع التجارة ، فقال له رسول الله ﷺ: «إذا ابتعت شيئاً فقل: لا خلابة» عاش مئةً وثلاثين سنة.

(٧) هو المنذر بن عائذ بن المنذر بن الحارث ، وهو الَّذي قال له النبي ﷺ: «إنَّ فيك خُلُقين يحبهما الله ورسوله: «الحلم والأناة» ، قيل: إنَّ النبي ﷺ قال له: «يا أشجُّ» فهو أول يومٍ سمي فيه الأشج.

(٨) انظر الترجمة التالية.

(٩) هو جيفر بن الجلندى الأزدي ، كان رئيس أهل عمان هو وأخوه عبيد بن الجلندى ، أسلما على يد عمرو بن العاص ، ولم يريا النبيَّ ﷺ ، كان إسلامهما بعد غزوة خيبر.

سادة عمان. وفيهم فروة[١] من معان في بلاد الشام. ومن هؤلاء الغرباء؟ هذا بلال[٢] من بلاد الحبشة، وهذا الأبيض يدعى صهيباً[٣] الرُّومي، وهذا اسمه سلمان[٤] الفارسي من إيران، وهذا أخو الدَّيلم يدعى فيروز الدَّيلمي[٥]، وهذا سيخب ومَركُبود[٦] من الأمة الفارسيَّة. فها أنتم ترون نماذج لمن تتلمذ على نبيِّ الإنسانية النبيِّ الأمي العربي خاتم المرسلين، لقد كانت حلقة هدايته مفتوحةً لكلِّ الأمم من شتَّى طوائف البشر.

إنَّ صلح الحديبية الذي اتفق عليه المسلمون والمشركون في سنة ٦ للهجرة كان من شرائطه أن يكفَّ كلٌّ من الفريقين عن القتال، وذلك ما يدعو إليه الإسلام؛ لأنه دين السلام والوئام، وللمسلمين أن يبلغوا دينهم أينما أرادوا.

وماذا فعل رسول الإسلام بعد هذه الهدنة العظيمة الخطر الكبيرة الأثر؟ إنَّه ﷺ أرسل في نفس تلك السنة كتباً إلى ملوك البلاد المجاورة، دعاهم

---

(١) هو فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي كان والياً يقتصر على الشام، أسلم فدعاه قيصر إليه وترك الإسلام، فأنكر فروة ذلك، فحبسه قيصر، ثم أمر بقتله، وقد ضحى بالثروة والحكومة والعزة والجاه والنفس ولم يرض بترك الإسلام، قُتل سنة ١٢ هـ.

(٢) هو بلال بن رباح الحبشي، مؤذن رسول الله ﷺ، وأحد السابقين للإسلام، شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ، توفي بدمشق سنة ٢٠ هـ، وله ٤٤ حديثاً مروياً في الصَّحيحين.

(٣) هو صهيب بن سنان بن مالك، أحد السابقين للإسلام، سبي صهيب بالروم وهو صغير، وعاش مدة في الروم، لذا اشتهر بـ«الرومي»، شهد جميع المشاهد، توفي بالمدينة سنة ٣٨ هـ، وله ٣٠٧ أحاديث مروية.

(٤) هو سلمان الفارسي، كان يسمِّي نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان. هو الَّذي دلَّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، توفي بالمدائن سنة ٣٦ هـ، وله ٦٠ حديثاً مروياً في كتب الحديث.

(٥) هو فيروز الدَّيلمي، صحابي يماني، فارسي الأصل، وفد على النبي ﷺ وروى عنه أحاديث، وعاد إلى اليمن وأعان على قتل الأسود العنسي، توفي بصنعاء سنة ٥٣ هـ.

(٦) مركبود: من أبناء الفرس بصنعاء، أسلم في حياة رسول الله ﷺ وقد ذكره بعض النقلة من كبود، وأظنه صحفه بعض النقلة. (أسد الغابة، للجزري، الجزء الخامس، صفحة ١٥١).

فيها إلى الإسلام ، وبلَّغهم رسالة الله التي بُعث بها إلى الأمم. فبعث ﷺ دحية الكلبي[1] إلى هرقل قيصر الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمي[2] إلى خسرو برويز ملك الفرس ، وحاطب بن أبي بلتعة[3] إلى المقوقس عزيز مصر ، وعمرو بن أمية[4] إلى النجاشي ملك الحبشة ، وشجاع بن وهب الأسدي[5] إلى الحارث الغساني سيد قومه في الشام ، وسليط بن عمرو[6] إلى رؤساء اليمامة. أرسلهم ﷺ إلى هؤلاء الملوك والأقيال بكتب يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ويبلغهم أنَّه أرسل إلى جميع الناس بالهداية العامة الشَّاملة.

استعراض نماذج من تلاميذ مدرسة محمد ﷺ:

سادتي! لقد تبين لكم أنَّ مدرسة محمَّد رسول الله كانت جامعةً للناس من جميع الطوائف ، وكانت عامَّةً للأمم على اختلاف ألسنتهم ، وألوانهم ،

---

(١) هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي ، صحابي جليل ، بعثه الرسول ﷺ إلى «قيصر» يدعوه للإسلام ، كان يضرب به المثل في حسن الصورة ، شهد معظم المشاهد ، نزل دمشق وتوفي بها سنة ٤٥ هـ.

(٢) هو عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي ، صحابي من الَّذين أسلموا قديماً ، بعثه الرسول ﷺ إلى «كسرى» يدعوه للإسلام ، هاجر إلى الحبشة ، شهد فتح مصر ، وتوفي بها في عهد عثمان رضي الله عنه ، سنة ٣٣ هـ.

(٣) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ، أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ شهد الوقائع كلها مع الرسول ﷺ ، بعثه الرسول ﷺ إلى مقوقس صاحب الإسكندرية ، توفي بالمدينة سنة ٣٠ هـ.

(٤) هو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله الضمري ، صحابي ، شهد مع المشركين بدراً وأحداً ، ثم أسلم ، شهد وقائع كثيرة ، توفي بالمدينة في خلافة معاوية سنة ٥٥ هـ ، وله ٢٠ حديثاً مروياً.

(٥) هو شجاع بن وهب بن ربيعة الأسدي ، صحابيٌّ قديم الإسلام ، حضر المشاهد كلها. بعثه الرسول ﷺ رسولاً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني (في الشام) يدعوه للإسلام ، قتل يوم اليمامة سنة ١٢ هـ.

(٦) هو سليط بن عمرو العامري ، هو فيمن هاجر إلى الحبشة مرتين ، أرسله الرسول ﷺ إلى رؤساء اليمامة سنة ٧ هـ ، قتل باليمامة سنة ١٢ هـ.

وطبقاتهم في الثقافة والمجتمع، وأنه لم يكن هناك أيُّ قيدٍ يمنع أيَّ إنسان من الالتحاق بها، فكأنها مأدبة كريم يدعو الجَفَلى. فتعالوا نُلقِ نظرةً أخرى على هذه المدرسة؛ لنصدر حكمنا الصحيح على حقيقتها، ومكانتها، ومنزلتها من معاهد الهداية والحكمة. ولنر إن كانت خاصَّةً بعلمٍ دون غيره من العلوم، أم هي جامعةٌ كبرى يجد فيها طلاب المعارف أجمعون كلَّ ما ينشدون، ويتعطشون إلى معرفته من حقائق الوجود، ليختاروا منها ما يوافق أذواقهم، ويلائم طباعهم، ويروي ظمأهم. انظر إلى مدرسة موسى عليه السلام؛ تجدوا فيها عدداً من قادة الجيش، أو قضاة المحاكم، أو طائفةٍ قليلة من ذوي المناصب الدِّينية، وابحثوا عن تلاميذ عيسى سلام الله عليه؛ تجدوا فيهم طائفة من الزهَّاد والنساك، يتنقلون بين سكك فلسطين، ويتجوَّلون في شوارع مدنها. أما الذين دخلوا في الإسلام، واتَّبعوا محمداً ﷺ؛ فتجدون فيهم أصحمة النجاشي[١] ملك الحبشة، وفروة عظيم معان، وذا الكلاع[٢] رئيس حميرٍ، وفيروزاً الديلمي، ومركبود من سادة اليمن ورؤسائها، وعبيداً وجيفراً من ولاة عمان. انظروا مرَّة أخرى تجدوا بما يقابل هؤلاء الملوك والولاة والرؤساء بلالاً، وياسراً[٣]، وصهيباً، وخبَّاباً، وعماراً[٤]، وأبا فكيهة[٥] من العبيد

---

(١) هو أصحمة بن أبجر الملقب بالنجاشي ملك الحبشة، هو ممن لم ير النبي ﷺ.

(٢) هو ذو الكلاع الحميري، كان حاكماً على بعض مناطق اليمن والطائف، وكان ملكاً على قبيلة حمير القوية، وكان يدَّعي أنه إله ويأمر الناس بالسجود له، ولما أسلم أعتق في يوم واحد ثمانية عشر ألفاً من العبيد، وفي عهد عمر الفاروق تخلَّى من نفسه عن الحكم، وقدم إلى المدينة المنورة حيث عاش فيها حياة كلها زهدٌ، وتقوى.

(٣) هو ياسر بن عامر المذحجي: صحابي، من السابقين إلى الإسلام. آمن هو وزوجته وابنه عمار، وعذّبهم مشركو قريش، وقتل أبو جهل سمية (زوجة ياسر). ومات ياسر في العذاب سنة (٧) ق هـ. الإصابة (ت ٩٢٠٩).

(٤) هو عمار بن ياسر بن عامر الكناني، هو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به. كان الرسول ﷺ يلقبه «الطيب المطيَّب» شهد معظم الوقائع، شهد وقعة الجمل وصفين مع علي رضي الله عنه، وقتل في الثانية سنة ٣٧ هـ. وله ٦٢ حديثاً مروياً.

(٥) هو أبو فكيهة مولى بني عبد الدار، أسلم قديماً بمكة، وكان يعذَّب ليرجع عن دينه فيمتنع، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، توفي قبل بدر.

والرقيق والضعفاء ، وسميَّة ، ولسنة ، وزنيرة ، ونهدية ، وأم عبيس من الإماء والضعيفات. وترون كذلك في أصحاب محمد ﷺ ذوي العقول الرَّاجحة ، والفكر الثاقب ، والرأي الحصيف ، وأهل الحنكة والتجربة ممَّن عرفوا دخائل الأمور ، وجربوا شؤون العالم ، ووقفوا على أسرار الدنيا ، وأداروا شؤون الملك ، وساسوا البلاد ، كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية ، فهؤلاء حكموا الأمم ، فأحسنوا ، وأقاموا شرع الله في أرض الله بين مشرقها ومغربها ، فاتسعت دائرة حكومتهم إلى شمال إفريقية وثغور الهند ، ونسخوا بعدلهم ورحمتهم سلطان عظماء الملوك ، وقوانين الروم والفرس ، ونزلوا من قلوب الناس أكرم منزلة بعدلهم ، وإنصافهم ، ومن صفحات التاريخ الصَّادق المرتبة التي لم يبلغها فيه أحدٌ غيرُهم ، لا قبلهم ، ولا بعدهم.

وإلى جانب الخلفاء الراشدين، والملوك العادلين ، والسلاطين المنصفين من أتباع الرسول محمد ﷺ ترى طائفةً غيرَ قليلةٍ من رؤساء الجند ، وقادة الجيوش من أصحاب الرسول كخالد بن الوليد(١) ، وسعد بن أبي وقاص(٢) ، وأبي عبيدة بن الجراح(٣) ، وعمرو بن العاص(٤) ممَّن

---

(١) هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي ، سيف الله الفاتح الكبير ، كان من بين من آمنوا من المشركين ، وكان على رأس جيش الكفار في غزوة أحد ، فألحق بالمسلمين خسائر فادحة ، وخالد بن الوليد هو الَّذي بعد إسلامه قاد جيش المسلمين ، فهزم مسيلمة الكذاب وفتح بلاد العراق كلها تقريباً ونصف بلاد الشام ، توفي بحمص سنة ٢١ هـ ، وله ١٨ حديثاً مروياً.

(٢) هو سعد بن أبي وقاص ، الصحابي الجليل ، فاتح العراق ، ومدائن كسرى ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، أسلم وهو ابن ١٧ سنة ، شهد بدراً ، وافتتح القادسية ، توفي بالعقيق والواقع على عشرة أميال من المدينة؛ سنة ٥٥ هـ ، وله ٢٧١ حديثاً مروياً في كتب الحديث.

(٣) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي ، صحابيٌّ كبير ، فاتح الديار الشامية ، وأحد المبشرين بالجنة ، وفي الحديث «لكل نبي أمين وأميني أبو عبيدة بن الجراح» شهد المشاهد كلها، توفي بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ ، وله ١٤ حديثاً مروياً.

(٤) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، فاتح مصر ، وأحد عظماء العرب ، =

دوَّخوا الشرق والغرب ، وقوَّضوا دولتين عظيمتين كانتا سبَّةً على الإنسانية ووصمةً في جبينها بحكمهما الجائر ، واضطهادهما لرعاياهما ، فكان هؤلاء القواد من أتباع الرسول ﷺ من أكبر الفاتحين في العالم ، ومن أصلب المحاربين عوداً ، وأشجعهم قلوباً ، وأعلمهم بأمر القتال ، وتعبئة الجيوش ، وإدارة رحى الحروب ، وإن أسماءهم لا تزال رمزاً للمهابة والجلال في التاريخ العسكري. فسعد بن أبي وقاص هو الذي فتح العراق ، واقتحم مملكة فارس ، وانتزع فيها التاج عن مفرق كسرى الظالم ، وألقى به تحت قدمي الإسلام. وخالد وأبو عبيدة هما اللذان أخرجا دولة الروم وجيوشها من ديار الشام ، وطهَّرا منهم أرض إبراهيم ، وجعلاها في أيدي الوارثين لها من المسلمين ، وعمرو بن العاص الذي انتزع مصر وأرض النيل من أيدي الروم الظالمين ، وقذف بهم إلى البحر ، وسار على أثره عبد الله بن الزبير[(١)] ، وعبد الله بن أبي سرح[(٢)] متوغلين في شمال إفريقية فتحاً ، وهدايةً ، وإصلاحاً. هؤلاء هم فاتحو الممالك ، وقادة الجيوش الذين اعترف بهم بالكفاءة أعداؤهم ، وشهد التاريخ بعظمتهم ، وعلو كعبهم ، وجلال مجدهم.

= ودهاتهم ، وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم ، كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام ، وهو الَّذي أرسلته قريش رئيساً لوفد المشركين إلى الحبشة ، وذلك لعدائه الشديد للمسلمين ، وكفاءته العالية في المعاملات الخارجية. وبعد إسلامه فتح مصر ، كان إسلام مثل هذا السياسي القدير والفاتح العظيم من معجزات الإسلام ، توفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ ، وله ٣٩ حديثاً مروياً في كتب الحديث.

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي ، شهد فتح إفريقية زمن عثمان رضي الله عنه ، وبويع له بالخلافة عقيب موت يزيد بن معاوية ، كانت له مع الأمويين وقائع هائلة ، قُتل سنة ٧٣ هـ ، كان من خطباء قريش المعدودين ، وله ٣٣ حديثاً مروياً في كتب الحديث.

(٢) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري ، فاتح إفريقية ، كان من أبطال الصحابة ، وكان من كتَّاب الوحي للرسول ﷺ ، افتتح ما بين طرابلس الغرب وطنجة ، ودانت له إفريقية كلُّها ، وغزا الروم بحراً ، وظفر بهم في معركة «ذات الصواري» ، وعاد إلى المشرق ، توفي بعسقلان فجأةً سنة ٣٧ هـ ، وهو يُصلِّي.

وبجانب هؤلاء القادة الفاتحين الباسلين ترى طائفةً أخرى من ولاة المدن ، وحكام الأقطار من أصحاب رسول الله ﷺ ، مثل: باذان بن ساسان[١] في اليمن ، وخالد بن سعيد[٢] في صنعاء ، والمهاجر بن أبي أمية[٣] في كندة ، وزياد بن لبيد[٤] في حضرموت ، وعمرو بن حزم[٥] في نجران ، ويزيد بن أبي سفيان[٦] في تيماء ، والعلاء بن الحضرمي[٧] في

---

(١) هو باذان الفارسي من الأبناء ، وهم من أولاد الفرس الَّذين سيرهم كسرى أنوشروان إلى اليمن لقتال الحبشة ، فأقاموا باليمن ، وكان باذان بصنعاء فأسلم في حياة الرسول ﷺ ، وله أثر كبير في قتل الأسود العنسي .

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، صحابي قديم الإسلام ، هاجر إلى الحبشة ، وعاد منها سنة ٧ هـ . فغزا مع الرسول ﷺ ، وحضر فتح مكة ، ثم وقعة تبوك ، بعثه الرسول ﷺ عاملاً على اليمن ، فأقام إلى أن استخلف أبو بكر رضي الله عنه ، فعزله عن اليمن ، ودعاه إليه ، فجاءه ، قتل في وقعة مرج الصفر (قرب دمشق) سنة ١٤ هـ .

(٣) هو المهاجر بن أبي أمية سهيل بن المغيرة المخزومي القرشي ، صحابي ، شهد بدراً مع المشركين ، ولما أسلم كان اسمه «الوليد» فسماه الرسول ﷺ: «المهاجر» ، تخلَّف المهاجر عن وقعة «تبوك» سنة ٩ هـ فعتب عليه الرسول ﷺ ، ثم رضي عنه بشفاعة أخته ، واستعمله أميراً على صدقات كندة والصدف. بعثه أبو بكر رضي الله عنه إلى اليمن لقتال من بقي من المرتدِّين بعد قتل «الأسود العنسي» فتولَّى إمارة «صنعاء» سنة ١١ هـ ، توفي سنة ١٢ هـ .

(٤) هو زياد بن لبيد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي ، خرج إلى رسول الله ﷺ ، وأقام معه بمكة حتى هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، شهد جميع المشاهد ، واستعمله رسول الله ﷺ على «حضرموت» ، توفي في أول عهد معاوية ـ رضي الله عنه ـ .

(٥) هو عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري ، صحابي ، شهد الخندق وما بعدها من المشاهد ، استعمله الرسول ﷺ على نجران ، وكتب له عهداً مطوَّلاً ، فيه توجيه وتشريع ، توفي سنة ٥٣ هـ .

(٦) هو يزيد بن صخر (أبي سفيان) بن حرب الأموي ، صحابي ، أسلم يوم فتح مكة ، واستعمله الرسول ﷺ على صدقات بني فراس في تيماء ، له وقائع كثيرة ، وأثر محمود في فتوح البلاد الشامية ، توفي بالطاعون في دمشق سنة ١٨ هـ .

(٧) هو العلاء بن عبد الله الحضرمي ، صحابي ، من رجال الفتوح في فجر الإسلام ، ولاه الرسول ﷺ البحرين سنة ٨ هـ ، وجعل له جباية «الصدقة» وأعطاه كتاباً فيه =

البحرين وغيرهم من أتباع الرسول حكموا الأمصار ، وتولوا الولايات ، فسعد بهم الناس ، وذاقوا حلاوة عدلهم ، وانتشر بهم السلام ، وساد بفضلهم الوئام بين الناس.

وبجانب هؤلاء الولاة العادلين الأبرار ، والحكام المنصفين الأخيار ترى في أصحاب رسول الله ﷺ ثلةً من العلماء الربّانيين ، والفقهاء المتألهين ، كعمر بن الخطاب ، وعليٍّ بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس[1] ، وعبد الله بن مسعود[2] ، وعبد الله بن عمرو بن العاص[3] ، وأمهات المؤمنين: عائشة ، وأم سلمة[4] ، وأبي بن كعب[5] ومعاذ بن جبل ،

= فرائض الصدقة ، وأمره أن يأخذ الصدقة من أغنيائهم ويردَّها على فقرائهم ، توفي سنة ٢١ هـ.

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ، صحابي جليل ، نشأ في بدء عصر النبوة ، فلازم الرسول ﷺ ، وروى عنه الأحاديث ، سكن الطائف وتوفي بها سنة ٦٨ هـ ، وله ١٦٦٠ حديثاً مروياً في كتب الحديث.

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، من كبار الصحابة ، فضلاً ، وعقلاً ، وقرباً من الرسول ﷺ ، هو أول من جهر بقراءة القرآن بمكة ، وكان خادم الرسول ﷺ ، ولِّي بعد وفاة الرسول ﷺ بيت مال الكوفة ، ثم قدم المدينة في عهد عثمان رضي الله عنه ، توفي فيها سنة ٣٢ هـ ، وله ٨٤٨ حديثاً مروياً في كتب الحديث.

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، صحابي من أهل مكة ، كان يكتب في الجاهلية ، أسلم قبل أبيه ، استأذن الرسول ﷺ في أن يكتب ما يسمع منه ، فأذن له. شهد معظم المشاهد ، كان كثير العبادة حتى قال له الرسول ﷺ: «إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً». عُمي في آخر حياته ، توفي عام ٦٥ هـ ، وله ٧٠٠ حديث مرويّ.

(٤) هي هند بنت سهيل المعروفة بأم سلمة ، من زوجات الرسول ﷺ كانت من أكمل النساء عقلاً وخلقاً ، هاجرت مع زوجها الأول «أبي سلمة بن عبد الأسد» إلى الحبشة ، وولدت له ابنه «سلمة» ، تزوجها الرسول ﷺ بعد وفاة زوجها ، توفيت سنة ٦٢ هـ (وفي سنة وفاتها اختلاف) ولها ٣٧٨ حديثاً مروياً.

(٥) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد ، صحابي من الأنصار ، كان قبل إسلامه حبراً من أحبار اليهود ، ولما أسلم كان من كتاب الوحي ، شهد جميع المشاهد مع =

وزيد بن ثابت[1] ، وابن الزبير رضي الله عنهم ، الذين وضعوا فقه الإسلام ، وسنُّوا للناس قوانين أنزلتهم من واضعي القوانين للعالم منزلةً سامية .

وهناك جماعة خامسة ممن اعتنوا بالرواية ، وحفظ الوقائع والحوادث كأبي هريرة ، وأبي موسى الأشعري[2] ، وأنس بن مالك ، وأبي سعيد الخدري ، وعبادة بن الصامت[3] ، وجابر بن عبد الله ، والبراء بن عازب[4] ، وغيرهم من أصحاب الرسول الذين رووا سنن الإسلام ، وأحكامه ، وحفظوا أوامره ونواهيه ، وأحصوا الوقائع والأخبار .

وبجانب أولئك جماعة سادسة يبلغ عددها سبعين صحابياً من أصحاب الصُّفَّة الذين لم يكن لهم بيت يأوون إليه إلا فناء المسجد ، ولم يكن لهم من متاع الدُّنيا إلا ما على أجسادهم من أسمالٍ بالية ، فكانوا يخرجون إلى الصحراء يحتطبون منها ، ويبيعون ما يجمعونه في السوق ، ويقتاتون

= الرسول ﷺ ، أمره عثمان رضي الله عنه بجمع القرآن ، فاشترك في جمعه ، توفي بالمدينة سنة ٢١ هـ ، وله ١٦٤ حديثاً مروياً .

(١) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي ، من أكابر الصحابة ، ومن كتاب الوحي ، وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد الرسول ﷺ من الأنصار ، وعرضه عليه ، وهو الّذي كتبه في المصحف لأبي بكر رضي الله عنه ، ثم لعثمان رضي الله عنه حين جهَّز المصاحف إلى الأمصار ، توفي سنة ٤٥ هـ ، وله ٩٢ حديثاً مروياً .

(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب ، أبو موسى ، من قبيلة الأشعر ، صحابي كبير ، استعمله الرسول ﷺ على زبيد وعدن ، توفي بالكوفة سنة ٤٤ هـ ، وله ٣٥٥ حديثاً مروياً .

(٣) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي ، صحابي ، شهد العقبة وسائر المشاهد ، ثم حضر فتح مصر ، توفي ببيت المقدس سنة ٣٤هـ ، ومنه ١٨١ حديثاً مروياً ، منها ٦ ستة متفق عليها عند البخاري ومسلم .

(٤) هو البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي ، صحابي من أصحاب الفتوح ، أسلم صغيراً وغزا مع الرسول ﷺ خمس عشرة غزوة ، توفي سنة ٧١ هـ ، وله ٣٠٥ أحاديث مروية في الصحيحين .

بثمنه ، وإذا بقي في يدهم شيء أنفقوه في سبيل الله ، وفرغوا للدِّين ، وانقطعوا لتعلم أحكامه وعبادة ربهم.

ثم ارجعوا البصر إلى هؤلاء الأصحاب تروا فيهم زاهداً ناسكاً متوكلاً على الله كأبي ذر الغفاري الذي لم تُظِلَّ السماءُ ، ولم تُقِلَّ الأرض مثله في صدق اللهجة ، وكلمة الحق ، وكان لا يدَّخر الطعام لغده ، ويعدُّ ادخاره منافياً للتوكل على الله ، ولذلك لقبه الرسول ﷺ بمسيح الإسلام. وفيهم سلمانُ الفارسيُّ ، الزاهدُ ، الورع ، والتقيُّ الصَّالح. وفيهم عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قضى ثلاثين حولاً كاملاً في عبادة الله ، وعرضت عليه الخلافة ، فأباها قائلاً: لا أتولى خلافة تسفك فيها قطرةٌ من دم المسلمين. وفيهم مصعبُ بن عمير[١] الذي كان يلبَس قبل إسلامه الديباج الثَّمين ، والحرير الفاخر ، ونشأ في حجر النعيم والشرف ، وتقلب في بحبوحة العيش ورغده ، ثم لبس في الإسلام المسوح ، والخشن من الثياب المرقعة ، ولما استشهد في سبيل الله لم يكن له ثوب ضافٍ يستر جسده كلَّه ، فاضطروا عند دفنه إلى أن يغطوا قدمية بالحشيش. وفيهم عثمان بن مظعون[٢] الذي دعي فيما بعد بأنَّه أولُ ناسكٍ في الإسلام. وفيهم محمد بن مَسْلمة[٣] الذي قال أيام الفتن: لو دخل علي مسلمٌ بيده سيفٌ مسلولٌ يريد قتلي لم أكن لأقتله دفعاً عن نفسي. وأما أبو الدرداء ، وما أدراك من أبو الدرداء! فهو القاضي العالم الذي كان يقضي نهاره صائماً وليله قائماً.

إنَّ من أصحاب رسول الله ﷺ من قصصت عليك ، ومنهم من لم

---

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي: صحابي من السابقين إلى الإسلام، شهد بدراً ، وحمل اللواء يوم أحد ، فاستشهد ، وكان في الجاهلية فتى مكة شباباً، وجمالاً ، ونعمةً ، ولما ظهر الإسلام زهد بالنعيم ، استشهد في أحد سنة ٣ هـ.

(٢) هو عثمان بن مظعون ، صحابي من الشجعان ، وذوي الرأي والتقدُّم ، وممَّن هاجر إلى الحبشة ، شهد بدراً ، توفي سنة ٣٠ هـ.

(٣) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري ، صحابي من الأمراء ، شهد سائر المشاهد إلا تبوك ، استخلفة الرسول ﷺ على المدينة في بعض غزواته ، توفي بالمدينة سنة ٤٣ هـ.

أقصص عليك. ومن ذا الذي يستطيع أن يوفي البيان حقه؟! فتعالَ أُرِكَ منهم جماعة من مديري أمور الأمة وساستها المحنكين، كطلحة[1]، والزبير[2]، والمغيرة[3]، والمقداد[4]، وسعد بن معاذ[5]، وسعد بن عبادة[6]، وأسيد بن حضير[7]، وأسعد بن زرارة[8]، وعبد الرحمن بن عوف[9]، وفيهم من التجار أصحاب المال الدثر، والثراء الوافر من أهل مكة، أو من أصحاب الحقول والحدائق الغُلب من أهل المدينة.

---

(١) مرت ترجمته.

(٢) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي (مرت ترجمته).

(٣) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، يقال له: «مغيرة الرأي» شهد الحديبية، واليمامة، وفتوح الشام، ولاه معاوية الكوفة فلم يزل فيها إلى أن توفي بها سنة ٥٠ هـ، وله ١٣٦ حديثاً مروياً.

(٤) هو المقداد بن عمرو، ويعرف بابن الأسود، صحابي من الأبطال، وهو أحد السبعة الَّذين كانوا أول من أظهر الإسلام، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله، شهد بدراً وغيرهما من المشاهد. توفي قريباً من المدينة سنة ٣٣ هـ، وله ٤٨ حديثاً مروياً.

(٥) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس الأوسي الأنصاري صحابي من الأبطال، كانت له سيادة الأوس، شهد أحداً، فكان ممَّن ثبت فيها، ورُمي بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه وعمره سبع وثلاثون سنة، وحزن عليه الرسول ﷺ، وفي الحديث: «اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» دفِن بالبقيع.

(٦) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي، صحابي، كان واحداً من الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام، شهد العقبة وأحداً، والخندق، لمَّا توفي الرسول ﷺ رغب في الخلافة، ولم يبايع أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ خرج إلى الشام مهاجراً، وتوفي بحوران سنة ١٤ هـ.

(٧) هو أسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك الأوسي، صحابي، يعدُّ من عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم، شهد جميع المشاهد، وفي الحديث: «نعم الرجل أسيد بن الحضير»، توفي بالمدينة سنة ٢٠ هـ، وله ١٨ حديثاً مروياً.

(٨) هو أسعد بن زُرارة بن عدس النجاري الخزرجي، صحابي من الشجعان والأشراف، توفي بالمدينة سنة ١ هـ.

(٩) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث، من أكابر الصحابة، ومن المبشرين بالجنَّة، ومن السابقين إلى الإسلام، كان من الأجواد الشجعان العقلاء، شهد جميع المشاهد، توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ، وله ٦٥ حديثاً مروياً.

ولا نتقدم في البيان قبل أن نحيي ذكرى الذين قتلوا منهم في سبيل الله لا لجرمٍ ارتكبوه سوى أن قالوا: «ربنا الله» ثم استقاموا ، وما نقموا منهم إلا أن آمنوا بالعزيز الحميد. وفيهم من لم يقتل قتلة يستريح بها ، بل قطعت لحومه ، وكسرت عظامه ، وأوذي في سبيل الله ، وهذا ما وقع لهالة[1] ابن أم المؤمنين خديجة من زوجها الأول الذي مزق جسمه تمزيقاً ، وقطعت أوصاله تقطيعاً. وسمية أم عمار التي قتلها أبو جهل بالرُّمح. وأما ياسر فقد أوذي بأيدي الكفار إيذاء شديداً إلى أن لحق بربه. وخباب الذي صلبه المشركون. وزيد[2] الذي طأطأ رأسه أمام السيف لينال منه كيف يشاء، ويعمل فيه عمله. وكذلك حرام بن ملحان[3] ، وأصحابه التسعة والستون الذين قتلوا في ديار الغربة عند بئر معونة بأيدي أعراب من بني عصية ، ورعل ، وذكوان. وإن مئة رام من بني لحيان جرحوا عاصماً[4] وأصحابه السبعة في يوم الرجيع حتى أثخنتهم الجروح. وقتل أصحاب ابن أبي العوجاء[5]، وكان عددهم تسعة وأربعين بأيدي بني سليم في السنة السابعة للهجرة. واستشهد كعب بن عمير الغفاري[6] وأصحابه بذات أطلاح. فانظروا كم صلب لذات الله من أبناء هذا الدين الأولين ، وكم قتل لوجهه الكريم ، وكم سفك من دمائهم

(١) هو هالة بن أبي هالة التميمي الأسدي ، أمه خديجة بنت خويلد بن أسد ، وفي الحديث أنه دخل على النبي ﷺ وهو راقد ، فاستيقظ النبي ﷺ فضمَّ هالة إلى صدره ، فقال: «هالة! هالة! هالة» [الطبراني في المعجم الصغير (١/ ١٩٥)].

(٢) هو زيد بن الدثنة بن معاوية بن عبيد البياضي الخزرجي ، من فقهاء الصحابة ، شهد بدراً ، وأحداً ، قتله مشركو قريش وصلبوه بالتنعيم (الواقع على مسافةٍ من مكة) سنة ٥ هـ.

(٣) هو حرام بن ملحان الأنصاري النجاري ، خال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، شهد بدراً ، وأحداً ، وقتل يوم بئر معونة.

(٤) هو عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري الأوسي ، صحابي من السابقين الأولين من الأنصار ، شهد بدراً ، وأحداً مع الرسول ﷺ ، واستشهد يوم الرجيع سنة ٤ هـ.

(٥) انظر الحديث عنه في كتب السيرة النبوية ، أحداث سنة (٧ هـ).

(٦) هو كعب بن عمير الغفاري ، من كبار الصحابة ، بعثه الرسول ﷺ أميراً على سرية ، نحو «ذات أطلاح» في البلقاء ، فقُتل فيها سنة ٨ هـ.

في سبيله! فإذا كان من الفخر عند غيرنا أن يصلب واحدٌ في سبيل الله ونجاة خلقه ، فنحن قد صلب وقتل مئات من سلفنا الأولين لذات الله تعالى وحده ، ولنجاة الإنسانية كلِّها من الوثنية ، والضلال ، والشرك.

إنَّ النفس إذا ماتت استراحت ، سواء في ذلك أقتلت بحدِّ السيف أم بسنان الرُّمح ، أو صلبت ، فهي تذوق سكرة الموت لمحةً ، وتتألَّم ببطش المنية ، وزهوق النفس ، ثم تستريح ، وأكبر من ذلك وأشدُّ منه عذاباً حياة المكابدين للبغي والظلم أعواماً ، والصابرين على الأذى في سبيل الله صبراً جميلاً ، فمنهم من ذاق أنواع العذاب لثباته على قول الحق ، ومنهم من وضعت الحجارة المحماة على صدورهم ، وصرعوا في الرمضاء وحرِّ الهاجرة ، وكانوا يتقلبون على ذلك ، ويتململون ، ويسحبون على وجوههم؛ لينصرفوا عن قول الحق ، ويصبؤوا عن عقيدة الإسلام فلا يبالون بذلك ، ويصرون على توحيد الله والشهادة بالرسالة المحمدية.

ثم ألم يأتك نبأ الذين حُصروا في شِعب أبي طالب جياعاً كيف كانوا يبيتون الليالي ، ويقضون الأيام وهم يقتاتون بأوراق الطَّلح بعد أن فني زادهم ، وصَفِرَ وطابُهم ، وأعوزهم القوت. إنَّ سعد بن أبي وقاص مسَّه ألم الجوع في ليلةٍ شديدةٍ من تلك الليالي ، فخرج من شِعب أبي طالب يطلب شيئاً يتبلَّغ به ليذهب بعض ما به من ألم السَّغب ، فلم يجد إلا قطعة جافةً من إهاب ، فغسلها ، وشواها ، وأكلها بالماء.

وعتبة بن غزوان[1] أيضاً كان من الذين امتحنوا في شِعب أبي طالب بأيدي المشركين ، وهو يقول: إني وأصحابي السبعة قد دميت أفواهنا من أكل هذه الأوراق والأشياء التي نقتات بها.

وخبَّاب لما أسلم وعلم بإسلامه المشركون ألقوه على الجمر الملتهب ، وأمسكوه عليه حتى انطفأ الجمر بالصَّديد والقيح الذي سال من ظهر خباب.

---

(١) هو عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب الحارثي المازني ، صحابي قديم الإسلام ، باني مدينة البصرة ، هاجر إلى الحبشة ، شهد بدراً ، وشهد القادسية. بعثه عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى البصرة والياً عليها ، توفي سنة ١٧ هـ ، وله ٤ أحاديث مروية.

وبلال كان يذهب به سيده إلى أرضٍ ذات حجارةٍ تلهبها أشعةُ الشمس في وسط الهاجرة ، فيلقيه عليها ، ثم يضع على صدره جندلاً ثقيلاً حاراً ، وربما شدَّ عنقه بالحبل ، فيجره جرّاً أليماً في سكك مكَّة .

وكذلك فُعِل بأبي فكيهة : رُبطت رجله بالحبل ، وسُحِب على الأرض ، وخُنق ، وقد وُضِعَ مرَّة على صدره حجرٌ ثقيل حتى ضاقت أنفاسه ، واندلع لسانه .

وكذلك عمَّار أوذي إيذاءً شديداً ، فكان يُجَنْدَلُ على الرَّمضاء ، ويُضرب ضرباً مُبرِّحاً . بل إن الزبير كان عمه يلفه بالحصير ، ويدخِّن عليه من أسفل . وسعيد بن زيد كان أهله يضربونه فيصبر . وعثمان كان عمه يضربه . فقابل هؤلاء كلهم البلايا والمحن ، وذاقوا العذاب الشديد برباطة جأشٍ ، وثبات قلبٍ ، وقوة إيمانٍ ، فأشربت دماؤهم من هذا الرَّحيق الإلهي الذي تناولوه من كأس الإسلام ، فلا يتحولون عنه مدى الحياة .

إخواني! تأملوا! أليس هؤلاء هم العرب الذين كانوا في معزل عن العمران يعبدون الأوثان ، ويعكفون على الأصنام ، وكانوا في جاهليةٍ ضاربين فيها بجرانهم ، فما بالهم انقلبت أحوالهم ، وتغيَّرت شؤونهم؟ إنَّ أرضهم لاتزال هي الأرض ، وسماؤهم كما كانت ، وبلادهم لم تتغير . فكيف انجلى عنهم ظلامُ الجهل ؟ وكيف نفخ فيهم ذلك الأميُّ روح الدِّين الحقِّ ، فأصبح جاهلهم صالحاً ، ومحاربهم مسالماً ؟ وماذا علَّمهم حتى انقلب الفاسد صالحاً ، والمفسد مصلحاً ، والذي لم يكن يحسن شيئاً لم يلبث أن صار يدير الملك ، ويصرِّف شؤون الحكومة ، ويسوس أمور الرعايا ؟ وكيف نبغ منهم ذوو العقول الراجحة ، والآراء السديدة ، والأفكار الثاقبة؟ إنَّ الرسول الأميَّ الأعزل الذي لم يحمل في شبابه سلاحاً ، ولم يملك من قبل بلاداً كيف أقام للأمة العربية ـ التي لم تكن الأمم تقيم لها في كِفَّة السياسة العالمية وزناً ـ دولةً ذات عظمةٍ وجلال ، واكتشف في نفوس رجالها كنزاً من القوة لا ينفد ، وكيف جعل هذا الأميُّ

من هذه الأمَّة ـ التي لم تكن تعرف الله ، ولا تعلم توحيد ربوبيته ـ عبَّاداً ناسكين يحيون الليل بذكر الله ، ويبلغون رسالاته في النهار .

لقد أخذت بأيديكم ، فأريتكم مسجد هذا النبي ﷺ في المدينة ، وزرتم معي جامعته النبوية الكبرى زيارةً كاملة ، فاجتمعتم بأصناف من تلاميذه ، ولقيتم من أصحابه العلماء ، والفقهاء ، وواضعي النظم والأحكام ، وتعرفتم بالجندي الباسل ، والقاضي العادل ، وتشرفتم بزيارة العظماء من ولاته ، وحكامه ، وتعرفتم بالفقراء ، والمساكين ، والملوك ، والسلاطين ، وقابلتم السادة الأحرار ، والعبيد الأبرار . وعرضت عليكم نماذج ممَّن استشهدوا في سبيل الله ، وماتوا ابتغاء مرضاة الله ، من الغزاة والمجاهدين ، فما هو رأيكم في كلِّ ذلك ، وبماذا تحكمون؟ إنَّ أكبر ظني فيكم أنَّكم حكمتم وقطعتم في حكمكم بأنَّ محمداً رسول الله ﷺ كان جامعاً للكمال البشري ، ومثلاً أعلى للمحامد الإنسانيَّة ، والصفات العليا ، و :

لَيْسَ عَلَىٰ الله بِمُسْتَنْكَرٍ   أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ

كيف لا وهي المحاسنُ المحمَّدية المتنوعة ، والمحامدُ النبوية المختلفة ، تراءت في أصحابه جميعاً ، وظهرت في رفقائه ، وتجلَّت في جلسائه . فبنوره استنار فؤاد الصدِّيق الأعظم ، وبحكمته امتلأ قلبُ الفاروق الأكبر وعقلُه حكمةً ، وثقوب فكرٍ ، وسدادَ رأي ، ومنه اكتسب ذو النورين عثمان الأنور رحمته ، وخيريته ، وفضائله ، ومن بلاغته تفجَّر البيان على لسان عليٍّ كرَّم الله وجهه .

وكلُّ ما ترى في خالدٍ ، وأبي عبيدة ، وسعد ، وجعفر[1] من تدبير الحرب ، وإحكام الرأي في تعبئة الجيوش وزحفها ، وما ترى في الصدِّيق من العزيمة ، والأمانة ، وحرية الرأي ، وغنى النفس ، والزهد في

---

(١) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب ، صحابي من الشجعان ، يُقال له : «جعفر الطيار» وهو أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو من السابقين إلى الإسلام ، هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، حضر وقعة مؤتة بالبلقاء ، واستشهد فيها سنة ٨ هـ.

الأموال والإعراض عن زينة الدنيا وزخارفها ، وما تراه من التبتُّل إلى الله ، والانقطاع له في ابن عمر ، وأبي ذرٍّ ، وسلمان ، وأبي الدرداء[1] ، وما تجد في ابن عباسٍ ، وأبيِّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود من علمٍ جمٍّ ، وفقهٍ عميقٍ في الدِّين ، ورأي في الأحكام سديد ، وما تلاحظه على بلال ، وصهيب ، وعمار ، وخبيب من السكينة ، والسَّلوى ، والطمأنينة ، وقويِّ الإيمان ، والحنين إلى لقاء الله ، كل أولئك مقتبسٌ من أنوار محمَّدٍ نبيِّ الله ، ومهبط الوحي ، ومحط القرآن ، صلاة الله وسلامه عليه ، فهو كأنَّه الشمس المضيئة تشرق ، فتنير بأشعتها قلل الجبال ، وبطون الأودية ، وصحارى الأرض ، ووهادها ، وبطاحها ، وتتلألأ بضوئها لجج الأنهار الجارية ونباتات الحقول السندسية ، كما تلمع بها البقاع القاحلة ، والرمال التي لا آخر لها ، فيأخذ كلٌّ منها نصيبه من الضوء على قدره ، بل كأنه ﷺ غيث يهطل من سحابة درور ، فيصيب الجبال الشماء ، والغابات اللفاء ، والصحارى القاحلة ، والساحات الواسعة ، والبطاح العريضة ، والحدائق الزاهية ، فيسقي جميع ذلك فينبت نباتاتٍ شتَّى بالأوراق الجميلة ، والأزهار المنعشة ، والأشجار المتنوعة.

نعم ، كان الصحابة ـ كسائر البشر ـ متفاوتين في طباعهم ، ومواهبهم ، وجبلاتهم ، لكنهم ائتلفوا جميعاً بالإسلام ، واتَّحدوا ، واشتركوا في غايةٍ واحدةٍ ، فكانوا يعملون لوجه الله ، ويبتغون بعملهم مرضاته عزَّ وجلَّ. سواءٌ في ذلك قضاتهم ، وولاتهم ، وفقراؤهم ، وأغنياؤهم ، ورعاتهم ، ورعاياهم ، وغزاتهم ، وشهداؤهم ، وجنودهم ، وقوادهم ، والمعلمون منهم ، والمتعلمون ، والتجار ، والعبَّاد ، والنَّاسكون ، فكان الإخلاص رائدَهم ، وهدايةُ الخلق أملَهم ، وإصلاح البشر غرضَهم ، فالصَّحابة هداةٌ حيثما حلُّوا ، وعاملون لإصلاح المجتمع البشري أينما ذهبوا. فإذا اختلفت

---

(1) هو عُويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي ، المعروف «أبو الدرداء» صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، وفي الحديث: «عُويمر حكيم أمتي» و«نعم الفارس عويمر» وهو أحد الَّذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد الرسول ﷺ ، توفي بالشام سنة ٣٢ هـ ، وله ١٧٩ حديثاً مروياً.

طبائعهم وتنوعت ألوانهم وتفاوتت مظاهرهم؛ فقد جمعتهم كلمةُ التوحيد ، ووحدة الكتاب العزيز ، واتجاههم جميعاً إلى قبلةٍ واحدةٍ. فما سلكوا سبيلاً ، ولا عملوا عملاً إلا ابتغوا به إصلاح العالم ، وتقويم المجتمع البشريِّ ، ومواساة بني الإنسان ، وإعلاء كلمة الحق ، وتقدُّم العمران البشريِّ نحو السلام ، والأمان ، ونشر الوئام.

إنَّ العالم لا تتــمُّ هدايتــه إلا بالمصلح الأخير للدُّنيــا:

إخواني وخلاني! لقد بينتُ لكم في هذه المحاضرة ما كان في الرسول الأعظم ﷺ من خلالٍ جامعةٍ ، وخصالٍ «جامعية» وقد أشرت إلى مظاهرها العديدة ، ونواحيها المختلفة ، وأخالكم قد ألفيتم ممَّا درستم في طبيعة الكون من ألوانٍ مختلفةٍ ، وما عرفتم في طبائع البشر من مواهب شتَّى ـ وهذه الدُّنيا ليست إلا مظهراً من مظاهر الحياة متنوعة الألوان ـ أنَّ العالم لا يمكن أن تكون هدايته إلا بالمصلح الأخير للدُّنيا ، وهو خاتم رسل الله محمد ﷺ؛ الذي اجتمعت فيه خلال الإرشاد كلُّها ، وخصال الإصلاح للنوع البشري بأجمعه ، ولذلك قال له الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فوجه الرسول ﷺ الدَّعوة إلى كلِّ مَنْ يَدَّعي محبة الله بأن يتبعه ، ويطيع أمره ، ونادى الملوك في ممالكهم ، والرُّعاعَ في شوارعهم ، والمعلمين في مدارسهم ، والتلاميذ في فصولهم ، والفقراء في أكواخهم ، والأغنياء في قصورهم ، كما دعا المظلومين ، والمقهورين ، والمخذولين ، بل أهاب بالعالم كلِّه أن يتبعوا سبيله ، ويقتفوا أثره؛ لأن سيرته الشريفة هي المثلُ الأعلى ، وفيها الأسوة الكاملة لكلِّ من يحبُّ الخير ، ويبتغي الصلاح لنفسه.

اللهم صلِّ وسلِّم عليه وآله وصحبه أجمعين.

* * *




المحاضرةُ السَّادسة

النَّاحية العِلميَّةُ من السِّيرة المُحمَّديَّة




كيف نتَّبع الرَّسول ﷺ وفيم نتبعه؟

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

كيف نتبع الرسول، وفيم نتبعه؟ ذلك ما أتحدَّثُ لكم عنه في السيرة المحمَّدية في ناحيتها العمليَّة، وذلك ما خلت منه صحائف حياة الأنبياء عليهم السَّلام، أما لو نظرتم إلى هذه الناحية في السيرة المحمَّدية؛ فستجدون حياةً مليئةً بالأعمال الجليلة، عامرةً بشتَّى الأفعال، وهذا الباب من كتاب سيرته ﷺ من أوسع الأبواب، وأعظمها، وبه يحكم من شاء أن يحكم: أيُّ نبيٍّ هو خاتم النَّبيين، وسيِّد المرسلين، أمَّا من سبقه من الأنبياء والرسل فلم يصل إلينا من تفاصيل حياتهم ما يكون لنا أسوةٌ فيه، لأنَّ الذي عرفناه من ذلك لا يشفي علَّةً، ولا يروي غُلَّةً، والأحاديث الحلوة، والمواعظُ الحسنة، والتعاليم العالية ليست قليلةً في الدُّنيا، ولكن الذي يعوز الناس هو العملُ بها. وهم إذا بحثوا عن العاملين بالمواعظ البليغة، والحكم الرائعة، والأقوال المأثورة، والأمثال السائرة، كانوا كأنَّهم يبحثون عن عنقاء مغرب، أو الكبريت الأحمر.

إنَّ أخلاق المرء هي المرآة الصافية لسيرته، ومظهرٌ جليٌّ من مظاهرها، وأيُّ كتابٍ سماويٍّ غير القرآن يشهد لمن تنزل عليه بأنَّه قد تحلَّى بالأخلاق الحسنة، والعادات السنيَّة، وأنَّ صاحب ذلك الكتاب أعلى قدراً، وأرفع مكانةً من سائر الناس لما هو عليه من جليل الأعمال، وقويم الأخلاق، أمَّا القرآن؛ فقد أذاع بين أعداء الرسول وأوليائه قول الله عز وجل ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٣ ـ ٤][1] وإذا كانت إحدى

---

(١) قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في تفسير هذه الآية: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، وهو الإسلام»، وقال عطية: «لعلى أدب عظيم»، وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ قطٌّ، ولا قال لشيء فعلتهُ: لم فعلتَه؟ ولا لشيءٍ لم أفعله: ألا فعلته؟ (متفق عليه) عن تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٣).

هاتين الجملتين معطوفة على الأخرى فإنهما مربوطتان ربط العلَّة بالمعلول ، فالثانية علَّةٌ للأولى ، فأجر الرسول لا ينقطع وثوابه من الله لا ينفد؛ إذ الرسول ذو خلق عظيم ، وأعماله وأخلاقه بلغت من العلو والسُّمو المبلغ الذي لا ينقطع معه أجر صاحبها ، ولا يقلُّ ثوابه؛ لأنَّ معين خلقه فياضٌ لا ينضب ، ونبعُ حسناته فوارٌ لا يغيض ، وقد حُقَّ للنَّبيِّ الأميِّ العربي أن يؤنب الناس بقول الله سبحانه ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢].

مقارنـــةٌ بين نتائج عِظـة جبل الزّيتـــون ، ودعوة جبل الصَّفـــا :

ادرسوا سيرة الواعظ العظيم عيسى ابن مريم عليه السلام ، وصعوده جبل الزيتون؛ ليعظ الناس ، وقارنوا ذلك بسيرة الدَّاعي الهادي محمد رسول الله ﷺ وصعوده جبل الصفا يدعو أمته ، فإن رأيتم أحدهما لم يقدر له العمل بما قال للناس ولم يتمَّ ذلك له؛ فإنكم سترون سيرة الآخر عامرةً بكلِّ ما أمر به الناس ، وحثَّهم عليه. فالذي يعفو ويصفح مع المقدرة يعدُّ حليماً حقاً ، وغفوراً صدقاً ، ويكون عمله هذا من أمثل أخلاق البشر ، وأفضلها ، أما الذي يسكت عن غيظٍ لضعفٍ وَعَجْزٍ فلا يعدُّ سكوته عفواً ، ولا حلماً؛ لأنَّ العفو ينبغي أن يكون مع القدرة ، والذي لا يقتل أحداً ، ولا يسيء إلى الغير ، ولا يضرب إنساناً ، ولا يسلب مالاً ، ولا ينهب متاعاً ، ولا يبني لنفسه بيتاً ، ولا يدَّخر أموالاً تعدُّ فضائله هذه سلبية ، أما إذا كان ينقذُ المظلوم من القتل ظلماً ، وينصر الضعيف ، ويدفع عن أموال الناس أيدي السَّلْب والنَّهب ، ويؤوي الذين لا بيت لهم ، ويتصدَّق بالمال على المحتاجين إليه ، فإنَّ فضائله تعدُّ إيجابيةً ، وتسمَّى أعمالاً صالحة ، والدُّنيا تحتاج إلى هذه الفضائل الإيجابية ، والقرآن يذيع عن النَّبيِّ الكريم أنه رؤوف رقيق القلب ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وهذه أكبر شهادة على رقة قلب الرسول ورأفته ورحمته ، ومن زعم أنَّها دعوى؛ فإنه يرى الدلائل السَّاطعة تدعمها ، والبراهين الواضحة تؤيدها ، ولو لم يكن الرسول ﷺ ليناً ، دمث الأخلاق ، عفواً ، حليماً؛ لتفرقت عنه هذه الجماهير من العرب الذين

نشؤوا على العنجهية والإباء والشمم إلى حدِّ الإسراف في الصلابة ، ولرأفته بهم وحدبه[1] عليهم قال الله عز وجل فيه ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨][2] فمنَّ الله على العرب بهذا الرسول ، وقال لهم : إنه يعزُّ عليه أن تبقوا في ضلالٍ ، ويشقُّ عليه أن تعمهوا في ظلمات الكفر والشرك ، وأن تعرضوا عن الحقِّ وتلجُّوا في عتوٍّ ونفور ، وهو يبغي صلاحكم ، ويودُّ خيركم ، ويحب فلاحكم ، وهذا هو الذي يدعوه إلى نُصحكم ، ويحفزه لهدايتكم ، وإبلاغ الرسالة إليكم ، فمن لبَّى دعوته ، وقبل رسالته ، وأقبل على ما عند الرسول من الحق البيِّن ، والخير الكثير ؛ كان أهلاً لأن يرعى الرسول جانبه ، ويخصه بعنايته ، ورحمته ، والرسول وإن يكن مبعوثاً إلى البشر كافةً ؛ فإنَّ مَن آمن به ، وصدَّق بما جاء به ؛ فإن له من رأفة الرَّسول ، ورحمته ، وشفقته أوفر حظٍّ ، وأكبر نصيب .

هذه هي شهادة القرآن ، والقرآن أحكامٌ ، وتوجيهاتٌ أنزلت على رسول الله محمد ليبلغها للناس ، وسيرة الرسول هي تفسيرُ مافي القرآن من تلك الأحكام والتوجيهات ، وحياته كلُّها ، وما صدر عنه فيها من أقوالٍ ، وأفعالٍ هي تفصيلٌ لما جاء في القرآن ، فكلُّ حكمٍ جاء به القرآن قد امتثله الرسول ، ومثَّله للناس بفعله ، وبيَّنه بقوله ، فما من شيءٍ أمر به الرسول ـ من الإيمان بالله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأداء نسك الحج ، وبذل الصدقة ، والجهاد ، والإيثار ، وتوجيه العزيمة ، واحتمال الصبر على النوائب ، وشكر الله على النعم ، والتعامل مع الناس بالفضائل ومكارم الأخلاق ـ إلا وهو مستمدٌّ من القرآن ، أو من الوحي الإلهي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] ، ومامن حكمٍ أو توجيهٍ في

---

(١) حدبه : عطفه .

(٢) (من أنفسكم) أي : منكم حسباً ونسباً ، فكلُّ ما يحصل له من العزّ والشَّرف فهو عائد إليكم ، أو هو بشرٌ مثلكم جعله الله من جنسكم رحمةً بكم ، ولو جعله مَلَكاً ؛ لشقَّ ذلك عليكم ، كما قال جلَّ شأنه في سورة الأنعام ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام : ٨] .

القرآن إلا وقد بينه الرسول للناس بقوله ، وعمله ، وخُلُقه هدياً وسمتاً. جاء بعض الصحابة إلى أم المؤمنين عائشة يسألونها أن تصف لهم أخلاق الرسول ، وتصرفاته ، فأجابتهم: **أَلَمْ تَقْرَؤُوْا الْقُرْآنَ الْكَرِيْمَ؟ لَقَدْ كَانَ خُلُقُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ**[١].

فآيات القرآن ، وسوره أصواتٌ وكلمات ، وعملُ الرسول وخلقُه معانيها وتَفسيرُها ، وليس في الدنيا إنسانٌ أكثرَ علماً بالرَّجل من حليلته ، فهي التي تعلم من فضائل زوجها ، وأخلاقه ، وعاداته ما لا يعلمه أحدٌ غيره ، ولما ادَّعى الرسول النبوة كان قد مضى على زواجه بخديجة خمسة عشر عاماً ، وهذه مدَّةٌ تكفي المرء أن يعرف أحوال صاحبه ، وأخلاقه ، وعاداتـه معرفةً تامَّةً ، فحين سمعت خديجة أنَّ محمداً ﷺ نزل عليه الوحي؛ بادرت بتصديقه ، وآمنت به ، بل إنَّ الرسول حين فزع من نزول الوحي عليه ، ومجيء الملك إليه ـ لأنه لم يعهد ذلك من قبل ـ هدَّأت خديجة جأشه ، وربطت على قلبه ، وخففت عنه ما يلقاه ، وقالت له: **كَلاَّ ، وَاللهِ! مَا يُخْزِيْكَ اللهُ أَبَـدَاً ، فَإِنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الكلَّ ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُوْمَ ، وَتَنْصُرُ الْمَظْلُوْمَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِيْنُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ**[٢] ، وهذا الذي ذكرته خديجة هو الذي يتحلَّى به الرَّسول من مكارم الأخلاق ، وفضائل النفس قبل أن يوحى إليه.

---

(١) أخرج مسلم عن سَعْد بن هشام ـ رضي الله عنه ـ قال: سألتُ عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فقلْتُ: أَخبريني عن خُلق رسول الله ﷺ! فقالت: أما تقرأ القرآن ؟! قلتُ: بلى ، فقالتْ: «كان خُلقُه القرآن» [مسلم (١٧٣٩)]. أرادت بذلك على ما قيل: إنَّ مافي القرآن من المكارم كلّه كان فيه ﷺ ، وما فيه من الزجر عن سفساف الأخلاق كان منزجراً به عليه الصلاة والسلام ، لأنه المقصود بالخطاب بالقصد الأول ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ الآية ، قال المرصفي: أرادت بقولها: كان خلقه القرآن: تخلّقه بأخلاق الله تعالىٰ لكنَّها لم تصرِّح بها تأدُّباً منها. (شرح حياة الصحابة ، للشيخ محمد إلياس الباره بنكوي ، ص ٦ ، الجزء الثالث).

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ، وهذا بعض الحديث.

ما شهد به لمحمد ﷺ أقربُ الناس إليه وأعرفهم به:

وإن أم المؤمنين عائشة التي صحبت الرسول تسع سنوات، وكانت أحبَّ أزواجه إليه بعد خديجة تقول في وصفه ﷺ: إنه لم يكن يعيب أحداً، ولا يجزي على السوء بسوء، بل كان يعفو، ويصفح، وكان بعيداً عن السيئات، إنه لم ينتقم من أحدٍ لنفسه، ولم يضربْ غلاماً، ولا أَمَةً، ولا خادماً قطُّ، بل لم يضرب حيواناً، ولم يردَّ سائلاً إلا إذا لم يكن عنده شيء.

وعليٌّ صحب النبيَّ ﷺ منذ صباه إلى أن شبَّ، فلم يكن أحدٌ من أهل بيته أعلمَ منه بأخلاقه ﷺ، وهو يشهد لرسول الله أنه كان طَلْقَ الوجه، ليِّن الجانب، خافض الجناح، دمث الأخلاق، رحيماً، ولم يكن فظاً، ولا جافياً، ولا ينطق بسوء، ولا يتتبع عورات الناس، ولا يتجسَّس على عيوبهم، فإن سأله أحدٌ ما لا يرضى؛ سكت، ولم يبد له ما يسخطه، فيفطن من يعلم خلق الرسول ماذا يريد: لأنه لم يكن يحب أن يكسر قلب أحدٍ بل كان يأسر القلوب، ويؤلفها؛ لأنه كان رؤوفاً رحيماً. فيقول عليٌّ كرم الله وجهه: إنَّه ﷺ كان كريماً، جواداً، وفياضاً سخياً، صادقَ القول، ليِّنَ العريكة، من جالسه أحبَّه، ومن رآه بديهةً هابه، ويقول عنه ناعته: لم أر مثله قبله، ولا بعده. وقد أبدى (كبَّن) المؤرخ الإنكليزي الذائع الصيت هذا الرأي نفسه حين درس سيرة الرسول ﷺ.

ويشهد هند ـ ابن خديجة[1] من زوجها الأول، وهو ربيبُ الرسول في حجره ـ أنَّه ﷺ كان ليِّن الطبع، غير جاف ولا فظ، ولم يكن يسيء إلى أحد، ولا يصدر عنه نيلٌ من شرف أحدٍ، أو غضٌّ من كرامته، وكان يشكر

---

(١) هو هند بن أبي هالة، وهو ربيب رسول الله ﷺ، أمُّه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وكان أبوه حليف بني عبد الدار. واختلف في اسم أبي هالة، كان زوج خديجة رضي الله عنها قبل النبي ﷺ، فولدت له هند بن هند، وابن ابن ابنه هند بن هند بن هند.
وشهد هند بن أبي هالة بدراً، وقتل مع علي ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمل، روى هند بن أبي هالة حديث صفة النبي ﷺ.

الناس على اليسير من عملهم الطيب ، ويأكل ما يقدَّم له ، ولا يعيبه ، وما كان يغضب ، أو يقتصُّ من أحدٍ لنفسه ، بيد أنَّه إذا انتهك أحد شيئاً من محارم الله ؛ لم يقم لغضبه شيء (الشمائل)[1] .

---

(١) أخرج يعقوب بن سفيان الفسوي الحافظ عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سألتُ خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصَّافاً عن حلية رسولِ الله ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلَّق به ، فقال: «كان رسولُ الله ﷺ فخماً مُفخماً ، يتلألأُ وجهُه تلألُؤَ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع وأقصر من المشذَّب ، عظيم الهامة ، رجل الشعر ، (إن انْفَرقتْ عقيقتُه) فَرَقَ ، وإلاَّ فلاَ ، يُجاوزُ شعرُه شحمة أذنيه (إذا هو وَفَّرَه) ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزجَّ الحواجب ، سَوَابِغَ في غير قرَنٍ ، بينهما عِرْق يُدِرُّه الغضبُ ، أَقْنَى العرنَيْنِ ، له نورٌ يعلوه ، يَحْسَبُهُ من لم يتأمَّلْه أَشمَّ ، كثَّ اللحية ، أَدْعَجَ ، سَهْلَ الخدَّين ، ضليعَ الفم ، أَشْنَبَ مفلَّجَ الأسنانِ ، دقيقَ المَسْرُبة ، كأنَّ عُنُقَه جيد دُمْيَةٍ في صَفَاءِ الفضَّةِ ، معتدِل الخَلْق ، بادِنٌ مُتماسِك ، سواءُ البطن والصَّدْر ، عرِيض الصَّدْر ، بعيد مابين المنكبين ، ضخْم الكراديس ، أنور المتجرَّد ، موصولُ ما بين اللَّبَّة والسُّرَّة بشعْرٍ يجري كالخط ، عارِي الثَّدْيين والبطن ممَّا سوى ذلك ، أشعر الذِّراعين ، والمنكبين وأَعَالي الصَّدْرِ ، طويلُ الزَّنْدَيْنِ ، رحبُ الرَّاحة ، سَبْطُ القصَبِ ، شثْنُ الكفَّيْن والقَدَمَيْن ، سابلِ الأطراف ، خُمْصَانُ الأخمَصَيْن ، مَسِيْحُ القَدَمَيْن ، ينبُو عنها الماءُ ، إذا زال زال قَلْعاً ، يخْطُو تكَفُّؤاً ، ويمْشِي هَوْناً ، ذرِيْع المِشْيَةِ ، إذا مَشَى كأنَّما يَنْحَطُّ مِن صبب ، وإذا التفتَ التفتَ جميعاً ، خافض الطَّرْف ، نَظَرُهُ إلى الأرض أطول من نظرِه إلى السماء ، جُلُّ نظرِه الملاحظةُ ، يسُوْقُ أَصحابَهُ ، ويبْدَأُ مَن لقِيَهُ بالسَّلامِ.

قلت: صفْ لي منطقه. قال: «كان رسولُ الله ﷺ متواصِلَ الأحزان ، دائمَ الفكرة ، ليست له راحة ، لا يتكلَّم في غير حاجة ، طويلَ السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، يتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فَصْل لا فضول ولا تقصير ، دَمِث ، ليس بالجافي ولا المَهين ، يعظِّم النِّعمة وإن دقَّت ، لا يذم منها شيئاً ولا يمدحه ، ولا يقوم لغضبه ـ إذا تُعرِّض للحق ـ شيءٌ حتى ينتصر له ، وفي رواية: لا تغضبه الدنيا وما كان لها ، فإذا تُعرِّض للحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفِّه كلِّها ، وإذا تعجَّب قَلَبها ، وإذا تحدَّث يصل بها ، يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض ، وأشاح ، وإذا فرح غضَّ طرفه ، جُلُّ ضحكِه التبسُّم يفترُّه عن مِثْل حبِّ الغَمام. (حياة الصحابة ، للشيخ يوسف الكاندهلوي ، ص ٨٦ ـ ٩٢) ، طبع دار ابن كثير بدمشق. =

كان ﷺ أول من يعمل بما يأمر الناس به:

هذه شهادات أقرب الناس إليه ﷺ ممَّن خالطوه، وعاشروه، وعرفوا دخائله، وهي تدلُّ على أن سيرته الطاهرة كانت أعلى ما تكون عليه سيرة أفضل البشر، ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعدما أوحي إليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به، فدعا الناس إلى ذكر الله ومحبته، ولو راقبت حياته نفسها لرأيتها ملائمةً لهذه الدَّعوة؛ لأنه لم تكن تمضي عليه ساعة من نهار أو ليل إلا وهو يذكر الله بقلبه، ويحمده بلسانه، فكان لسانه رطباً بذكر الله، لا يفتر عنه طرفة عين، فإذا أكل، أو شرب ذكر اسم الله، وإذا فرغ من ذلك حمد الله، وإذا أخذ مضجعه أو استيقظ من نومه ذكر الله، وإذا نهض، أو جلس سبَّح الله، أو حمده، وإذا لبس جديداً شكر الله، حتى أن أذكاره ودعواته التي حفظها الناس عنه في مختلف الأحوال شغلت فراغاً واسعاً من كتب الحديث، وجمعت في كتاب (الحصن الحصين) الذي يبلغ مئتي صفحة، ومن قرأ هذه الأدعية يقضي العجب؛ ويوقن بأنه ﷺ كان يحب الله، ويخشاه، ويهاب جلاله، فكان كما وصف الله في القرآن عباده الصَّالحين ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١] وكما شهدت عائشة بأنَّه ﷺ كان يذكر الله، ولا يغفل عن ذكره أبداً.

وأمر الناس بالصلاة، وحضَّهم على إقامتها والمحافظة عليها أشدَّ المحافظة، فماذا تحسبون الرسول كان يعمل في نفسه بما كان يأمر به غيره؟ إنه ﷺ كان يقيم الصلاة، ويحافظ عليها أكثر من غيره، كان المسلمون يقيمون الصلوات المفروضة خمساً. وكان ﷺ يتطوَّع بالزيادة على ذلك في صلاة الضحى، وصلاة الإشراق، وصلاة التهجُّد، وكان عامة المسلمين يصلون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم، وكان هو ﷺ يصلي في اليوم

= ومن أراد الاستزادة من قراءة الشمائل فليراجع «سيدنا محمد رسول الله ﷺ، شمائله الحميدة وخصائله المجيدة» للعلامة المحدّث الشيخ عبد الله سراج الدين، وهو من أنفس الكتب الحديثة في الشمائل، طبع مكتبة دار الفلاح، حلب.

والليلة خمسين إلى ستين ركعة من المكتوبة والنوافل. لقد سقطت عن عامة المسلمين فريضة التهجُّد بعدما فرضت عليهم الصلوات الخمس ، لكنَّ الرسول كان يقوم الليل ، ويصلي صلوات لا تسل عن حسنهن وطولهن حتى كانت قدماه تتورمان من طول القيام ، فقالت له عائشة يوماً ـ وقد رأت ما يعاني ﷺ في قيام الليل ـ: إن الله قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ، فما بالك يا رسول الله! تلقى العناء ، وتتعب هذا التعب الشديد؟ فأجابها ﷺ: «**أَفَلاَ أَكُوْنُ للهِ عَبْدَاً شَكُوْرَاً**»[1] وكان في هذه الصلوات معنى محبة الله أغلب عليه ﷺ من معنى الخوف ، فكان يطيل الركوع حتى يخيل إلى من يراقبه أنه ربما قد نسي السجود ، وكان يقيم صلاته من بدء الوحي في فناء بيت الله أمام المشركين الذين كانوا يعادونه ، ويؤذونه إيذاءً شديداً. وقد هجم عليه بعض المشركين وهو في الصلاة فلم يترك صلاته خوفاً منهم. وكان جنباه يتجافيان عن المضجع ، وكان قليلاً من الليل ما يهجع ، ويبيت ساجداً أو قائماً والناس نيام ، وأشد ما يكون إقام الصلاة حين يلتقي الجمعان في ساحة الحرب ، والسيوف مصلتةٌ ، والرِّماح مشرعةٌ ، والقلوب واجفةٌ ، ومع ذلك فإنه إذا حان وقت الصلاة صلى منفرداً أو صَلّى بأصحابه إماماً.

فيتناوب بعضهم الصلاة ، وبعضهم الحرب ، وإمامهم ثابت في الحالين إلى أن يؤدوا فريضة الله ، لا يمنعهم عنها مانع.

أيها القارىء! أحبُّ أن أطوي لك من صحائف القرون السالفة ثلاث عشرة ورقة لأعود بك إلى السنة الثانية من الهجرة. فتعال معي تنظر إلى ساحة بدر: هؤلاء مؤمنون ، وهؤلاء مشركون ، لقد التقى الجمعان ، واشتد القتال بين المشركين والمؤمنين ، وحمي وطيس الحرب ، أين هو الرسول يا ترى؟ هاهو ذا ساجدٌ بين يدي رب العالمين ، يدعوه ويسأله

---

(١) عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قام حتى تفطَّرَتْ قدماه ، فقيل له: أليس قد غفر اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّرَ؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً. [البخاري (١٥٢) ومسلم (٣٧٧)].

النصر المبين بقلبٍ ذاكرٍ ، ولسانٍ بالدعاء ناطقٍ ، وناصيةٍ لعظمة الله ساجدةٍ على الأرض ، لقد أقام الصلاة لأوقاتها ، ولم يؤخرها إلا مرتين : فقد فاتته مرَّةً في غزوة الخندق حين تألب عليه المشركون واليهود ، ولم يمهلوه حتى يؤديها في وقتها ، ومرَّةً أدلج الليل بطوله ، ثم غفا غفوةً هو وأصحابه ، فطلعت عليهم الشمس ، ولم يستيقظوا حتى أيقظتهم بأشعتها ، فقضى ما فاته من الصَّلاة ، ثم لم تَفته ﷺ حتى في مرضه الذي توفي فيه ، بل قد اشتدَّ به المرض ، ووهنت قوته ، فخرج مع ذلك متهادياً بين رجلين من حجرته إلى أن بلغ المسجد ، وصلَّى مع الجماعة ، وقد غشي عليه ثلاث مراتٍ قبل وفاته بثلاثة أيام ، فكان كلما همَّ أن يذهب إلى المسجد غُشي عليه ، ففاتته الصلاة مع الجماعة ، هذا ما كان عليه الرسول من عبادة الله وذكره ، وهذا ما تركه خلفه لم يأتسون به في عبادته ، وذكره لله عز وجل.

وأمر المسلمين بالصوم ، وليس على المسلمين إلا صوم رمضان ، ولكن ما ظنُّكم بالرسول ﷺ وصومه؟ إنه قلَّما يمرُّ به شهر ، أو أسبوع من شهرٍ إلا كان يصوم فيه ، **تَقُوْلُ عَائِشَةُ: كَانَ ﷺ يَصُوْمُ حَتَّى يُظنَّ أنَّه لَنْ يُفْطر**[1]. ونهى المسلمين عن صوم الوصال ، لكنه يواصل الصوم يومين بل ثلاثة أيام متوالية ، لا يأكل فيهن ، ولايشرب ، وذلك الذي يقال له صوم الوصال. وكان بعض الصحابة يحبُّ أن يقتدي به في ذلك ، **فيقول ﷺ: «لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ ، أَيّكُمْ مِثْلِيْ إنَّ رَبِّي يُطْعِمُنِيْ وَيَسْقِيْنِي»**[2] وربما كان يصوم شهرين متواليين: شعبان ورمضان. وكثيراً ما كان يصوم الأيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) من كلِّ شهر ، وكان يصوم ستَّاً من شوال ، ويوم عاشوراء من المحرم ، وكثيراً ما كان يصوم يوم السبت

---

(١) وفي البخاري ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يُفطِر ، ويُفطر حتى نقول: لا يصوم ، وما رأيتُ النبيَّ ﷺ استكمل صِيام شهرٍ إلا رمضان وما رأيتُه أكثر صيَاماً منه في شعبان. [البخاري (١٩٦٩)].

(٢) وفي البخاري: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا تُواصلوا» ، قالوا: إنَّك تُواصِل ، قال: «لستُ كأحدٍ منكم ، إنِّي أُطْعَمُ وأُسْقَى ، أو إنّي أَبيْتُ أُطْعَمُ وأُسْقَى» [البخاري (١٩٦١)].

ويوم الخميس من كلِّ أسبوع ، كذلك كان دأبه وهديه في الصَّوم .

وأمر المسلمين بإيتاء الزَّكاة ، وإنفاق المال في الخير ، لكنَّه بدأ ذلك بنفسه . وقد علمت شهادة أم المؤمنين خديجة له في ذلك يوم قالت له : إنك تحمل الكَل ، وتعين على نوائب الحق ، وتكسب المعدوم ، إنه لم يأمر الناس بأن يتبعوه في ترك الدُّنيا ، ولم يقل لهم ضحُّوا بكل مافي أيديكم من أموال ، ولم يخبرهم بأنَّ ملكوت السَّموات موصدةٌ أبوابه في وجوه الأغنياء ، وإنما الذي أوصاهم به أن يتصدقوا ببعض أموالهم كما قال الله عز وجل ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣]. هذا بينما رسول الله نفسه لم يكن يدَّخرُ من المال شيئاً في بيته ، بل كان ينفق في سبيل الله جميع ما كان يملكه ، ولم يكن قليلاً ما كان يأتيه من خمس الغنائم من ذهبٍ ، وفضةٍ ، ومتاعٍ ، وغيره من عرض الدنيا ، فكان يخرج عنه كله لغيره من الفقراء والمساكين ، ولم يكن يتمتَّع هو ولا أهل بيته بمتع الحياة الدنيا ، فكان حظه وحظُّ أهل بيته من الدنيا الفقر والتعفف ، وكان من سنته بعد أن فتحت أرض خيبر أن يوزِّع على أزواجه من الطعام والحبوب ما يكفيهم عاماً ، لكنه قبل أن ينقضي العام كان ينفد ما وزعه على أزواجه ، فيمسهم الجوع والسغب[1]؛ لأنه كان ينفق على المحتاجين وعلى الضيوف مما يجده في بيوت أزواجه ، يقول عبد الله بن عباس: إنَّ رسول الله ﷺ كان أسخانا وأجودَنا ، وهو أسخى ما يكون في شهر رمضان ، ولم يقل لسائل: «لا» قطُّ طول حياته ، ولم يأكل شيئاً وحده مهما كان قليلاً ، بل يشرك فيه أصحابه ، وقد آذن الناس أن «من مات وعليه دين فَدَيْنُه عليَّ أقضيه عنه ، وما ترك من ميراثٍ فميراثُه لورثته».

جاءه يوماً أعرابيٌّ، فقال: يا محمد! إن هذا المال ليس لك ولا لأبيك ، فأوقر منه جملي ، فحمله رسول الله ﷺ من الشعير والتمر ، ولم يسخط عليه ما أغلظه من القول ، ثم قال: **إنما أنا قاسمٌ ، وخازن ، والله هو المعطي**. يقول أبو ذر: كنت يوماً أمشي مع رسول الله ﷺ في حرَّة المدينة ،

(١) السغب: الجوع مع التعب.

فاستقبلنا جبل أحد ، فقال: «أبا ذر!» قلت: لبيك يا رسول الله! قال: **«مَا يسرُّنيْ أَنَّ عِنْدِيْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهباً تَمْضِيْ عَليَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ ، وَعِنْدِيْ مِنْهُ دِيْنَارٌ ، إلا شَيءٌ أَرْصدُهُ لِدَينٍ»**[1].

إخواني! لا تحسبوا أن ما قاله ﷺ إنما هو كلماتٌ عذبةٌ ، وألفاظٌ يتجمَّل بها ، بل قال ما قاله عن عزيمةٍ ، ولم يظهر للناس إلا ما كان يكنُّه صدرُه ، ويعمل به مدَّة حياته ، جاءه مرةً من البحرين ذهبٌ ، وفضَّةٌ ، وأموالٌ جمَّةٌ ، فأمر بوضع ذلك كله في فناء المسجد ، ثم غدا على الناس يصلي بهم الصبح دون أن تقع عينه على ذلك المال في الجهة التي وضع فيها ، فلما انصرف من الصلاة دعا الناس ، وطفق يوزع المال عليهم حتى فرغ منه ، فقام ينفض يديه وثوبه لئلا يكون علق بثوبه الطاهر شيء من غبار ذلك المال ، وجاءه من فدك أربعة جمال موقرة بالطعام ، فقضى به بعض ديونه ، وآتى منه بعض الناس ، ثم سأل بلالاً: هل بقي من ذلك الطعام شيء؟ فأجابه بلال: لقد بقي منه شيء وليس هاهنا من يأخذه. فقال ﷺ: لا أدخل بيتي ما بقي منه شيء. وبات تلك الليلة في المسجد ، فلما أصبح بشره بلال قائلاً: إنَّ الله قد وضع عنك. يعني: أنَّ بقية الطعام قد قسمت ولم يبق منه شيءٌ ، فشكر الله. ودخل بيته ذات يوم بعد صلاة العصر على غير عادته ، ولم يلبث أن خرج منه فاستغرب الناس ذلك ، فقال لهم: إني تذكَّرت في الصلاة أن في بيتي شذرةً من الذهب فخشيت أن يجيء الليل ، وهي في بيت محمد. ودخل بيته ذات يوم حزيناً كئيباً ، فسئل عن ذلك ، فقال: يا أمَّ سلمة! إنَّ ما جاءنا من الدنانير السبعة قد بقي في الفراش ، وقد حان المساء. وممَّا يدلُّ على زهده ﷺ في الدُّنيا ومتاعِها: أنَّ الرسول ﷺ مرض مرضه الذي توفي فيه ، وكان يتقلب على فراشه من شدَّة المرض ، فتذكر وهو في هذه الحالة أنَّ في بيته دنانير ، فأمر أن يُتصدَّق بها ، وقال: أيلقى

---

(١) وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: «ما يسرُّني أنَّ لي أحداً ذهباً تأتي عليَّ ثالثةٌ ، وعندي منه دينار ، إلاَّ دينارٌ أرْصُدُهُ لِدَيْنٍ عليَّ» (أي أعدّه). [مسلم (٢٣٠٢)].

محمد ربه وقد خلف في بيته دنانير؟! فهذا ما كان عليه ﷺ في حياته من إنفاق المال والصَّدقة.

لقد رغَّب محمدٌ رسول الله ﷺ في الآخرة، وزهَّد في الدُّنيا، وحثَّ على القناعة بالقليل منها، والكفاف من العيش، فلننظر إلى عيشه كيف كان يعيش ويحيا، لقد علمتم أنَّ الله بسط على المسلمين الدُّنيا، ووسع في أرزاقهم، فكانت تُجبى إليه الأموال من الخراج، والعشر، والجزية، والزكاة، والصدقات، وكانت قوافل الإبل تحمل الطعام والمال إلى المدينة، أمَّا رسولُ الله ﷺ فلم يكن له حظٌّ من تلك الأموال الكثيرة، وكان أهل بيته في ضنكٍ وكفاف، تقولُ **عائشةُ رضي الله عنها: تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ وَلَمْ يَشْبَعْ يَوْمَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ**[1]. وتقولُ: **لَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِهِ يَوْمَ الْتَحَقَ ﷺ بالرَّفِيْقِ الأَعْلَىٰ سِوَىٰ صَاعٍ وَاحِدٍ مِنْ شَعِيْرٍ، وَكَانَتْ دِرْعُهُ مَرْهُوْنَةً عِنْدَ يَهُوْدِيٍّ بِصَاعٍ مِنْ شعيْرٍ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَقُوْلُ: «مَا لابنِ آدم مِنْ دُنْيَاهِ غَيْرُ بَيْتٍ يَأْوِيْ إِلَيْهِ، وَثَوْبٍ يَلْبسُهُ، وَخُبْزٍ جافٍّ يأكُلُهُ، ومَاءٍ يَشْربهُ»**[2].

ولم ينطق ﷺ بهذه الكلمات في الزهد بالدُّنيا إلا وقد رضي لنفسه بهذا القدر، وعمل به طول حياته، ولم يمدَّ عينيه إلى زهرة الدنيا وزينتها، فكانت له حجرة مطينة غير مشيدة جدرانها، وكان سقفها من الخوص والوبر. تقول عائشة: لم يُطوَ ثوبه أبداً. تعني أنه لم يكن له ثوب آخر غير الذي على جسده الطَّاهر، جاءه مرة سائل يشكو الجوع الشديد، فأرسل إلى أزواجه يطلب للسائل طعاماً من بيوتهن، فلم يجد عند إحداهن شيئاً غير الماء. ويقول طلحة[3]: رأيت رسول الله ﷺ يوماً مضطجعاً على فرش المسجد، يتململ من الجوع، وشكا إليه بعض الصحابة الجوع ذات مرة،

---

(١) رواه البخاري في نفقة نساء النبي ﷺ بعد وفاته (٣٠٩٧) وفي وفاة النبي ﷺ (٤٤٦٧)].

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤١) في الزهد، باب (٣٠) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي، صحابي من الشجعان والأجواد، ومن المبشرين بالجنة، كان من دهاة قريش وعلمائهم، شهد سائر المشاهد، قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة رضي الله عنها، ودفن بالبصرة. وله ٣٨ حديثاً مروياً.

وكشفوا عن بطونهم ، فإذا حجر قد شدَّه كلُّ واحدٍ على بطنه ، وأراهم ﷺ بطنه ، وقد شدَّ عليه حجرين ، وكان صوته ﷺ يضعف أحياناً من شدة الجوع ، وذهب مرَّةً إلى بيت صاحبه أبي أيوب الأنصاري[1] وهو جائع ، فصنع له أبو أيوب طعاماً ، وقطف له بعض الرُّطب من حديقته ، فلما قدم إليه الطعام أخذ منه خبزاً ووضع عليه شيئاً من اللحم ، وقال: ابعثوا به إلى فاطمة ، فإنها لم تأكل شيئاً منذ أيام ، وكان يحبُّ بنته وسبطيه حباً جماً ، غير أنَّ حبَّه لهم لم يحمله على أن يكسوهم لباساً ناعماً ، أو يحلي بنته حليةً ثمينةً ، ورأى فاطمة قد لبست ذات يوم قلادةً من الذهب جاءها بها زوجها عليٌّ كرَّم الله وجهه ، فقال ﷺ لها: يا فاطمة أتحبين أن يقال أن بنت محمد قد لبست طوقاً من نار؟ فنزعت تلك القلادة من عنقها ، واشترت بثمنها عبداً وأعتقته ، ورأى عائشة قد لبست سوارين من ذهب ، فأمرها أن تنزعهما ، فنزعتهما حين قال لها: هذا لا ينبغي لآل محمد ، وكان يقول: يكفي الإنسان من الدُّنيا ما يتزود به الغريب في سفره ، هذا قوله ، أما عمله فيدلُّ عليه ما روي أنَّ أحد الصحابة دخل عليه فرآه قد أثر الحصير في جسمه الشريف ، فقال: ألا نهدي إليك فراشاً وثيراً؟ فأجابه: مالي ولدنياكم ، ليس لي إليها حاجة إلا كما يستظلُّ الراكب في طريقه؛ ليستريح ساعةً من نهار ، ثم يمضي قدُماً. وفي السنة التاسعة للهجرة وكانت رقعة الدولة الإسلامية قد امتدَّت إلى اليمن ، والشام ، ولا ينفذ فيها إلا أمره ، حتى أنَّه لم يكن يملك إلا إزاراً وسريراً خشناً ، لا فرش له ، ووسادةً حشوها ليف ، وقليلاً من الشعير ، وجلدَ حيوانٍ في ناحيةٍ من البيت ، وقربةَ ماءٍ معلقةً على وتد ، فإذا كان ذلك هو تزهيده الناس في الدنيا ، فهذا هو عمله الذي رأيتم.

---

(١) هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة ، أبو أيوب الأنصاري ، من أكابر الصحابة ، شهد سائر المشاهد ، كان شجاعاً صابراً تقيّاً محباً للغزو والجهاد ، كان يسكن المدينة ، فرحل إلى الشام ، شارك في غزوة القسطنطينية مع يزيد ، توفي فدفن في أصل حصن القسطنطينية ، له ١٥٥ حديثاً مروياً.

إخواني! لاشكَّ أنّكم سمعتم كثيراً من الناس يخطبون في «الإيثار» ويحثُّون الناس عليه ، فهل رأيتم مثالاً عملياً للإيثار في صحيفة حياة واعظٍ؟ إذا شئتم أن تروا الأمثلة عليه فالتمسوها في سيرة الرسول الأعظم الذي علم الإنسانية فضائل «الإيثار» وحذرها عواقب «الأثرة». أنتم تعلمون مبلغ حبه لابنته فاطمة رضي الله عنها ، ومع ذلك فإنها كانت تطحن بيدها حتى مَجَلَتْ ، وتحملُ قربة الماء على صدرها حتى اخضرَّ. فجاءته ذات يوم تسأله خادمةً ـ والإماء يومئذٍ كثيرةٌ ـ فقال لها: يا فاطمةُ! لم أفرغ بعد من حاجات أهل الصُّفة ، فكيف أقضي حاجتك؟ ويروى أنه قال لها: إن أيتام شهداء بدر سبقوك في أمر الخوادم والعبيد. وأهدت إليه صحابيةٌ رداءً في أحد الأيام ، فنظر إليه أحد الحاضرين ، وقال: ما أجمل هذا الرداء! فدفعه إليه.

وأراد أحدُ الصَّحابة أن يقيم مأدبة فرحٍ له ، ولم يكن عنده ما يقدِّمه للأضياف ، فأتى النبيَّ ﷺ يستعينه ، فأرسله إلى عائشة لتعطيه سلَّة دقيق كانت في بيتها ، فذهب ورجع بها ، ولم يبق في بيت الرسول تلك الليلة ما يأكله.

هلمي ما عندك من طعام ، فجيء بطعام من نخالة ، فلم يشبعهم ، فقال لها: هلمي شيئاً آخر ، فجيء بحساء من تمر ، ثم بقدح من لبن ، ولم يكن في بيته غير ذلك ، فكان اللبن آخر ما قدمه للأضياف ، فآثرهم بكلِّ ما عنده.

وإن شئت أن تشاهد المثل الأعلى للثقة بالله ، والاعتماد عليه؛ فشاهد ذلك في بيت هذا الرسول ، فإنَّ الله أمره بقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فامتثل أمر ربه. وأنت تعلم أنَّه بعث في أمَّةٍ أميَّةٍ ذات حميَّةٍ وأنفةٍ تمنعها أن تسمع كلمةً مخالفة لعقائدها ومزاعمها ، وهان عليها أن تموت في سبيل ذلك ، لكن الرسول ﷺ قام برسالته صابراً مثابراً ، فكان يوحِّدُ الله في المسجد الحرام ، ويصلِّي على أعين المشركين في فناء المسجد الذي كان نادياً لهم ومجتمعهم ، فكان

يركع لله ويسجد أمامهم غير مبال بهم ، ولما نزل قول الله سبحانه ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] صعد بين جبل الصفا ونادى المشركين ، فلما اجتمعوا إليه بلَّغهم دعوة الله ، وقد امتحنوه بضروبٍ من الأذى ، حتى ألقوا عليه مرَّةً سَلَى جزورٍ وهو قائم يصلي في فناء البيت الحرام ، بل أرادوا مرَّةً أن يخنقوه بالرداء ، وألقوا الشوك في طريقه ، لكنه صبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

ولما همَّ عمه أبو طالب أن يخرج من ذمَّته ، ويمسك يده عن حمايته ، قال له وقد حميت أنفته: «**يَا عَم! إنَّ قريشاً لَوْ وَضَعُوْا الشَّمْسَ في يَمِيْنِي ، وَالْقَمَرَ في يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِره اللهُ أو أَهْلَكَ فِيْهِ ما تَرَكْتُهُ**»[1]. وإنَّ قريشاً قد حصرته وبني هاشم في شعب أبي طالب مدَّة ثلاثة أعوام ، ومنعوهم الطعام ، حتى كان الصبيان يتضورون جوعاً ، واضطر الرجال أن يقتاتوا بورق الشجر ، ثم بيَّتوا قتله ، لكن الرسول ﷺ لم يداخله الخوف ، ولم يتردَّد في تبليغ الرسالة التي بعث بها ، ثم خرج إلى المدينة واختفى في طريقه مع صاحبه أبي بكر في غار ثور ، وتتبعه المشركون حتى بلغوا مدخل الغار ، واقتربوا منه ، ولو نظروا إلى أقدامهم لرأوه ، وفزع أبو بكر في تلك الساعة العصيبة ، فقال: يا رسول الله! إنما نحن اثنان ، فقال له ﷺ بصوت تمازجه الطمأنينة: «**مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا ، لاَ تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا**»[2] ووعدت قريش من يأتي به جائزةً قدرها مئةً من الإبل ، فخرج سراقة بن جعشم[3] يركض فرسه ، وبيده رمحه ، حتى اقترب من الرسول ، فقال أبو بكر: يا رسول الله! قد أدركنا ،

---

(١) السيرة النبوية «لابن هشام» الجزء الأول ، ص ١٠٠.

(٢) رَواه البخاري في كتاب التفسير (٤٦٦٣).
وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

(٣) هو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ، صحابي أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ ، أرسلته قريش ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ توفي سنة ٢٤ هـ ، وله ١٩ حديثاً مروياً في كتب الحديث.

وكان أبو بكر يكثر الالتفات يميناً ويساراً ، أما الرسول فكان هادئ النفس ، مطمئن القلب ، يذكر الله ، ولا يلتفت إلى شيء ، وبعد أن نجاه الله وبلغ المدينة لم يأمن غوائل قريش ، ومكايد اليهود ، فكان محاطاً بالأخطار من كلِّ جانب ، حتى كان المسلمون يحرسون بيته في الليل ، فنزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فخرج لساعته من الخيمة وقال للذين يحرسونه: اذهبوا فإنَّ الله وعدني بعصمته ، وتولَّى حفظي[١].

ورجع من غزوة نجد[٢] ، فاستظلَّ بشجرةٍ في ساعة الهاجرة ، وتفرَّق عنه أصحابه ، ولم يبق عنده أحد ، ولما غلبته عيناه جاءه أعرابي من المشركين وقد سلَّ سيفه ، فانتبه الرسولُ ﷺ ، فقال له الأعرابي: «مَنْ يَعْصِمُكَ مِنِّي؟» (تأمل حرج هذا الموقف) ، فأجابه ﷺ وجأشه رابطٌ ، وقلبه مطمئن بالإيمان: «الله!» فما طرقت هذه الكلمة سمع الأعرابي حتى تأثر بها وأغمد سيفه[٣].

وخرج المسلمون إلى ساحة بدر في قلَّةٍ من العَدد والعُدد ، وهم لا يزيدون على ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر مقاتلاً بعضهم معه سيف بلا رمح ، وبعضهم معه رمح ولا سيف معه ، وعدوهم نحو ألف مقاتلٍ في سلاحٍ تامٍّ وعتادٍ كامل ، فالتقى الجمعان ، وحمي وطيس الحرب. ترى أين هو قائد جيش المسلمين؟ انظر ، هاهو قد اعتزلهم لاجئاً إلى ربه يدعوه تارةً ،

---

(١) قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فقلتُ: يا رسول الله! ما شأنك؟ قال: «ألا رجل صالح يحرسنا الليلة». فقالت: بينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح ، فقال: «من هذا» قال: سعد وحذيفة ، جئنا نحرسكُ. فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ غطيطه ، ونزلت هذه الآية ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة أدم ، وقال: «انصرفوا يا أيها الناس ، فقد عصمني اللهُ» (أسباب النزول ، للواحدي ، ص ١٥٨) ، طبع دار ابن كثير بدمشق.

(٢) سميت هذه الغزوة «غزوة ذات الرقاع».

(٣) انظر الحديث بكامله في صحيح البخاري في كتاب المغازي ، باب «غزوة ذات الرقاع» (٤١٣٥).

ويستفتح على المشركين ، ويسجد لله تارةً وهو يقول : «**اللهُمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ! اللهُمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْم!**»[1] .

وربما وقع الخلل في صفوف المسلمين ، وتفرقوا عن الرسول ، فيبقى هو ثابتاً في موضعه كالجبل الذي لا يزعزعه شيء واثقاً بربه متوكلاً على تأييده راجياً نصره ، كما وقع في سفح أحد حين تفرق عنه أكثر الصحابة ، فثبت هو مكانه ، والمشركون تارة يحملون عليه بالسيوف ، وأخرى يشدُّون عليه بالرماح ، ويرمونه أحياناً بالحجارة والسهام ، حتى انكسرت ثنيته ، وشدخ رأسه ، ودخلت في رأسه حلقة المغفر ، ففي تلك الساعة الرهيبة كان واثقاً بنصر الله الذي وعده بعصمته فلا يخذله ، وكذلك وقع في حُنين حين كانت سهام المشركين تقع على المجاهدين المسلمين كالمطر ، فتفرَّق المسلمون ، لكنَّ الرسول ﷺ لم يبرح مكانه ، بل ظلَّ ثابتاً يدعو الناس إلى الله وهو يقول :

أَنَـــا النَّبِـــي لا كَـــذِبْ أَنَـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ المُطَّلِـــب[2]

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام و«زاد المعاد» لابن قيم الجوزية ، ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «لما كان يوم بدر نزل رسول الله ﷺ وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مدَّ يديه ، فجعل يهتف بربِّهِ «اللهمّ! أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني! اللَّهمَّ آتِ ما وَعَدْتَنِيْ! اللَّهمَّ! إنَّك إنْ تُهْلِك هذه العصابة مِن أهلِ الإسلامِ لا تُعْبَد في الأرْض!» فما زال يهتف بربِّهِ مادّاً يديه ، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عَن منكبيه . [مسلم (٤٥٨٨)].
لقد شفع الرسول ﷺ لهذه العصابة المؤمنة في هذه الساعة الحاسمة الدقيقة ، بالكلمة الوجيزة التي تجلت فيها الثقة والاضطراب والسكينة والافتقار جنباً لجنب ، فكانت أدق تعريف بهذه الأمة وأدق تحديد لمركزها ومكانتها بين الأمم ، وقيمتها وغنائها في هذا العالم ، والثغر الّذي ترابط عليه ، وهو الدعوة إلى الله ، وإخلاص الدين ، والعبادة له . وقد أثبت الانتصار الرائع المعجز الّذي أبطل كل تجربة ، صدق هذه الكلمة ودقتها ، وأنها كانت تصويراً دقيقاً لهذه الأمة . (العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي في «السيرة النبوية» ص ٢٢٣ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق).

(٢) رواه البخاري في المغازي ، باب غزوة حنين (٢٨٦٤) ومسلم في الجهاد والسير ، باب غزوة حنين (٤٦١٥).

ثم ترجل عن مطيته وقال: «**أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُوْلُهُ**» ورفع يديه يسأل الله ويدعوه.

إخواني! هل سمعتم بقائدٍ باسلٍ لا يبالي بقلَّة جيشه، ونقص عُدَّتهم، ولا ينكص على عقبيه، ولا ينسحب من ساحة القتال، وإن تفرَّق عنه جنده، ويستغني عن سلاحه باستنجاد ربه، وطلب نصرته؟ ذلك كان مبلغ ثقته بالله، ويقينه بنصرته، واعتماده على مدده[1].

مقارنة بين عظة أحبوا أعداءكم ومعاملة النبي ﷺ لأعدائه:

وإخالُكم سمعتم بواعظٍ يعظ الناس بأن يحبُّوا أعداءهم، ويحثهم على مودة مبغضيهم، وأن يزجروا الطير تمرُّ سعداً للذين يزجرون لهم الطير تمرُّ نحساً، لكنِّي لا أحسبكم رأيتم مثالاً عمليّاً لاتِّعاظ الناس بهذه المبادىء، فتعالوا معي إلى مدينة الرسول؛ لنرى أمثلةً رائعةً للعمل بالمبادىء، لا أظنكم ترون مثلها في أمكنةٍ أخرى، واتركوا ما جرى في مكَّة؛ فإن النبي ﷺ لم تكن له فيها قوةٌ، فلا نضرب المثل منها للحلم، والعفو عن مقدرة، لكنَّه لما خرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر تعقَّبهما سراقة، وهما في طريقهما إلى المدينة، وكان يطمع بجائزة قريش وهي مئةٌ من الإبل لمن يأتيها برأس الرسول، فجعل يركض فرسه والطمع في الجائزة يستفزه حتى دنا منهما، وخاف أبو بكر على الرسول، ودعا الرسول ربه أن يعصمهما من شره، فساخت قوائم فرس سراقة في الرَّمل، فاضطر أن يترجَّل، وجعل يستقسم بالأزلام كعادتهم في الجاهلية فخرج له الذي يكره ثلاث مرات، ومع ذلك ظلَّت قوائم الفرس في الرَّمل فأيقن سراقة بالشرِّ، وعزم على الرجوع، فنادى الرسول وطلب منه الأمان، وأن يكتب له بذلك كتاباً، وأن لا يؤاخذه يوم تعلو كلمتُه، فيتغلب على قريش، فأمر الرسول أبا بكر، فكتب له كتاب الأمان، فلما فتحت مكة ورأى سراقة بعينه كيف

---

(١) وكان هذا يعني أن معيار صدقي ليس بانهزام جيش أو انتصار جيش، ولكن معيار صدقي نابع من ذاتي (أي من كونه ﷺ نبي الله ورسوله) [رحمة للعالمين، للشيخ سُليمان المنصور فوري، ص ١١٨، طبع دار السلام، الرياض].

تغلَّب الرسول ﷺ ، وعلت كلمتُه دخل في الإسلام ولم يؤاخذه الرسول بما كان يريده من قتله ، بل لم يسأله عن ذلك البتَّة.

وقد علمتم أبا سفيان ومكانته من مشركي قريش ، ونشاطه في مقاومة الإسلام ، حتى لم يَدَع النبيَّ ﷺ يقرُّ قراره ، ويطمئن باله في المدينة ، وهو الذي زحف بالجيوش ، وعبأ المشركين في بدرٍ ، وأحد ، والخندق ، وكان قائدهم في معظم الحروب التي قامت بين المسلمين ومشركي العرب ، وكم من مسلمٍ قتل ، وجريحٍ جُرح في تلك المعارك ، لكن أبا سفيان هذا مع كلِّ ما تقدَّم منه جاء إلى النبي ﷺ مع عمه العباس قبل فتح مكة ، ولو أنه قتله لكان بذلك معذوراً ، لكنَّه ـ وهو الذي بُعث رحمةً للعالمين ـ وقد وسعت رحمته أبا سفيان فشمله بعفوه[1] ، ولم يكتف بالعفو حتى أكرمه وأعزَّه ونادى في الناس يوم فتح مكة: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**».

وعرفتم هنداً زوجَ أبي سفيان في الحروب ، وهي التي كانت مع لدَّاتها من نساء المشركين ترجز ، وتحرض على القتال ، وتخطب في غزوة أحد ، وهي التي مثلت بعمِّ النبي ﷺ حمزة ، فلما رأى النبي ﷺ عمه حمزة بعد الحرب ، وقد مُثِّل به ، جزع لذلك المنظر المؤلم ، ومع كل هذا فقد أتته هند يوم الفتح متنقبةً فلم يتعرَّض لها ، ولم يسألها عما فعلت ، بل عفا

---

(١) انطلق الرسول ﷺ إلى مكة في عشرة آلاف من المسلمين ، وبعد أن ساروا مرحلتين لقيهم أبو سفيان وعبد الله بن أمية ، وكانوا من الّذين بالغوا في إيذاء الرسول ﷺ ، وحاولوا كل محاولة للقضاء على الإسلام ، فرآهما الرسول ﷺ ، وأعرض عنهما ، فقالت له أم سلمة: يا رسول الله! أبو سفيان ابن عمِّك ، وعبد الله ابن عمتك ، وبعدها قال علي ـ رضي الله عنه ـ لأبي سفيان أن يأتي النبي بمثل ما قاله إخوة يوسف وذلك طلباً لعفو الرسول ﷺ ، فجاء أبو سفيان ، وقرأ للنبي الآية: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] فقال له الرسول ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] (زاد المعاد ، ١/ ٤١٣ ، وابن هشام ٢/ ٤٠١).

وهاهو أبو سفيان بعد أن ظلَّ يؤلب الجيوش ضدَّ الرسول ﷺ سبع سنوات ، ويُلهب نار الحرب ضدَّ المسلمين في جميع البلاد ، يُعلن اليوم الإسلام ، ويُرسل حاكماً على منطقة نجران النصرانية.

عنها ، وصفح. فلما رأت هذا العفو النبيل أكبرته ، ولم تتمالك أن صاحت قائلة: يا محمد! لم يكنْ أهلُ خباءٍ أبغضَ إليَّ من أهل خبائِك قبل اليوم ، وأنا اليومَ ليس أهلُ خباءٍ أحبَّ إلي من أهلِ خبائك!

وبعد فتح الطائف خرج وحشيٌّ[١] قاتل حمزة رضي الله عنه هارباً يلتمس مكاناً آخر ، فاختبأ به ، فلما أظلَّ سلطان الإسلام هذا المخبأ الذي لجأ إليه وحشيٌّ قال له قائل: إنك لا تعلم ما نعلم من أمر محمد ﷺ ، إنك لن تجد لنفسك مأمناً إلا عنده ، فحضره خائفاً ، فلما وقع عليه نظر النبي ﷺ غضَّ عنه بصره ، وتذكر في تلك اللحظة عمه حمزة ، وقتله بيد هذا الرجل ، فذرفت الدُّموع من عينيه الشريفتين ، وهاهو القاتل أمامه ، ولو أراد أن يقتصَّ منه لكان ذلك حقاً وعدلاً ، لكنه عفا عنه ، واكتفى بأن صرفه قائلاً: «إليك عني! فإني إذا رأيتك تذكرت عمِّي حمزة وشهادته».

وهذا عكرمة[٢] وأبوه أبو جهل كانا أعدى عدوٍّ للإسلام ، والمسلمين ، ولرسول الله خاصَّةً ، فأبو جهل آذى النبي الكريم أذىً لم يُؤْذَه أحدٌ مثله ، وابنه عكرمة قاتل المسلمين ، فلمَّا فتح الله مكة لرسوله خاف على نفسه مما فعله هو وأهل بيته بالنَّبيِّ والمسلمين ، ففرَّ ناجياً بنفسه إلى اليمن ، وكانت زوجه قد أسلمت من قبلُ ، وعرفت الرسول حقَّ المعرفة ، فذهبت بنفسها إلى اليمن ، وربطت على قلب زوجها ، وهدَّأتْ روعه ، ورجعت به إلى المدينة ، فلما بلغ النبي ﷺ قدومه سارع إليه يرحب به ، حتى سقط عنه رداؤه ، ثمَّ قال لعكرمة بن أبي جهل وهو فرحٌ مسرور: «مرحباً بالرَّاكِبِ الْمُهَاجِر» وهل تعلمون بمن يرحب رسول الله ﷺ ، ومن هو هذا القادم الذي فرح ﷺ بقدومه حتى سقط عن منكبه رداؤه ، وشمله بعفوه ، وصفحه؟

---

(١) بعد إسلامه كان لا يرفع وجهه أمامه ﷺ خجلاً وندامةً ، ثم كفَّر عن جريمته السابقة بقتل مسيلمة الكذاب.

(٢) هو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي القرشي ، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام ، بعد إسلامه كان من أجلاء الصحابة ، وكبار المجاهدين ، والفاتحين ، استشهد في اليرموك سنة ١٣ هـ.

إنَّ هذا كلَّه لرجلٍ سبق منه قبل إسلامه أن قاتل المسلمين وآذاهم ، بل هو ابن الذي ألقى على رسول الله ﷺ سلى جزور ، والذي همَّ أن يهجم عليه ، وهو يصلي في المسجد الحرام ، والذي همَّ أن يخنقه بالرداء ، والذي أشار في دار الندوة بقتل حامل هذه الرسالة الإلهية إلى الإنسانية ، والذي أوقد نار الحرب بساحة بدر ، وكاد للإسلام المكايد ، ولم يقبل الصلح . هذا ابن ذلك العدو الألدِّ ، ولم يكن هذا الولد قد اعتزل أباه ، بل شاركه في جميع فعلاته ، فلما قدم على النبي ﷺ وهو في أوج قوَّته هشَّ له ، وبشَّ ، ورحَّب به ، واستقبله بوجهٍ طلْقٍ ، وصدرٍ رحب .

وهبار بن الأسود(١) هو الذي كان في الحقيقة قاتل زينب بنت الرسول ﷺ ، وله فعلات أخرى ، وجرائم شتَّى ، وقد خالف المسلمين أشدَّ الخلاف ، فلما فتح الله مكة لنبيه أهدر ﷺ دمه ، فأراد هبار أن يهرب إلى فارس ، ثم عدل عن ذلك ، وبدا له أن يحضر مجلس الرسول ﷺ ، فلما جاءه قال : يا رسول الله! كنت هممت أن أفرَّ إلى بلاد فارس ، لكنني تذكرت عفوك العام ، وصفحك الشامل ، فجئتك معترفاً بجميع ما بلغك من ذنوبي ، فلما سمع النبي ﷺ اعترافه ، شمله بعفوه الذي وسع أعداءه جميعاً ، وفتح له باب رحمته الذي ما زال مفتوحاً للجميع .

وعمير بن وهب(٢) تآمر على قتل النَّبيِّ ﷺ مع صفوان بن أمية بعد وقعة بدر ، فخرج إلى المدينة يترصَّد النبيَّ ﷺ ، ومعه سيف مسموم ، فوقع

---

(١) هو هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد العزى ، هو الذي عرض للسيدة زينب بنت الرسول ﷺ وهي تركب الهودج من مكة إلى المدينة فنخس بها البعير حتى سقطت ، وأسقطت جنينها ، وتوفيت في النهاية من جراء هذه الصدمة.
هجا الأسود النبيَّ ﷺ قبل إسلامه ، وقد أسلم فيما بعد وحَسُنَ إسلامُه . توفي بعد ١٥ هـ.

(٢) هو عمير بن وهب بن خلف الجمحي ، أبطأ في قبول الإسلام ، لكن بعد إسلامه كان من الشجعان ، شهد مع المسلمين أحداً وما بعدها ، توفي بعد سنة ٢٢ هـ.

أسيراً بأيدي المسلمين ، وثبتت عليه جرائمه ، فخلَّى النبيُّ ﷺ سبيله ، ولم يمسه بسوء .

وكان صفوان بن أمية[1] لما تآمر مع عمير بن وهب على حياة النبي ﷺ ، وحرَّض عميراً على إتمام هذه الجريمة تعهَّد لعمير بأن يعول عياله ، ويقضي عنه ديونَه لو أنه هلك في هذه المغامرة ، فلما فتح الله مكة للنَّبيِّ ﷺ فرَّ صفوان هارباً من مكة إلى جدة ليركب منها البحر إلى اليمن ، فجاء عمير إلى النبيِّ ﷺ يخبره بذلك ، فأعطاه النبي ﷺ الأمان لصفوان ، فطلب عمير من النبي ﷺ أمارةً على أمان صفوان فأعطاه عمامته ، فلما لقي عمير صفوان ، وألحَّ عليه بالرُّجوع أبدى له الخوف على نفسه ، فذكَّره عمير بما كان من النبيِّ ﷺ لما وقع في أسر المسلمين ، وحدَّثه بما جبل عليه النبيُّ ﷺ من كرم النفس ، وسعة الصَّدر ، وسجاحة الخلق ، وعظيم العفو ، فانقاد له صفوان ، وذهب إلى المدينة ، فلما حضر مجلس النبي ﷺ؛ قال له : بلغني أنَّك قد أعطيتني الأمان ، فهل هذا حقٌّ؟ فأجابه ﷺ : نعم . فقال للنبيِّ ﷺ : لست داخلاً بيتك حتى تمهلني شهرين ، فأجابه : لقد أمهلتك أربعة أشهر . ولم تنقض تلك المدة حتى صلح حال صفوان ، وتغيَّر قلبه ، ودخل في الإسلام .

ولما فتح رسول الله ﷺ خيبر معقل اليهود العظيم ، وحصنهم المنيع ، صنعت يهودية طعاماً ودعت إليه النَّبي ﷺ ، فأجاب دعوتها : فقدَّمت له لحماً مسموماً ، فلما تناول منه؛ أعلمه الله بذلك ، فأمسك يده عنه ، ودعا باليهودية ، فسألها عن الشاة المسمومة ، فاعترفت بجريمتها ، وقد بلغ من حلم رسول الله ﷺ أن تجاوز عنها ولم يؤاخذها على ذلك بسوءٍ ، وبقي مدة حياته ﷺ يشعر بأثر ذلك السُّم .

وتقدَّم آنفاً أنَّ الرسول ﷺ عند منصرفه من نجد استظلَّ في الهاجرة

---

(١) هو صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي ، صحابي ، فصيح ، جواد ، كان من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام ، أسلم بعد الفتح ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، شهد اليرموك ، وتوفي بمكة سنة ٤١ هـ وله ١٣ حديثاً مروياً .

بشجرةٍ ، وعلَّق فيها سيفه ، ثم ساوره النوم ، وقد ابتعد عنه الصحابة ، وتفرقوا لحاجاتهم؛ إذ جاءه أعرابيٌّ من المشركين كان يرصده ، فأخذ السيف ، واخترطه ، ودنا من الرسول ، فاستيقظ ﷺ ، فقال له الأعرابيُّ: من يعصمك مني؟ فقال له الرسول وقلبه مطمئن وجأشه رابط: الله! فلما سمع المشرك هذا الجواب الذي لم يكن يرتقبه تأثر ، وأغمد السيف ، وفي غضون ذلك رجع بعض الصحابة والأعرابيُّ لابثٌ لم ينصرف ، فلم يتعرض له الرسول ، ولم يعاقبه على ما كان همَّ به. وكذلك وقع في أسر المسلمين أعرابيٌّ كان راصداً لقتل الرسول ، فلما أحضر إليه ﷺ ذعر الأسير ، فسكَّن الرسول روعه وخفف عنه وقال له: لو أردت قتلي؛ ما قدرت عليه.

وقبض المسلمون على ثمانين من المشركين يوم فتح مكة ، وكانوا ممَّن يحرصون على قتل الرسول ، فلما بلغه أمرهم؛ أمر بتخلية سبيلهم ، ولم يمسسهم بسوء.

إخواني! إنكم تعلمون الطائف وأهلها ، وكيف قابلوا الرسول بالشرِّ والأذى أيام كان في مكة يعاني صنوفاً من المصاعب والمعضلات ، إنَّ أهل الطائف لما عرض عليهم الرسول نفسه ليجيروه؛ جبهوه ، وردُّوه أقبح ردٍّ ، ولم يصغوا إلى دعوته ، إنَّ سيد الطائف ورئيسها عبد ياليل[1] استهزأ به هو وعشيرته ، وأغرى به طغام أهل الطائف ، وسفلتها؛ ليسخروا منه ، فلما مر بالطريق وقد اصطفوا صفَّين رموه بالحجارة ، فجرحت قدماه ، وسالت منهما الدِّماء على حذائه ، وكان ﷺ كلما جلس يستجمُّ من التعب يمنعونه من الجلوس ، وإذا مرَّ بهم يرجمونه بالحجارة[2]. وإن ما لقيه من أذى أهل

---

(١) هو عبد ياليل الثقفي ، الّذي كان قد أرسل العبيد والغلمان خلف رسول الله ﷺ في الطائف ليرموه بالحجارة ، يحضر في النهاية إلى المدينة ، ومنها حمل إلى قومه جواهر الإيمان واليقين.

(٢) ولكن قلب الرسول ﷺ كان مملوءاً بحب الله وعظمته بعدما كابد في هذا السفر من الأذى والألم ، فدعا الله بالكلمات التالية: «اللهمّ إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ =

الطائف لم ينسه طول حياته. ولقد سألته عائشة بعد ذلك بتسع سنين عن أشدِّ ما لقيه من بلاءٍ فأخبرها بأنه يوم الطائف، وكان بعد ذلك أنْ زحف المسلمون على الطائف في السنة الثامنة للهجرة، وحاصروها، فأطالوا حصارها، واستعصى عليهم حصنها الحصين الذي قتل فيه كثيرون منهم، فهمَّ الرسول أن يرجع عنهم، لكن أصحابه أبوا إلا الفتح، وسألوا النبيَّ ﷺ أن يدعو على أهل الطائف، فرفع يديه إلى السماء يدعو فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ أَهْلَ الطَّائِف، اللَّهُمَّ أَلِنْ قُلُوبَهَمُ لِلإِسْلاَمِ، وَمَكِّنْهُ فِيْهَا».

هذه هي رحمة الرسول، وسعة صدره، وسجاحة خلقه، وكرم نفسه، يدعو بالخير للذين آذوه بالشرِّ أشدَّ الأذى، وأبوا أن يجيروه حين استجار بهم، ثم قاتلوه أشدَّ القتال، ومع كل هذا لم يسأل الله لهم إلا أعظم ما يعلمه من الخير، وهو الهدى. أرأيتم رجلاً آخر في الدنيا بلغت الرحمة من قلبه هذا المبلغ؟ أجيبوني بالله عليكم، ولا تقولوا إلا الصدق.

دارت رحى الحرب على المسلمين بعد أن كانت الغلبة لهم، وذلك لأنهم خالفوا أمر الرسول، واستهوتهم أموال المشركين، فاشتغلوا بجمع الغنائم، وحينئذ كرَّ عليهم العدوُّ، فانهزموا، وزلزلت أقدامهم، فأحاط المشركون بالرسول، ورموه بالسهام والحجارة، وقاتلوه بالسلاح، فانكسرت ثنيته، وشجَّ رأسه، ودخل فيه ثلاث حلقات من البيضة، وتضرَّج بالدم، فلم يزد ﷺ في ذلك الموقف الرهيب على أن قال: **«كَيْفَ تُفْلِحُ أُمَّةٌ تَقْتُلُ نَبِيَّهَا؟ اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِيْ فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ!»**، وإذا كان المسيح عيسى ابن مريم قد قال في عظة الجبل «أحبب عدوك» فإن محمَّداً رسول الله لم يقتصر على إرشاد الناس بلسانه بأن يحبوا أعداءهم، بل أراهم بسيرته وعمله كيف يكون موقفهم من أعدائهم.

= غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». وجاء هذا الدعاء في تاريخ الطبري بهذه الألفاظ [الطبري ٢/ ٢٣٠].

إنَّ عبد يا ليل ـ وأظنكم تذكرون اسمه ـ قد جبه الرسول هو وعشيرته بالمكروه ، وآذوه أذى شديداً. فلما نزل مع قومه على الرسول ﷺ في المدينة بعد ذلك أنزله في مسجده ، وضرب له قبّةً فيه ، وجعل يزوره بعد كلِّ عشاء ، ويقصُّ عليه ما كان يلقى وهو في مكة من عناءٍ وجهد ، ومن هو عبد يا ليل؟ هو الذي استقبل الرسول ﷺ في الطائف بالأذى ، ورجمه بالحجارة ، وسامه الخسف ، فهل عُهد من أحدٍ فيما مضى أن يحبَّ عدوَّه ، ويعفو عنه بمثل هذه السماحة عند المقدرة؟ ولما فتح المسلمون مكة ، ودخلوها أعزةً ظافرين؛ اجتمع رجالٌ قريش ، وأشرافها بفناء المسجد الحرام ، وفيهم من كان قد شتم الرسول ، وأذاقه ضروب الأذى ، وفيهم من كان قد ائتمر عليه بالقتل ، وفيهم من كذب برسالته وافترى عليه ، وفيهم من قاتله ، وتذرَّع بكل وسيلة لمحو الإسلام ، وفيهم من طعن النبي بالرمح ، وضربه بالسَّيف ، وفيهم من آذوا فقراء المسلمين ، وضعفاءهم ، وكووا صدورهم وظهورهم بالجمر الملتهب ، كل أولئك من رجال قريش وساداتها كانوا يوم فتح مكة واقفين منكسي رؤوسهم صاغرين ، ولعلهم كانوا يتذكرون ما سلف منهم ، وتحز ذكراه في ضمائرهم مترقّبين أن يوقع بهم الرسول جزاء ما اقترفوا ، وحقَّ لهم أن يخافوا ، فإن الذي أجلَوه عن وطنه ، وأخرجوه من داره قد عاد إليهم فاتحاً عزيزاً ، يقود تحت راياته عشرة آلاف من الأبطال الباسلين؛ الذين ينتظرون أوامر سيدهم لينفذوها.

في ذلك الموقف الرَّهيب سأَلَهُمُ الرَّسُوْلُ: **مَاذَا تَرَوْنَ أَنِّيْ فَاعِلٌ بِكُمْ؟** قَالُوْا: خَيْرَاً. أَخٌ كَرِيْمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيْمٍ. فَقَالَ ﷺ: **أَقُوْلُ الْيَوْمَ مَا قَالَ يُوْسُفُ لإِخْوَتِهِ ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] اذْهَبُوْا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**(١).

هـذه هـي محبَّـة الأعـداء ، والعفـو عنهـم. وهـذا مـا حقَّقـه محمـد رسول الله ﷺ ، وضرب به المثل للسماحة التي لا عهد للدُّنيا بمثلها ، فذلك هو العفو والصفح ، وتلك هي دماثة الخلق ، وسعة الصدر ، وكرم

---

(١) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤٢٤.

المعدِن. إنَّه لم يدع الناس إلى فضيلة إلا بدأ بها بنفسه. لم تكن دعوته كلماتٍ عذبةً يرسلها على الناس، ولكنها كانت عملاً يتقدَّم به إلى الإنسانية؛ ليكون لها منه أسوة وقدوة.

إنَّ دعاة الديانات الأخرى يُسمعون الناس مواعظَ حلوةً من أقوال أنبيائهم، ومصلحيهم. أما دعاة الإسلام فيقدِّمون للإنسان أمثلةً عمليةً من سنة نبيهم وهديه. ولذلك كتب الله الخلود لهذه السنة وهذا الهدى، والدِّين الإسلاميُّ كما يدعو الأمم إلى كتاب الله يدعوها كذلك إلى سنة نبيه الكريم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. إنَّ هذا يدلُّ على أنَّ الرسول نفسه مثالٌ لهذه الدعوة، وحياتُه حياةٌ مثاليةٌ للبشر جميعاً، وهذا من خصوصيات الإسلام، فكما سنَّ الإسلام للناس القوانين والأحكام، عرض عليهم كذلك حياة النَّبيِّ ﷺ لتكونَ مثلاً لهم يقتدون بها في حياتهم..

ولذلك كان يقول لهم: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[1]. وكانوا يتداولون أخباره في آداب المعاشرة مع الأولاد، والأزواج، ويروون قوله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي**»[2].

ولما وقف بعرفات في حجَّة الوداع كان عددُ أصحابه من حوله نحو مئة ألف أو يزيدون، فبلغ رسالات ربه الأخيرة، وأعلن فيهم أحكامه، وأبطل بقايا رسوم الجاهلية، ومحا ما بقي عالقاً من آثار مفاسدها، واستأصل شرَّها، وأزال أسباب الحروب بين الأمة العربية، وأبطل دواعي الملاحم التي لم تكن قبل ذلك تنقطع. لكنَّه لما أعلن إبطال دواعي الجاهلية بدأ بنفسه أولاً، فقدَّم من عمله ما يدعو الناس إلى أن يقتدوا به، فخاطب مئة ألف من العرب الذين شهدوا موسم الحج قائلاً لهم:

---

(١) رواه البخاري عن مالك بن حويرث، في الأذان باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة (٦٣١).

(٢) رواه الترمذيُّ عن عائشة ـ رضي الله عنها في المناقب باب في فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٩٥).

«إِنَّ دِمَاءَ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوْعَةٌ تَحْتَ قَدَمي ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَم ابْنِ رَبِيْعَةَ ابْنِ الحَارِث[1]»[2].

وأبطل ربا الجاهلية ، وأول ربا أبطله ربا عمه العباس بن عبد المطلب.

وتأتي الكرامة والشرف مع النفس والمال. وإنَّ معالجة الأمور المتعلقة بأعراض الناس وشرفهم من أشدِّ الأمور وأعضلها ، وإصلاحُ ذلك يعد غضّاً من كرامات الناس ، ونيلاً من شرفهم ، لذلك قلما اجترأ المصلحون على إصلاح الرسوم الفاسدة المتمكنة من نفوس الناس ، والضاربة جذورها في أعماق قلوبهم ، حتى إنَّها لتجري في عروقهم مجرى الدم. أما الرسول ﷺ فإنه علَّم الناس المساواة بين جميع الطبقات ، ودعاهم إلى الأخوة الإنسانية بأدقِّ ما تصل إليه معانيها ، حتى إنَّ الرقيق الذي كان في اصطلاح الجاهلية

---

(١) اسم هذا القتيل إياس ، كان مُسترضعاً في بني سعد فقتلته هُذَيْل.

(٢) هذه قطعة من الخطبة ، ونذكر هنا نص الخطبة بكاملها ، للموعظة البليغة ، والفوائد الكثيرة التي تشتمل عليها وهي:
«يا أيها الناس! إني لا أراني وإياكم نجتمع في هذا المجلس أبداً.
إنَّ دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، وربا الجاهلية موضوعٌ ، وأول ربا أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كلُّه ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهم ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهنَّ عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فماذا أنتم قائلون؟
قالوا: نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس: «اللهمّ اشهد» ثلاث مرات (معدن الأعمال (١١٠٧) ـ عن وابصة رضي الله عنه رواه ابن عساكر ـ وروى مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جابر:
ولما فرغ الرسول ﷺ من الخطبة نزلت هذه الآية الكريمة في نفس المكان: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

أذلَّ الناس ، وأحقرَهم ، دعاه ﷺ بنفسه ، فاتخذ غلامه زيداً بمنزلة الابن ، وسوى بين الرقيق والعربي الحرِّ الكريم المحتد ، الشريف النِّجار . وكان قد بلغ الإباء والفخر والخيلاء بالعرب إلى أن كانوا يراعون ذلك في الحرب أشدَّ المراعاة ، فكانت القبائل تتفاضل في درجات الشرف والكرم ، والذي يزعم لنفسه أنه أشرف من غيره ، وأرفعُ قدراً يشمخ بأنفه مترفعاً عن أن يدنس[1] سيفه في القتال بدم من يراه دونه شرفاً ، وكرماً ، ومنزلة . أما رسول الله ﷺ؛ فقد أذَّنَ في الناس : أنَّ الناس كلَّهم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] وبهذا التعليم الجديد أعلن أنَّ الناس كلَّهم سواسيةٌ إلا بالفضائل ، فلا تعلو طبقةٌ على طبقةٍ ، ولا طائفةٌ من القوم على طائفةٍ أخرى ، وأصبح السيد ، والمولى ، والغني ، والفقير سواءً ، لا يتفاضلون إلا بالنفوس الرضيَّة ، والأعمال الصالحة . ولم يبق للنسب وزنٌ في ميزان الإسلام . واحتاج هذا التعليم إلى عمل يؤيده ، ويقويه ، ويقيم له وزناً في أعين الناس . وكان النبي ﷺ لما تبنَّى[2] زيد بن حارثة زوَّجه زينب بنت جحش (وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ) وكان المُتَبَنَّى في نظام الجاهلية مثل الولد من الصُّلب ، فكانوا يحرمون على أنفسهم نكاح حلائل من اتخذوه ابناً لهم ، كما يحرمون على أنفسهم نكاح حلائل الأبناء من الصلب ، وقد جرَّ هذا الحكم الجاهلي مفاسد عظيمة في حياة الأسرة عند العرب ، فلما جاء الإسلام بإصلاح رسوم الجاهلية الفاسدة؛ أبطل بعضها ، وعدَّل بعضها ، فلما أراد أن يبطل أحكام الجاهلية في المُتَبَنَّى ، مست الحاجة إلى أن يبطل هذا الحكم الفاسد بعمل من أعمال الرسول ، ولا يخفى أنَّ الشرف من أشدِّ ما يحافظ عليه الناس ، ولا سيما العرب ، فأقدم الرسول على ما دعا إليه من إبطال حكم التبني ، وتزوج زينب حليلة زيد

---

(١) يدنِّس سيفه : يوسِّخه .
(٢) تَبَنَّى فلاناً : اتخذه ابْناً .

بعدما طلقها زيد ، وبذلك امّحى هذا الرسم الفاسد ، ولم يبق له أثرٌ بعد عين.

إنَّ حياة الرسول ملأى بالأمثلة ، وعامرةٌ بالوقائع التي تدل على أنه ﷺ قدَّم حياته للإنسانية لتكون أسوةً لأبنائها. وأنا طمعاً مني في الإيجاز ، ووقوفاً بالسامعين عند هذا الحدِّ لكيلا يسأموا ، أمسك عن الإطناب في هذه المحاضرة؛ لأن الوقت قصيرٌ ، والبحثَ طويلٌ.

مقــارنةٌ بينه ﷺ وبين الأنبيــاء من آدم إلى عيسى عليهم الصلاة والســلام:

إخواني! تأمَّلوا حياة الأنبياء من آدم إلى عيسى!.... وتفكَّروا فيمن سلف من المصلحين ، والذين بعثوا بهداية الخلق؛ من الشام إلى أقصى الهند ، فهل تعرفون واحداً منهم عمرت حياته بمثل هذه الأعمال الجليلة المتنوعة ، وبمثل هذه الأفعال العظيمة الكاملة؛ التي يرى فيها الناس أسوةً لهم ، ومنهاجاً لحياتهم الشخصية والاجتماعية؟

وإليكم الآن كلمةً واحدةً: إنَّ أحد الواعظين والخطباء يذكر في مواعظه وخطبه (الحبَّ الإلهي) بكلماتٍ عذبةٍ ، وألفاظٍ فصيحةٍ رائعةٍ ، ولكن ـ كما قيل ـ إن الشجرة تعرف من ثمرها ، فماذا كان أثر الحبِّ الإلهي الطاهر في حياته العملية؟ ولكن تعالوا ادرسوا سيرة هذا الرسول العربيِّ الذي كان يحبُّ الله؛ تجدوه قائماً في ظلمات الليل يصلِّي والناس نيام.

ثم ترونه باسطاً ذراعيه إلى السماء يسأل ربه إقامة الحق ، وتيسير الخير ، وقلبُه خاشعٌ ، وطرفهُ دامعٌ ، ولسانهُ رطبٌ بحمد الله ، وتسبيحه ، وتمجيده ، أليست هذه هي صورة الحبِّ الإلهي في أكمل حالاتها؟

إنَّ نبي الله عيسى ابن مريم لما قبض عليه أعداؤه ، وأرادوا صلبه ، انطلق لسانه منادياً: «إيلي ، إيلي ، لِمَ سبقتني!» أي: ربي ، ربي ، لماذا تركتني ، وخذلتني. أما محمد رسولِ الله فإنه لما دنا من الموت ، وأيقن أنَّه تارك هذه الدنيا ، وكادت روحه الطاهرة تفيض صاعدةً إلى ربها ، أخذ

يناجي ربه قائلاً: «اللَّهُمَّ إِلَى الرَّفِيْقِ الأَعلى»[1] ، فهو في حنينٍ شديدٍ إلى لقاء ربه ، وفي شوقٍ عظيمٍ إلى رفيقه الأعلى. فأيُّ الجملتين أدلُّ على الحبِّ الإلهيِّ ، وأيهما أصرح في الحنين إلى لقاء رب العالمين عزَّ جلاله ، وعظم سلطانه؟

اللهم صلِّ عليه ، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

* * *

(١) روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ـ كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح : «لم يُقبَضْ نبي قطُّ حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخيَّر» فلما نزل به ـ ورأسه على فخذي ـ غُشِيَ عليه ساعةً ، ثم أفاق ، فأشخص بَصَرَه إلى السقف ، ثم قال: «اللّهُمّ الرَّفيق الأَعلى» قلت: إذاً لا يختارنا ، وعلمتُ أنّه الحديث الّذي كان يحدِّثنا وهو صحيح ، قالت: فكانت تلك آخر كلمةٍ تكلم بها ، «اللّهُمّ الرَّفيق الأعلى» [البخاري (٦٣٤٨)].




المحاضرة السَّابعة

رسالةُ رسولِ الإسلامِ إِلى جميعِ الأَنام




ما هي السِّيرةُ الكاملـة الجامعـة في الرَّسول ، ومـاذا بلغ عن ربِّــه؟

سادتي! بينتُ فيما سبق من المحاضرات الستِّ أنَّ حياة الأنبياء هي التي يجدر أن تُتَّخذ أسوةً ، وأنَّ سير الرسل هي التي تستحقُّ أن تكون قدوةً لبني آدم أجمعين من بين سائر الطوائف العليا من الناس ، وأنَّ السيرة التي تستحقُّ أن تكون أسوةً لجميع الناس إلى يوم القيامة من بين سير جميع الأنبياء والمرسلين هي سيرةُ محمَّدٍ ﷺ في حياته الشريفة.

ولما تبيَّن أنَّ سيرة الرسول العربي هي السيرة «المثالية» وفيها الأسوةُ الكاملة للعالم كلِّـه ، فإنَّ لسائلٍ أن يسأل: ما هي الحيـاةُ الكاملـةُ ، والسيرةُ الجامعةُ في هذا الرسول ، وأيُّ شيءٍ في رسالته للناس من ربِّ العالمين ، وماذا بلَّغ الناس عن ربِّه ، وما هي الأحكامُ اللازمة في رسالته التي بعث لأجلها هذا النبيُّ الذي ختم الله به رسالاته ، وأغناهم به عن أيِّ نبيٍّ يأتي بعده ، وكيف أصلح خاتم الرسل برسالته الأحكام السالفة من الأنبياء السابقين ، وأكمل ما كان ناقصاً منها بسبب مقتضى البيئة ، وطبيعة الحال؟

ولا شكَّ أنَّ الله سبحانه قد بعث كثيراً من الأنبياء في مختلف العصور ، وأنزل للبشر أحكاماً على ألسنة رسله ، وقد قُلنا مراراً ، وأثبتنا بدلائلَ واضحةٍ أنَّ أولئك الرسل خُصَّتْ رسالاتُهم ببعض الأمم ولبعض الأزمان ، لذلك لم تمسَّ الحاجة إلى حفظها من عوامل التصحيف والتحريف ، ولم تتعلق عناية الله بصيانتها من أيدي البلى ، وعبث الدَّهر ، ووجدت بعد ضياعها تراجم دخلها كثيرٌ من التغيير والتبديل ، فبعدت التراجم عن أصلها كلَّ البُعد ، واختلفت ، وألحق بها ، وزيد فيها كثيرٌ مِمَّا لا أصل له في الصُّحف المنزلة ، وأنَّ ضياع تلك الأصول الأولى دليلٌ واضحٌ على أنَّ تلك الرسالات كانت لزمنٍ محدودٍ قد مضى ، ولولا ذلك لاقتضت حكمة الله بقاء أصولها.

كفالـةُ الله حفظ الرسالة المحمَّـديَّـة لأنها رسالة الحاضر والمستقبـل :

أما ما بعث الله به خاتم رسله محمداً ﷺ فقد تولى حفظه ، وسيبقى محفوظاً من كلِّ تحريف ، أو تصحيفٍ إلى يوم القيامة ؛ لأنَّه آخر رسالات الله ، وسيبقى للبشر ما بقي في الدُّنيا بشر ، ولذلك أعلن الله صفة الكمال والتمام لهذه الرسالة ، ووعد بحفظها ، ولم يعلن مثل ذلك ، ولم يَعِدْ به في أيِّ كتابٍ آخر من كتبه ، وأية رسالة من رسالاته ، بل على العكس من ذلك نجد النصَّ في سفر التثنية من التوراة[1] .

على أنَّ رسالة موسى مؤقتةً ، وأنَّ الله باعثٌ غيره بغيرها «يقيم لك الربُّ إلهك نبيَّاً من وسطك ـ من إخوتك ـ مثلي ، له تسمعون» ، وقال : «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعلُ كلامي في فمه ، فيكلمهم بكلِّ ما أوصيه به»[2] . وقال : «هذه هي البركة[3] التي بارك بها عبد الله موسى بني إسرائيل قبل موته ، فقال : جاء الربُّ من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران[4] ، وأتى من ربوات القدس ، بيمينه نار شريعة لهم» . فهذه الآيات من سفر التثنية في التوراة تدلُّ على أنَّ الله يبعث نبيَّاً مثل موسى في يمينه نار شريعةٍ ملتهبةٍ ، وأنَّ الله يلقي في فمه كلاماً ، فيكلم الناس بكل ما يوحيه الله إليه . وهذا أوضح دليل على أن شريعة موسى لم تكن آخر الشرائع ، ولا أدومها إلى يوم القيامة . وهذا النبي أشعيا يبشر ببعثة نبيٍّ آخر في الإصحاح ٤٠ من السفر المنسوب إليه ، وفي سفر ملاخي بشارة برسول من رسل الله ، وكذلك سائر أسفار بني إسرائيل والزَّبور تدلُّ كلُّها على أنَّ ما كان عندهم لم يكن آخر رسالات الله ، ولا اتصفت شريعتهم بالبقاء والدوام . وادرسوا الأناجيل كذلك ؛ فإنكم تجدون في إنجيل يوحنا :

---

(١) التوراة (١٨ : ١٥) .

(٢) التوراة (١٨ : ١٨) .

(٣) التوراة (٣٣ : ١ ـ ٢) .

(٤) برية فاران هي التي سكنتها هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام ـ كما في سفر التكوين (٢١ : ٢١) .

«وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر ليبقى معكم إلى الأبد»[1] وفيه: «إنَّ لي أموراً كثيرةً أيضاً لا أقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما حتى جاء ذاك روح الحق؛ فهو يرشدكم إلى جميع الحقِّ، لأنه لا يتكلم من نفسه»[2]. فهذه الآيات من الإنجيل دالةٌ دلالة ليس فيها إيهام على أنَّ مافي الإنجيل ليس آخرَ رسالات الله، ولم تتمَّ به رسالاتُ الله، بل سيأتي بعده نبيٌّ آخر تكملُ به رسالةُ عيسى ابن مريم، أما الرسالة المحمَّدية فلا تنبىء بنبيٍّ آخر يأتي بعدها، ولا بأنها ناقصة ستكمل بشيء يتلوها، إنَّ الرسالة المحمدية تنادي بأنَّها كاملةٌ، وأنَّها تامَّةٌ لا نقص فيها ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. ومحمد ﷺ هو القائل «خُتِمَ بِي النَّبِيُّوْنَ»، «أَلاَ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي»[3]، وأنَّه آخِرُ لَبنَةٍ في بناء النُّبوةِ[4]. كلُّ هذا من الدلائل الساطعة على أنَّ رسالة محمد ﷺ هي الرسالة الخالدة من ربِّ العالمين لجميع العالمين إلى يوم الدِّين. ولذلك تولى الله حفظها، وصيانتها، وعصمتها، فقال عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

الإسلام أول رسالة عامّة في تاريخ الإنسانية:

إخواني! بقي سؤال آخر لابدَّ من الجواب عليه: هل أتى نبيٌّ آخر غير محمد ﷺ برسالة عامَّة لجميع البشر، وهل جاءت من الله رسالةٌ غير الإسلام شملت دعوتها الناس جميعاً؟ إن بني إسرائيل قصروا الدُّنيا على

---

(١) التوراة (١٤: ١٦).

(٢) التوراة (١٦: ١٢ ـ١٣).

(٣) والحديث كما رواه الله أحمد: عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبيّ، وأنا خاتم النبيِّين، لا نبيَّ بعدي» [مسند الإمام أحمد: ٥/ ٢٧٨].

(٤) والحديث كما رواه البخاري في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه «إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجُلٍ بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنةٍ من زاويةٍ فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلاّ وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» [البخاري (٣٥٣٥)].

أنفسهم فجعلوها محدودةً بحدود بلادهم ، بل زعموا أنَّ إله العالمين هو إله أمَّتهم وحدَها ، وخصُّوه تعالى بأنفسهم من دون الناس. لذلك نرى أنبياء بني إسرائيل وأسفارهم لم تعمِّم دعوتها لغيرهم من الأمم ، ولا تزال الشريعة الموسوية والدِّينُ اليهوديُّ مقصورين على الإسرائيليين ، لا يتجاوزونهم إلى غيرهم ، وأسفارُهم لا تخاطب غيرهم ، ولا تدعو لآلهتهم إلا أسباطهم ، بل إنَّ عيسى المسيح لم يرع إلا غنم بني إسرائيل الضَّالة ، ولم يبلغْ رسالته إلا في قراهم ، وأرضهم ، والمنسوبين إليهم؟ ولم يرغب في إعطاء خبز الأولاد للكلاب.

وكذلك صحائف «ويدا»[1] الهندية ، لا تطرق نبراتِ تلاوتها آذاناً غير آذان الأمة الآرية ، وجميعُ النَّاس من غير الآريين أنجاسٌ مناكيد ، وآذان الشودر[2] (أي الأنجاس) إذا سمعت آيات (ويدا) فليصب فيها الرَّصاص المذاب!

أما الرسالة المحمَّدية فهي الأولى ، والأخيرة من رسالات الله التي جعلها الله للناس كافة ، أحمرهم ، وأصفرهم ، وأبيضهم ، وأسودهم ، عرباً كانوا أو عجماً ، من الصين شرقاً إلى أقصى الجزائر البريطانية شمالاً ،

---

(١) ويدا: هي الكتب المقدسة التي يدعي الهنادك أنها منزلة على أنبيائهم من السماء ، وتجمع مجموعة كتب «ويدا» مبادىء الهندوكية ، وهي الكتب الأربعة ، منها «ريجي ويد» (Rigveda) و«ياجوروَيدا» (Yajur veda) و«ساماويدا» (Same Veda) و«أترويدا» (Athar Veda) ، وكل من هذه الويدات الأربعة يشتمل على أربعة أجزاء هي:
«سمهيتا» (Samhita) و«برهمان» (Brahman) و«آرانياك» (Aranyaka) و«أوبانيشاد» (Upanis had) وقد كتبت هذه الويدات الأربعة في لغة سنسكريتية بالأناشيد والأغاني ، التي اعتاد الآريون القدماء أن يتغنوا بها ، ومن المرجَّح أنَّ تاريخ تأليفها يرجع إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد .(Hinduism p.7 by: Lowis Renon) .

(٢) الشودر: ومعنى الكلمة هذه في اللغة السنسكريتية وغيرها في كثير من اللغات الهندية القديمة: المنبوذ ، المتروك ، المهمل ، وتُعرف هذه الطبقة في اللغة الهندية الحديثة اليوم ، وكذلك في اللغة الأردوية باسم «أجهوت» أي: «المنبوذون».

يستوي فيهم التتار، والإفرنج؛ ذلك لأنَّ إله رسول الله محمد ﷺ هو إله جميع الأمم، وهو ربُّ العالمين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] فهو لأجل ذلك مرسل للإنسانية كلِّها﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فرسالة الإسلام رسالة تعمُّ جميع البشر ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ١ـ ٢]، فمحمَّدٌ ﷺ نذيرٌ للدنيا كلِّها، ورسالته تعمُّ العالم أجمع، وحينما ينفذ حكم الله فلتكن شريعة الإسلام قائمةً ورسالةُ محمَّدٍ نافذةً، وقد جاء في سورة الأعراف ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وهذه الآية تعلن عموم الرسالة المحمدية إلى كل من يبلغه نداؤها، وتصلُ إليه دعوتها ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فثبت من هذه النصوص أنَّ الإسلام وحده هو الذي أعلن عموم دعوته للإنسانية كلِّها، وأنَّه هو الدِّين التامُّ الكامل الجامع للمحاسن، ولن يأتي بعده دينٌ غيره، جاء في صحيح مسلم: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعِثَ الأَنْبِيَاءُ قَبْلِيْ إِلَى أُمَمِهِمْ خاصَّة، وبُعِثْتُ إلى الأُمَمِ كُلِّهَا عَامَّة» وهذا يؤيد دعواي، والتاريخ يشهد لها شهادة لا تُرَد، وكما أنَّ السيرة المحمَّدية كاملةٌ تامَّةٌ، وفيها الأسوة لجميع البشر، كذلك دينُ الإسلام الذي جاء به محمَّد ﷺ كاملٌ دائمٌ، وفيه صلاحُ العالم ورشادُه.

الدِّينُ إيمــانٌ وعمـل، ولم يجتمعـا إلا في الإســلام:

ولسائل أن يقول: دلوني على حقيقة الرِّسالة المحمَّدية التي أكمل الله بها الأديان، وتمَّت بها نعمة الله على العالمين، وبها بعث الله خاتم أنبيائه بالسيرة الكاملة، والأسوة الشاملة لجميع البشر مدى الدَّهر، والجواب على ذلك أنَّ الدِّين يشتمل على أمرين: أمرٌ يتعلَّق بقلب الإنسان، ويسمى: (الإيمان): وآخرُ يتعلَّق بجوارحه، وبما يملكه، ويدعى (العمل). والعمل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: أولها يتعلق بالله وهو العبادة، والثاني يتعلق بما يتعاطاه الناس بعضهم مع بعض وهي المعاملات، ومعظمها القوانين والأصول، والثالث يتعلَّق بآداب النفس وآداب المجتمع وهي الأخلاق،

فالدِّين إذاً: عقائد، وعبادات. ومعاملات، وأخلاق، وهذه الأقسام الأربعة اكتملت بالرسالة المحمَّدية، وتعاليم خاتم المرسلين، فبلغت الغاية التي ليس وراءها غاية.

مقارنات بما في رسالة الإسلام والرسالات الأخرى:

والآن تعالوا نستعرض الكتب السماوية لنقارن ما فيها من هذه الأقسام الأربعة: أما التوراة، والإنجيل؛ فالذي فيهما من العقائد لا يروي الغليل، ولا يشفي العليل، نعم نجد فيهما ذكراً لوجود الله، وتوحيده، لكننا لا نجد فيهما دليلاً يريد ذلك، ولا برهاناً يحمل النفوس على التصديق به، كما لا تجد فيهما ذكراً للصفات الإلهية التي تزكو بها الروح الإنسانية، وتطهر بها نفوس البشر، وتنشأ بها محبَّة الله، وعرفانه.

فقبل البعثة المحمَّدية لم يكن الناس يعرفون هذه الأمور، ولا كشفت لهم الحجب عن حقيقة النبوة، والرسالة، والوحي، والإلهام، والصلة بين الله ورسله، ومكانة الأنبياء ومنازلهم، وكيف يؤمن الناس بالنبوة، وما معنى الإيمان بالأنبياء، وما معنى عصمتهم، هذه المسائل كلُّها لم ينكشف أمرها، ولم يقفِ النَّاسُ على بيانها قبل الرسالة المحمَّدية؛ لأننا لم نر نبياً من الأنبياء تصدَّى لذلك، وأفاض فيه، أما الجزاء على الأعمال، وأمر الجنَّة والنار، والحشر، والنشر، والقيامة والحياة بعد الموت، فكلُّ ذلك غامضٌ قليل الوضوح في التوراة، ولا نقرأ عنه في الإنجيل إلا فقرتين في جواب يهودي، والجنَّةُ والنار لا نرى عنهما إلا فقرتين كذلك، بينما الرسالة المحمَّدية هي التي أفاضت في هذه الأمور بوضوح عظيم.

مقارنات بين الوصايا العشر والآيات من سورة الإسراء:

وإذا أردت أن تعرف الملائكة من التوراة التبس عليك أمرهم، وقد يشق عليك أن تميِّز بين حديث التوراة عن الله وحديثها عن الملائكة[1].

وذكر فيها الملكان، والتبست في الإنجيل حقيقة روح القدس التباساً

---

(١) انظر سفر التكوين (١٨ : ١ و١٩ : ١).

تامّاً حتى لا يتسنَّى للقارىء أن يميز بين الله وروح القدس ، بل يصحُّ عنده أنه إلهٌ ، أو ملك ، أما الرسالة المحمدية فقد أوضحت أمر الملائكة ، وكشفت عنهم الحجب ، فأصبح مدلول هذا اللفظ بيِّناً واضحاً ، ومكانة الملائكة وأعمالهم معينةٌ معلومةٌ ، وأسماؤهم مذكورةٌ ، فهم وسائط بين الله ورسله ، وينفذون إرادة الله في تدبير العالم ، وتصريف الأمور في الدُّنيا ، كل ذلك نراه مفصَّلاً في آي الذكر الحكيم.

هذا في العقائد ما قد فصلته الرسالة المحمدية وأوضحت أمره ، أمَّا في الأعمال ورأسها عبادة الله ، فإن التوراة تتوسع في ذكر القرابين ، وآدابها ، وشرائطها ، وفيها ذكر الصَّوم ، والأدعية ، وفيها ذكر بيت إيل ، أو بيت الله ، ومع ذلك فإنَّ هذه الأمور غيرُ واضحةٍ ، ولا تسترعي أنظار الناظرين حتى أنَّ منهم من جنح إلى إنكارها ، وفيما عدا ذلك فإننا لا نجد في التوراة أنواع العبادات وأقسامها ، ولا طرقها ، ولا آدابها ، ولا تعيين أوقاتها ، وليس هنالك عنايةٌ تامةٌ بتعليم العبادة للناس ، وقد أُهمِل جانبٌ عظيمٌ من كيفية ذكر الله ودعائه ، فلا نرى ما يدلُّ على تعليم دعاء خاص لرب العالمين ، وكيف يدعو الناس ربهم ، ويسألونه حاجاتهم. وترى في الزبور أدعيةً كثيرةً ، ومناجاةً للربِّ طويلةً ، لكن ليس فيه ذكر لآداب العبادات ، وشرائطها ، وأوقاتها ، أما الإنجيل فقلَّما ترى فيه ذكراً للعبادات ، بل ليس فيه ذكر للعبادة البتَّة. نعم تجد في فقرة منه[1] ذكراً لتقشف المسيح ، وصيامه أربعين يوماً ، وفي الإنجيل أيضاً اعتراض اليهود على المسيح بأنَّ أصحابه لا يصومون. وفيه ذكر دعاء دعا به عيسى عليه السلام في الليلة التي أرادوا صلبه فيها ، وفي ذلك الموضع دعاء آخر له ، لكننا لا نجد ذكراً لعباداتٍ أخرى.

أما الإسلامُ ففيه: الصَّلاةُ ، والصَّومُ ، والحجُّ ، مفصلةٌ آداب كلٍّ منها وشرائطه ، وموضحةٌ طرق عبادته وسننها ، وهو يرشد الناس إلى كيفية ذكر الله ، وبأيِّ دعاء يدعون ، وبأيِّ كلماتٍ بليغة يسألون ربَّ العالمين ، وقد

---

(١) متى (٤ : ٢).

عيّن لهم مواقيتَ الصلاة ، والصَّوم ، والحجِّ ، وأحكامَ هذه العبادات وسننها ، وكيف يسألون ربَّهم فيها ليستنزلوا رحمته ويستغفروا ذنوبهم ، وكيف يتضرعون إليه ويخشعون له ويناجونه في سرِّهم ويذكرونه في علانيتهم ، وكيف يتوبون إليه معترفين بزلاتهم ، منيبين إليه منها متوخين تزكية نفوسهم ، وتنزيه أرواحهم ، وتطهير قلوبهم ، والتقرب إلى ربهم بكلِّ ما ينالون به مرضاته ، لتكون روحُ الدِّين قائمةً وحقيقتهُ ملموسةً.

والقسم الثاني من الأعمال: المعاملات ، وتستطيع أن تسمِّيها قوانين المملكة ، وأصول المعاشرة ، وهذا الضرب من الأعمال مفصَّلٌ تفصيلاً وافياً في رسالة موسى عليه السلام ، وأقرت الرسالة المحمدية أكثره لكنَّها خفَّفت من شدة أحكامه ، ووسَّعت ما ضاق منها ، فجعلتها صالحةً لتكون قوانين عالمية. وكانت دائرة العمل بها محصورة ببني إسرائيل ، فلما أضاف إليها الإسلام ما نقص منها؛ أصبحت جديرةً بأن يدعو العالم كله لأنه يتخذها قوانين إنسانيةً عالمية. ونحن لا نرى ذكراً لقوانين المملكة في الزبور ، ولا في الإنجيل ، وقد نجد في الإنجيل بعض الأحكام في الطلاق ، أما الأمور الأخرى فلا أثر لها فيه ، مع أنَّ الدِّين العالميَّ الأبديَّ الذي يتكفَّل بحاجات المجتمع البشري يتحتَّم أن يشمل قوانين الدولة ، وأصول المعاشرة ، ولما كان دين عيسى المسيح عليه السلام خالياً من هذه القوانين؛ فقد اضطرت الأمم المسيحية إلى استعارة هذه القوانين من الأمم الوثنية كالإغريق والرُّوم ، بينما الرسالة المحمدية اكتملت فيها هذه القوانين؛ لأنها نظرت إلى هذا الضرب من حاجات الأمم نظراً ثاقباً حكيماً ، فاستوعبته من جميع نواحيه مستقصيةً جهاته كلَّها ، فلم تترك ناحيةً منه إلا وقد أتمَّتها ، فسنَّت قوانين كليةً أقامتها على أصولٍ جامعةٍ استنبط منها الأئمة المجتهدون والأصوليون من فقهاء العلماء أحكاماً لحاجاتٍ جدَّت ، ومقتضياتٍ حدثت ، ولا يزالون يستنبطون منها ، واستمرَّ هذا العمل الفقهي في هذه القوانين ألف سنة من أعمار الدول الإسلامية الراقية ، ذات المدنيات الزَّاهرة ، والحضارات الزَّاهية ، وعمل بذلك المسلمون في مختلف بقاع الأرض وأقطارها ، ولا يعرف العالم كلُّه إلى الآن قانوناً أعدل

ولا أرحم بالإنسانية ولا أصلح لها من قوانين الإسلام.

والقسم الثالث من الأعمال «الأخلاق» وإنّنا نجد في التوراة أحكاماً عديدةً تتعلق بالأخلاق، منها سبعة تعد أصولاً، وليس في هذه الأصول السبعة إلا أصلٌ واحد إيجابي، وهو الأمر بطاعة الوالدين والبرُّ بهما، أمّا الستة الأخرى فكلها سلبية، وهي النواهي: لا تقتلْ، لا تسرقْ، لا تزنِ، لا تشهد على جارك شهادة زور، لا تخادنْ حليلة جارك، لا تطمع في مال جارِك. وبعض هذه الأصول داخل في بعض، فهي في الحقيقة أربعة.

والإنجيل ردَّد هذه الأحكام السَّبعة كما هي في التوراة وزادَ عليها الحثَّ على محبة الغير، فجاء بزيادة واحدة على مافي التوراة، أمّا الإسلام فقد جاء بأحكامٍ كثيرةٍ في المعاشرة، وبقوانين مفصَّلةٍ في المعاملات، وأفاض فيما كان نهراً حتى جعل منه بحراً، وفي الليلة التي أسري فيها بالرَّسول ﷺ أعطى الله أهلَ الإسلام اثني عشر حكماً أساسياً منها واحدٌ في التوحيد، وكلُّها مذكورة في سورة الإسراء.

وفيها خمسةٌ إيجابية ندعوها أوامر، وخمسةٌ سلبية تسمَّى النواهي:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ

---

(١) خشية إملاقٍ: خوفَ فقرٍ وفاقةٍ.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ[(1)] ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٩].

١ ـ بر الوالدين وطاعتهما. و٢ ـ إيتاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه. و٣ ـ الإحسان إلى اليتامى. و٤ ـ الوزن بالقسطاس المستقيم. و٥ ـ إيفاء الكيل. و٦ ـ الوفاء بالوعد (هذه أمور خمسة إيجابية).

١ ـ لا تقتل أولادك. و٢ ـ لا تقتل نفساً. و٣ ـ لا تقرب الزنى. و٤ ـ لا تقف ما ليس لك به علم. و٥ ـ لا تبذر في النفقة واقتصد فيها (وهذه أمور خمسة سلبية).

فإذا قارنتم بين ما جاء به القرآن من الأحكام الأساسية، وما جاء به الإنجيل والتوراة؛ تتبين لكم حقيقة الرسالة المحمدية، ويتَّضح لكم أنها أكملت ما كان ناقصاً في الرسالات السَّابقة التي لم تهتمَّ بذكر الأحكام الأساسية، ولم تقتصر رسالة الإسلام على تكميل هذا النقص، بل عنيت بحل معضلات المجتمع البشري في الأخلاق، ووجهت الإنسانية إلى الطريق المثلى في قواها، ونبَّهت الإنسان إلى نقائصه، وعيوبه، وأمراضه النفسية، ووصفت له دواء كلِّ داء من أدواء النفوس، وأخذت بيده إلى الجادة الوسطى في الأعمال، والأخلاق، والمعاملات، هذا ما أكملته الرسالة المحمدية من الناحية العملية.

ولو شئنا أن نعبِّر عن جميع تعاليم الإسلام بأسلوبٍ موجزٍ، جاز لنا أن

---

(١) بالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيْم: أي: بالميزانِ العدْلِ.

نعبِّر عنها بهاتين الكلمتين الوجيزتين: الإيمان، والعمل الصالح[1] فهاتان الكلمتان تشملان جميع ما جاءت به رسالة محمَّد ﷺ، وتحيطان بكل ما أكملته من عقيدة، وعمل، وخلق، وحسن معاملة، فهما قوام الإسلام وزبدة ما جاء به محمَّد رسول الله، وهما في الواقع قوام الفلاح، والنَّجاة، وملاك السعادة. فمن آمن بالله إيماناً لا يزعزعه شيءٌ، وأطاع الله فيما أُمر به من حقٍّ وخير، وعمل بذلك عملاً صالحاً لا يشوبه سوء، أفلح ونجا. وقد وصف الله في كثير من الآيات شأن المؤمنين الذين يؤمنون بالله، ويعملون عملاً صالحاً، وبشَّرهم تارةً بقوله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وتارة بأنَّهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠] فالفلاح البشريُّ، والفوز الإنسانيُّ يرجع إلى الإيمان بالله والعمل الصالح بما أمر.

وقد كان بودِّنا أن نبسط القول في الإيمان والعمل الصالح، ونوفيهما حقهما من البيان والشرح، لولا أنَّ هذا الموقف لا يساعد على ذلك. والذي يعنينا الآن من الكلام على الرسالة المحمَّدية ناحية الكمال فيها، وإتمامها ما كان ناقصاً في الديانات السابقة، مما يرجع إلى العقائد والأعمال، فأصلحت ما كان من قبل فاسداً، وردَّت البدع الطارئة، وقمعت المفاسد العظيمة الفاشية التي شوهت وجه الإنسانيَّة، وكانت باباً لكلِّ شرٍّ، وأصلاً لكل فساد، وبذلك سدَّت في أصول الدين جميع الثلمات التي تسرَّبت منها المفاسد، فكانت سبباً في انحطاط الإنسانية عن مستواها الكريم.

عناية الشَّرع المحمديِّ بكرامة الجنس البشريِّ ومكانته من سَائر المخلوقات:

وأول مسألة عُنِيَ بها الشَّرع المحمديُّ كرامةُ الجنس البشريِّ ومكانته من

(١) والإيمان الإسلامي بضع وسبعون شعبة، وقد استقصاها أعلام الإسلام فرأوها تدور حول شيئين لا ثالث لهما: الحق، والخير، وكل شعبة من شعب الإيمان الإسلامي لا ريب أنَّها تدخل إما في باب الحق، أو في باب الخير، والعمل الصالح هو عمل المؤمن بما هو مؤمن به، فلا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان من عمل الحق، أو من عمل الخير، وهذا هو الإسلام. (الأستاذ محب الدين الخطيب).

سائر المخلوقات ، وهي مسألةٌ ترجع إلى أمر التوحيد ، فالإنسان قبل الإسلام كان يرى نفسه أحطَّ منزلة من معظم المخلوقات والموجودات ، كان يهاب كلَّ ما عظمت جثته ، ويطأطىء رأسه لكل ما يبدو له أسود حالكاً ، أو أبيض لامعاً ، ولكل ذي لبن سائغ ، أو لعابٍ قاتل ، وبلغ خوفه من مظاهر الطبيعة ومن المخلوقات الضَّارَّة ، ورجاؤه من الأشياء التي يرتقب نفعها ، أن صار يعبد الحجارة الصُمَّ والجبال الشُمَّ ، والبحار الزاخرة ، والأنهار الجارية ، والأشجار الخضراء ، والأمطار الهاطلة ، والنيران الملتهبة ، والصحارى المخيفة ، والأفاعي السَّامة ، والأُسود الزائرة ، والبقر الحلوب ، والشمس البازغة ، والنُّجوم الزاهرة ، والليالي المظلمة ، والأشباح المهيبة ، وفي الجملة كان يعبد من المخلوقات كلَّ ما يخشى شره ، أو يرجو خيره؛ اتقاءً لضرره ، أو طمعاً في خيراته ، فلما بُعث محمدٌ برسالة الله؛ أعلن لجميع البشر بأنَّ هذه المخلوقات كلَّها إنما خُلِقتْ لهم ، ولم يُخْلقوا لها ، وأنَّها مسخرةٌ لهم ، فلا يليق بهم أن يسجدوا لشيءٍ منها. وقال لهم: أيها الناس ، أنتم خلفاء الله في هذا العالم ، وقد سخر لكم كلَّ مافيه جميعاً ، إنَّ الدنيا لكم ، ولستم لها ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ولأجل استخلاف بني آدم في الأرض سمت منزلتهم بين جميع المخلوقات ، وشرَّفهم الله وكرَّمهم ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] فهل يجوز لخليفة الله في الأرض وقد كرمه الله أن يسجد لمن هو دونه ، ويعبد ما هو أصغر منه شأناً؟ وكيف يسجد بنو آدم لشيء غير الله والعالم مسخرٌ من الله لهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ [النحل: ٥] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ ﴾ [النحل: ١٠ ـ ١١]. فلبني آدم الأرض وما فيها من الشجر ، والخضر ، ومن الثمر ، والزهر ، وغيرها من المنافع

والمرافق مما لا يعدُّ كثرةً ، ولا يحصى وفرةً ، ولهم السماء وما فيها من الشمس ، والقمر ، والنجوم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢] ، ولهم البحر وفيضانه ، والنهر وجريانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤] والقرآن الحكيم حافلٌ بكثير من هذه الآيات.

الرسالة المحمدية عرفت الناس بأقدارهم وأنزلتهم منازلهم:

فدلَّت الرسالة المحمدية بذلك على أنَّ موقف الإنسان من هذا العالم موقف السيد الكريم ممَّا سُخِّر له ، وموقف المتوَّج بتاج الخلافة الإلهية من كل ما هو مستخلف فيه ، فالإنسان مكلَّل بإكليل الجلال والعظمة ، لا يفوقه شيءٌ من موجودات الكون ، والكون كلُّه دون الإنسان ، وهو نقطة دائرة العالم ، وإنسان عينه ، والغاية من خلق العالم ، ولأجلهِ جُعلت الدُّنيا. ومما يثير العَجَبَ أن يركع الإنسان لمخلوقٍ ، أو يسجد لما هو دونه ، أو يعبد شيئاً خلقه الله له ، وكيف يفعل الإنسان ذلك؛ وقد كرَّمه ربه ، وشرَّفه ، وفضله على جميع مافي العالم تفضيلاً؟!

ولما جهل الإنسان قدر نفسه جعل يرفع رجالاً من أمثاله فوق درجاتهم ، ويحلّ أناساً في مكانة رفيعة لا يستحقونها ، وقد كان يبلغ الأمر بالإنسان إلى أن يعبد الإنسان. أما رسالة محمد ﷺ فقد عرَّفت الناس بأقدارهم ، وأنزلتْهم منازلهم ، وأعطت كلَّ ذي حقٍّ حقه ، فلم تنقص من حقِّه شيئاً ، ولم ترفع أحداً من الناس فوق مكانته التي يستحقُّها ، فكما لم تحطَّ عزيزاً عن عزته الجدير بها؛ لم ترفع أحداً فوق المقام اللائق به ، وبذلك دلَّت الإنسان على شرفه وعلائه ، وعلَّمته أنَّه مهما كان رفيعاً ، وذا سلطةٍ وبأسٍ؛ فإنه لن تبلغ به رفعته أن يُعبدَ كما كان يريد الفراعنة أن يُعبدوا ، ومهما كان طاهراً عابداً متبتلاً؛ فلا ينبغي لإنسان أن يركع له ، أو يرجو منه ما لا يُرجى إلا من الله ، أو يخشاه كخشية الله ، ومهما حاز من المال الكثير ، والثراء العظيم؛ فليس له أن يستعليَ بذلك على إخوانه من خلق الله. إنَّ رسالة

محمَّدٍ ﷺ قد قطعت الفساد ، واجتثت الشرَّ من أصولهما ، وأعلنت في الناس بوضوحٍ وجلاءٍ هذه الحقيقة : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وأذاعت في العالم عن الأنبياء أنفسهم ، وهم أسمى مراتب البشر أنّهم لا ينبغي لأحدٍ منهم أن يقول للناس ﴿ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

ليس في عالم الشهادة أرفع قدراً من الأنبياء ، ولا في عالم الغيب أعلى درجةً من الملائكة ، ومع ذلك لا يجوز أن يتخذ الناسُ أحداً من الأنبياء ، أو الملائكة معبودين لهم ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ﴾(١) [آل عمران : ٨٠] .

فالرسالة المحمَّدية رفعت مكانة الإنسان ، وقد كانت منحطةً من قبلُ ، فصار لا يخضع ، ولا يحني رأسه لغير الله ، ولا يسجد إلا له ، ولا يمدُّ يده سائـلاً غيره؛ إذ لا معطي لمن منعه الله ، ولا مانع لمن أعطاه الله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الفرقان : ٢] .

الإســلامُ وعقيــدة التَّــوحيــد :

ثمَّ تأملوا أمر التوحيد بعد علمكم بأنَّ الرسالة المحمدية رفعت درجة الإنسان ، وعرفته بقدر نفسه ، إنَّ هذه الرسالة أوضحت حقيقة التوحيد ، ورفعت عن وجهه الحجب الكثيفة ، وأزاحت عنه ظلمات الشرك ، فتجرَّد من كلِّ ما نسجته حوله أيدي الأوهام الباطلة ، والعقائد الفاسدة ، فليس في تعاليم الإسلام ما يدلُّ على أنَّ الله أشرك قيصر معه في الحكم ، وأنَّ قيصر حاكمٌ مثله ، فالإسلام محضَ الحُكْمَ كلَّه لله ، ليس لأحدٍ فيه من نصيب ، فله الحكم في السموات والأرض ، وله الأمر فيهما .

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ٨٠ .

سادتي! إنَّ الإنسان وقد اعتزَّ بالخلافة الإلهية على الأرض ، وارتشف كأس المحبَّة لله وحده ، هل يعقل أن يسجد بعد ذلك لغير الله ، وهل يخامر قلب المؤمن بالله أيُّ خوفٍ من الظلمة ، أو النور ، ومن المياه ، والرياح. وهل يخشى ملكاً عظيماً ، أو يوجس في نفسه خيفةً من صحارى واسعةٍ ، أو جبالٍ شامخةٍ ، أو أرضٍ رحبةٍ ، أو بحارٍ زاخرةٍ ، حتى يسجد لها ، أو يدعو لها خوفاً ، أو طمعاً ، إنَّ المؤمن لا يخشى إلا الله ، ولا يبالي بغير الله ، ولا يطمع في ثراء ثريٍّ ، ولا يرجو غني إلا من الله الغنيِّ عن كل شيءٍ.

انظروا إلى تعاليم الإسلام كيف بلغت بالإنسان ذروة الشرف ، وسَنامَ المجد. وتأمَّلوا كيف رفعت الرسالةُ المحمَّدية المستوى البشريَّ ، ووجَّهت المجتمع الإنسانيَّ نحو الحق والخير.

فطرة الإنسان في الإسلام بريئة في الأصل ولم يولد آثماً:

وأمرٌ آخرُ ، وهو أنَّ الرسالة المحمدية أذَّنت في البشر أنَّ الإنسان نزَّاعٌ إلى الخير ، وأنَّ فطرته بريئة في الأصل ، ثم تطرأ عليها أعماله ، فتجعله آثماً مذنباً ، أو تقيَّاً صالحاً ، فسيئاته التي يقترفها هي التي تؤثِّر فيه ، فتجعلُه شيطاناً مريداً، كما أنَّ حسناتِه التي تصدر عنه هي التي تجلو نفسه، وتهذِّبها، فيكون بها ملاكاً طاهراً ، إنَّ هذه لبشرى عظيمةٌ هتفَ بها محمَّدٌ ﷺ رسولُ الإسلام في بني آدم ، بعد أن كانت الأديان المنتشرة في الهند ، والصين من سالف الأيام تنشر الإيمان بالتناسخ وبعث الأرواح ـ بعد موت أصحابها ـ في أجسادٍ أخرى أرفع منزلةً مما قبلها إذا عملوا أعمالاً صالحةً ، أو في أجسادٍ أذلَّ وأحقرَ ممَّا كانت فيه من قبل إذا اجترحوا السيئات ، وقد ذهب إلى هذا التناسخ بعض النوكى ممن ينتمون إلى حكماء الإغريق ، وجرَّ هذا الاعتقادُ الفاسد وبالاً عظيماً على معتقديه ، فأصبحت حياتُه حياة إكراهٍ وإجبارٍ ، ولا اختيار له فيما يعمل ، فكأنه آلةٌ صغيرةٌ تحرِّكها آلةٌ كبيرة ، وأنَّه ولد مذنباً ، بل ولادته في الدنيا نذيرٌ له بأنه مجرمٌ آثمٌ.

وجاءت المسيحيةُ فثبتت في الناس عقيدة: أنَّ كلَّ مولودٍ يحملُ من ساعة ولادته خطيئة أبيه الأول آدم ، فالمولود يولد آثماً مخطئاً وإن لم يخطىء في

الواقع ، والمخطىءُ الآثمُ بجبلّته يحتاج إلى المغفرة من شخصٍ آخر لم يولد آثماً ، ولم يخطىء بجبلَّته ، فيفدي هذا الشخص الأخير بنفسه خطيئة بني آدم ليذهب بسيئاتهم ، وهذا ما نشرته المسيحية المعروفة عند الناس داعيةً بني آدم إلى الإيمان بالفادي .

أما محمد رسول الله ؛ فقد بشَّر الإنسان بأنه يولد غير آثم ، ولا مجبول على الخطيئة ، ولا مسؤول عن خطيئة أبيه الأول آدم ، وأنه يعيش عيشةً لا إكراه فيها ، ولا إجبار ، وهو مخير في حياته بين أن يعمل صالحاً إن شاء ، فيجنيَ ثمرة صلاحه ونزاهته ، وبين أن يعمل عملاً سيئاً ، فيكونَ بعمله مذنباً آثماً ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين : ١ ـ ٦] .

فالإسلام بشَّر بني آدم بأن قوامهم أحسن ، وفطرتهم أفضل ، وجبلتهم أعدل ، وأنهم بعد هذا الإعداد الإلهي إنما يفسدون ، أو يصلحون بأعمالهم ، وبما يختارونه لأنفسهم ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس : ٧ ـ ١٠] .

وهل من دليلٍ أوضح على حسن جبلة[1] الإنسان ونزاهة فطرته ، وطهارة أصله من قول الله فيه ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2] [الإنسان : ٢ ـ ٣] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار : ٦ ـ ٨] .

الدين والفطرة كلمتان لمدلولٍ واحد :

وإنَّ رسول الله الذي يتحرَّك لسانه بالوحي ، ويصدُر منطقه عن إلهام ، قد جعل الدِّين والفطرة بمعنىً واحد ، أي : إنهما كلمتان لمعنىً واحدٍ ،

---

(١) الجِبلةُ : الخِلْقَة .

(٢) أَمْشاج (جمع : مَشْج) : أخلاط ممتزجة متباينة الصِّفات .

فأصل الفطرة هي الدين الذي دعي الإنسان إليه ، والإثم عارض يعرض للإنسان ، ولاحقٌ يطرأ عليه ، ويقول الله عز وجل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. وقد فسّر الرسول هذه الآيات فيما رواه البخاري في تفسير سورة الروم من صحيحه ، فقال ﷺ: **«مَا مِنْ مَوْلُوْدٍ يُوْلَدُ إلاَّ عَلَى الْفطرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أَوْ يُنَصِّرانِهِ أَوْ يُمجِّسَانِهِ كَمَا تَنْتَج كُلُّ بَهِيْمَةٍ صَحِيْحَةٍ سَلِيْمَةٍ هَلْ تَرَوْنَ فِيْهَا سَكاء»**(١).

إنَّ البُشرىٰ التي بَشَّر بها الرسول ﷺ بني آدم أنَّ كل إنسان مختارٌ فيما يفعله ، غير مكرهٍ عليه ، ولا مجبر ، وليست حياته الحاضرة نتيجةً لحياته الماضية ، فمن آمن بالرسول؛ فقد تغيَّرت وجهة نظره إلى أعماله ، فلا هو كئيبٌ واجمٌ ظنّاً منه بأنه مكره على عملٍ هو استمرار لحياةٍ سالفة.

فكلُّ مَنْ آمن بالرسالة المحمَّدية أصبح بفضلها حرّاً طليقاً من الأوهام الباطلة ، والعقائد الفاسدة؛ التي قَيَّدت حياة البشر ، وغلَّت أيديهم.

النـاسُ سواسيـةٌ في الإسـلام والدنيـا كلُّها لله وحـده:

إنَّ الدنيا قبل بعثة رسول الإسلام ﷺ توزعتها عقائد باطلةٌ ، وأوهام سخيفـةٌ ، فكان أهل كل دير في مملكةٍ من الممالك يحسبون أنَّ مملكتهم هي الدُّنيا كلُّها ، فكان براهمة الهند ، ومتصوفوها يرون أنَّ بلادهم هي أرضُ الله الممتازة ، وما خرج عنها لا نصيب له من رحمة الله ، لأنَّ الله لا يريـد الخيـر إلا لقطّـان بلادهـم ، وأمرُ الرسالـةِ الإلهية ، والهدايـةِ الربانية ، قد اختُصَّ به بعض البيوتات من سدنة المعابد ، لا يعدوهم أبداً ، وكذلـك فإن زردشت يحسب أنَّ الإلـه إنما يُعنى بأمر بـلاده المقدسـة وحدها ، وبأهل وطنه الأخيار ، ولا تعنيه بلادٌ أخرى ، ولا أمَّةٌ أخرى ،

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال النبي ﷺ: «مامن مولود إلاّ يُولَد على الفِطرة ، فأبواهُ يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ، كما تُنتج البهيمَةُ بهيمةً جمعاء ، هلْ تحِسُّون فيها جدْعاءَ؟» ثم يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] [البخاري (١٣٥٨)].

وبنو إسرائيل يظنُّون أنَّ رسالات الله خاصَّةٌ ببعض أسباطهم ، وأنها حقُّهم الموروث .

أما الإسلام؛ فقد وسَّع على الإنسانية ما ضيَّقه الآخرون ، وأعلن أنَّ الناس كلَّهم سواسية ، وأنَّ دعوة الله غير مخصوصةٍ ببلاد دون أخرى ، فمشرقُ الدُّنيا ، ومغربُها ، وشمالُها ، وجنوبُها ، وفلسطين ، وفارس ، والهند ، كلٌّ قد خلا فيها رسولٌ أو نبيٌّ ، وأنَّ الله تعالى تستوي عنده الأمم ، واللُّغات في بعثة الأنبياء ، فشمس النبوة أشرقت على البشر جميعاً ، وتلألأت فيهم أنوارُ الرسالة ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر : ٢٤] . ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [الروم: ٤٧] فاليهود لا يؤمنون بنبيٍّ ليس منهم ، والنَّصارى لا يوجبون على أنفسهم الإيمان بنبيٍّ من بني إسرائيل أو غيرهم ، ولا يرون إذا لم يؤمنوا ببعض الأنبياء أنَّ ذلك يخلُّ بشيءٍ من دينهم ، وكذلك الهنادك لا يعتقدون بأنَّ الإلهام الإلهيَّ ، والوحي الربَّانيَّ نزل على بلادٍ غير بلادهم ، وهكذا شأن المجوس أتباع زردشت فإنَّهم يذهبون إلى أنَّ الدُّنيا كلَّها مظلمةٌ سوداءُ ، فلا نورَ إلا ببلادهم بلاد النَّار .

وأنَّ سكانها أجمعين من خلق الله ، وأنَّ الأقوام على اختلافها سواسيةٌ في نعمه وآلائه ، وكلُّهم نالوا نصيباً من دعوته وحظاً من رحمته ، وما من بلاد عمرتها أمةٌ إلا وقد أضاء فيها نورٌ من هداية الله ، وبُعث فيها نبيٌّ دعاها إلى الحق ، وبلَّغها أوامر الله ، ونواهيه .

الإسلام سوَّى بين جميع الأنبياء ودعا إلى الإيمان بهم جميعاً :

وقد علمتَ مما سلف أنَّ الإسلام فرض على كلٍّ من دخل فيه أن يؤمن بجميع أنبياء الله ، ورسله ، وبالكتب السَّماوية؛ التي أوحى الله بها من قديم الزمان ، وليس بمسلمٍ مَنْ لم يؤمن بالأنبياءِ كلِّهم ، وبالكتب المنزلة على الرسل المبعوثين من قبل ، فالرُّسل الذين سمَّاهم الله في القرآن يجبُ على المسلم أن يؤمنَ بهم إيمان تفصيل ، والذين لم تذكر أسماؤهم يؤمن المسلم بهم إيمان إجمالٍ بأنهم كانوا صادقين ، هداةً للبشر ، وكانوا ينابيع الخير

والحكمة ، وقد وصف الله المسلمين بأنَّهم ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة: ٤] ، وفي موضع آخر من البقرة ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وفي سورة البقرة أيضاً: ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فليس للمسلم أن يؤمن ببعض الرسل ، ويكفر ببعض ، وقد خاطب الله المسلمين جميعاً بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦].

سادتي! هل تعلمون أحداً علَّم مثل هذا التعليم فسوَّى بين الهداة من جميع الملل والنحل في إعظامهم ، وإكرامهم ، والأدب معهم ، والاعتراف بجميلهم ، وتصديقهم فيما دعوا إليه من حق؟ وأين ترون مثل هذه الرُّوحانية العامَّة ، والإخاء الشامل؟ أجيبوني بصدق: أليس رسولُ الإسلام رحمةً للعالمين ، حيث علَّم الناس كيف يرعون شرفَ الهداة ، وعظمةَ حملة الرِّسالات الإلهية ، فعمَّت دعوتُه ، واتَّسعت رحمتُه حتى نال كلَّ شعب من شعوب البشر ، وكلُّ أسرةٍ من أسرهم نصيباً من ذلك ، ولقد اتخذ المتدينون بجميع الدِّيانات وسائط ووسائل بينهم وبين الله ، معتقدين أنَّهم لا يصلون إلى الله المعبود إلا أن يتوسط بينهم من زعموه أهلاً لذلك ، فكانت السَّدنة وخدمةُ المعابد وسائطَ الناس إلى الله في قديم الزَّمان ، وحتى اليهود اتخذوا من سبط لاوي ، ومَنْ تناسل منه شفعاءَ بينهم وبين ربهم ، والنصارى جعلوا بعض الحواريين ، وخلفائهم من الرُّهبان والقسيسين وسائل يتوسلون بهم إلى الله ، وقد غلوا في رفع مراتبهم ، حتى بلغوا بهم مبلغاً لم يبلغه مقرَّب عند الله ، فزعموا أن ما يربطه هؤلاء الشفعاء في الأرض؛ فهو مربوط في السَّماء ، وما حلُّوه في الأرض؛ فهو محلول في السماء ، وأنَّ لهم أن يغفروا للناس خطاياهم ، ويسقطوا عنهم آثامهم ، وأنَّ العبادة لا تقبل عند الله إلا بوساطتهم ، وكذلك براهمة الهند زعموا أنَّهم مخلوقون من يمين الله ، وأنهم الوسائط بين الخلق والخالق ، وأنَّ العبادة الهندوكية لا تقبل إلا بهم ، وعلى أيديهم ، أما الإسلام فلا يعترف بطائفةٍ

خاصَّةٍ من سدنة المعابد ، وخدَّام المساجد ، وأحبار الدِّين ، وليس في الإسلام رهبانيةٌ ، ولا يرضى أن تكون فيه فئةٌ تتخذ الدِّين مهنةً ، ومصدر رزق ، وليس لأحدٍ أن يعطي ، أو يمنع ، وما بيد أحدٍ شيءٌ من أمر الحَلِّ والعقد ، بل كلُّ ذلك بيد الله ، فهو الذي يغفر الذنوب وحده ، وليس بين العبد ومعبوده والمخلوق وخالقه أيُّ تدخُّلٍ لأحدٍ في عبادة الله ومناجاته ، ولكلِّ مسلمٍ أن يصليَ بالناس ، وأن يؤمَّهم ، وأن يذبح أضحيته بيده ، وأن يعقد النكاح ، ويقوم بجميع أمور الإسلام وأوامره ، والإسلام يعلِّمُ أتباعه قول الله عز وجل ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] وأنَّه يجيب دعوة الدَّاعين مباشرةً ، وبلا واسطةٍ ، فكلُّ مسلمٍ يدعو ربه متى شاء ، ويناجيه ، ويبثُّه حزنه ، ويشكو إليه ضرَّه بلا أيِّ واسطة ، فالمسلمُ هو قسيس نفسه ، وهو برهميها حين يعبد ربَّه متحرزاً من قيود البراهمة والقسيسين.

دين الله بين الذين غلوا في الأنبيـاء والّذين فرّطوا فيهم :

لقد بعث الله رسله وأنبياءه إلى البشر بالهداية وإصلاح المجتمع الإنسانيِّ ، ولكنَّ الناس أفرطوا فيهم ، أو فرَّطوا. فمنهم من غلا في تعظيمهم ، فرفعهم من منزلة الرُّسل ، والأنبياء ، والهداية إلى منزلة الإله المعبود ، أو إلى منزلةٍ شبيهةٍ بذلك ، وإنَّك لترى في هياكل الشام ، وبابل ، ومصر تماثيل الكهنة والأحبار تمثل الله عز وجل ، وتنتحل بعض صفاته ، وكذلك الهنادك جعلوا الأنبياء المبعوثين فيهم بالهداية والحكمة آلهةً متجسِّدة ، وكذلك فعل أتباع بوذا ، والجينيون بصلحاء ملَّتهم ، وهداة نحلتهم ، فاتخذوهم أرباباً ، وهذا ما فعله النَّصارى بنبيِّهم عيسى ابن مريم سلام الله عليه ، فاتخذوه رباً ، ودعوه ابنَ الله ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً ، ذلك ما أفرط به الناس في حقِّ الأنبياء ، وآخرون قصَّروا في حقِّهم ، وفرَّطوا ، كما فعل بنو إسرائيل في كلِّ من تكهن ، أو تحدَّث عن أمر المستقبل ، فجعلوه نبياً. ولا يتوقف مقام النبوَّة عندهم إلا على أن يتحدَّث أحدُ كهانهم في أمر المستقبل ، أو أن يتوسَّم أمراً فيقع ، ولا يلزمه أن يكون ممن يتَّقي المآثم ، فضلاً عن أن يكون عند الله معصوماً صالحاً ، لأجل ذلك ترى في صحف بني إسرائيل أموراً منسوبة إلى الأنبياء تنافي

النبوَّة ، وهي بين أن تكون غيرَ صحيحةٍ ، أو يكونَ من وقعت منهم غيرَ أنبياء .

فلمَّا ظهر الإسلامُ وصف مكانة الأنبياء اللائقة بهم ، وعيَّن منزلتهم عند الله ، وأعلن أنَّهم عبيدُ الله ، وليسوا أشباهه ، ولا أنداداً له ، وأن الله لا يتجسَّم في صورهم ، وأنَّهم ليسوا أبناء الله ، ولا أقرباءه ، إنْ هُمْ إلا بشرٌ بُعثوا إلى بشر ، وأنَّ جميع أنبياء الله كانوا من قديم الزمان بشراً لا غير ، وكذلك قال محمد خاتم النبيين ﷺ ﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فاستغرب الكفار ذلك ، وقالوا : ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤] فقال الإسلام : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت : ٦] ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٣] وكل هذه آيات من كتاب الله الحكيم .

إنَّ الأنبياء مع قرب منزلتهم من الله وشرفهم وعلوِّ مكانهم عنده لا يملكون من تدبير العالم شيئاً ، ولا يقدرون على ما لا يقدر عليه إنسان مثلهم ، وكلُّ ما صدر عنهم مما عجز عنه الآخرون فبإذن الله وأمره . وقد وصفهم الإسلام بأنَّهم وإن كانوا بشراً كغيرهم من البشر إلا أنهم أعلى منزلةً وأسمى مكاناً من سائر الناس ، فهم يكلمون الله ، ويوحى إليهم ، وقد عصمهم الله من الذنوب ، وطهَّرهم من رجس الآثام ، فكانوا أعفةً كرامَ الأخلاق ؛ لتكون على أيديهم هدايةُ المجرمين ، والآثمين من الناس ، وقد يجري الله آياته وبيناته على أيديهم ، ليقوموا بتعليم الناس الصَّلاحَ والرشادَ ، وليزكُّوهم ، ويطهِّروهم ، فيجب لهم على الناس أن يُكرموهم ، ويُعظِّموهم ، ويعملوا بهدايتهم ؛ لأنَّ الله أرسلهم هداةً مصلحين ، وشرَّفهم برسالته ووحيه وكلامه .

هذا ما علَّمه الإسلام للناس من الاقتصاد ، والاعتدال في أمر الأنبياء وفاءً بحقِّهم بلا غلوٍّ ، ولا تقصير ، وهذا ما كان جديراً بالإسلام ، لأنه جاء مكملاً لتوحيد ربِّ العالمين .

إخواني! لقد طال بنا الحديث ، ومضى هزيع من الليل [1] ، وبقي شيء كثير مما أريد أن أقصَّه عليكم ، فلنختم هذا الحفل بالصَّلاة والسَّلام على رسول الله الأمين ؛ الذي ختم به تعليمه الأخير للناس إلى يوم القيامة .

* * *

(١) هزيع من الليل : نحو الثلث أو الربع الأول منه .




المحاضرةُ الثَّامنةُ

السِّيرةُ المُحَمَّديَّةُ مِن النَّاحية العِلميَّة




فساد الأديان السابقة بسبب التشبيه وتجسيم الصِّفاتِ الإلهية:

إخواني! اليوم آخر اجتماعي بكم، بعد أن استمرَّ شهراً. ومحاضرةُ اليوم آخر المحاضرات الثَّمان، وقد حاولت في المحاضرتين الماضيتين أنْ أُلمَّ بكلٍّ ما يتعلق بأصول الإسلام، وما يرجع إلى مبادئه، وقواعده، وسننه، ولكنْ أنَّى لي أنْ أوفيَ ذلك؟ ومن ذا الذي يستطيعُ أن يجمعَ ضوءَ الشمس بيده، أو يُحصي نجومَ السَّماء؟!

إنَّ الأديان السالفة قبل الإسلام، التي كانت دعوتُها إلى توحيد الله، قد تطرَّق إليها الفساد في أمر التَّوحيد لوجوه ثلاثة: الأول التشبيه والتمثيل، أي: أنَّهم قد شبهوا الله بغيره من خلقه، والثاني: أنَّهم جعلوا صفاتٍ منفصلةً عنه ومستقلةً. والثالث: أنهم اغتروا بكثرة المظاهر في العالم، وخُدعوا بضروبٍ من مصنوعات الله، وآثار مقدوراته، فلما مَنَّ الله على الإنسانية بالإسلام أزال به الأوهام، وكشف خفايا الشبهات، فانجلت عن البصائر غياهبُ التَّمثيل، والتشبيه.

وإليكم أولاً أمر التمثيل: فإن أهل الملل والنِّحل من غير الإسلام اختاروا طرقاً واتَّخذوا وسائل لمعرفة ما لله عزَّ وجل من الصفات الجليلة، والصِّلة التي بينه وبين خلقه، فشبهوه جلَّ جلاله بأجسامٍ مختلفةٍ، ومثَّلوا صفاته في ضروبٍ من الصُّوَر والأشكال، فلما طال عليهم الأمد بقيت هذه السُّور الممثل بها، وزال عن قلوب الناس اسمُ الله الذي لم يزلْ ولا يزالُ، فصارتِ المشبَّه بها أوثاناً، وأصناماً، وتماثيل، وطفق الناس يعبدونها، ويسجدون لها ظَنَّاً منهم بأنها مظاهر صفات الله، ومشاهد قدرته، وتفنَّنوا في تصور صفات الله بهذه التماثيل المنحوتة، والأوثان المصنوعة، ومن ذا الذي يشكُّ في أن الله يحبُّ عباده، ويرأف بهم، ويحنُّ عليهم؟ لكن الجاهلين جعلوا لحبِّ الله عباده، ولرأفته بهم تمثالاً من حجرٍ أو غيره، والأمم الآرية اتخذت تمثال المرأة رمزاً للحبِّ الإلهي، فإنها عندهم مظهر

الحنان والأمومة ، وإلهة الحبِّ والغرام ، فعبروا عن حبِّ الله بنوعٍ من العبادة ، وعن حنانه عليهم بحنان الأم على ولدها ، فانقلب الإله عندهم أماً حنوناً ، ونحتوا له صورةَ أمٍّ حنون ، وأخذوا يعبدونها ، ويسجدون لها .

والطوائف الأخرى من الهنادك قد أظهروا هذا الحبَّ الإلهي لعباده وحنانه عليهم بما بين الحليلة وزوجها من المودة والمحبة ، فاختار لفيفٌ من الرجال زيَّ النِّساء وهيئتهن ، وتأنثوا ، وتخنثوا شكلاً وأخلاقاً ، على زعم أنَّ الله يحبُّهم كما يحبُّ الزوج حليلته .

وكما ظهر الإله عند الروم والإغريق في صورة امرأة .

أما الأمم السَّاميَّة فقد تمثل الإله عندها رجلاً وأباً؛ إذ كان ذكر المرأة عندها على ملأ من الناس مخالفاً للآداب السَّاميَّة ، وكان الأب هو رأس الأسرة وأصلها ، ويدلُّ عليه ما استخرج من بطون الأرض في بابل ، وأثور ، وديار الشام من تماثيل تصور الإله بصور الرجال ، وكذلك بنو إسرائيل ، يظهر أنهم في بدء أمرهم كانوا يتصوَّرون الله بصورة الأب ، ويحسبونه والداً ، ويحسبون الملائكة وسائر الناس أولاداً له ، ثم ضاق نطاقُ تفكيرهم ، فلم يبق للإله أولاد عندهم سوى بني إسرائيل .

ويوجد في بعض صحف بني إسرائيل ما يدلُّ على أن الرابطة كانت بين الإله وبني إسرائيل كالرابطة التي تكون بين الزوج وحليلته ، وأنَّ بني إسرائيل وأورشلم حلائل ، والإله زوجهن ، تعالى الله عما يقولون ويتصورون!! .

وقد أخطأ المنتسبون إلى المسيح عليه السلام ، فجعلوا ما كان بادىء بدء استعارةً كأنَّه حقيقةٌ ثابتةٌ . وانقلب تشبيه الإله بالأب لحنانه على نبيه عيسى عليه السلام ، ورأفته به ، فاعتبروه حقيقةً ، والإله الذي لم يلد ولم يولد اعتبروه والداً ، وعيسى ولده .

وشبيه بذلك ما نجده عند قدماء العرب من ظنِّهم بالله أنَّه أب ، والملائكة بنات له ، فلما بزغت شمس الإسلام انكشفت ظلمات التشبيه ، والتمثيل كلُّها ، وانجلى قَتامُ الشِّرك ، وأهمل استعمال جميع الكلمات التي

تقضي إلى الإشراك بالله ، منذ نادى رسول الإسلام ﷺ بهذه الحقيقة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ثم نزلت سورةٌ من قصار سور القرآن محت الأوهام الباطلة كلَّها ، والعقائد الفاسدة التي نسجها الناس حول وجود الله ، وهي قول الله عز وجل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] فكان الإسلام بذلك طاهراً من دنس الشرك ، نقيّاً من كلِّ شوائبه.

إخواني وخلاني! إيّاكم أن تظنُّوا أنَّ الرسالة المحمدية نفت شيئاً ممَّا لله عز وجل من عظيم الرأفة ، وواسع الرحمة بعباده ، أو أبطلت ما لله في عباده من حنان ، إنَّها لم تفعل ذلك ، بل وثقت حبل الله الذي يسَّره لعباده وزادته قوة. وإنما أبطلت ما زاد على ذلك من أوهامٍ تفضي إلى تجسيم الله ، أو تمثيله بشيءٍ من خلقه ، ومحت وسائل كاذبةً تجرُّ إلى الإشراك بالله ممَّا اتخذته الأمم السالفة ، فضلَّت به ، وأضلَّت ، وفيما عدا ذلك فإنَّ الإسلام أشاد بما بين الله وعباده من رابطةٍ هي أشدُّ ، وأقوى من كلِّ ما يمتُّ به المخلوقون بعضُهم إلى بعضٍ من نسبٍ ، ورحمٍ ، وآصرةٍ ، ودمٍ ، فالإنسان الذي يعيش في طاعة الله أقرب إلى الله من قرابة الولد لوالده ، وقرابة الزوجة من زوجها.

انظروا كيف أراد الله أن يعلِّم الصالحين من عباده بأنه يحبُّهم كما يحبُّ الأب أولاده ، فأمرهم أن يذكروه كما يذكرون آباءهم ، أو أشدَّ ذكراً. فهو عز وجل لم يشبه نفسه بالأب ، لكنَّه شبه حبَّه بحبِّ الأب ، واجتنب ما يدلُّ على القرابة الواشجة ، والرَّحم الماسَّة ، فأبقى من هذه العلاقة ما يدلُّ على الحبِّ ، ثم زاد الحثَّ على أن يذكروه أشدَّ ، وأكثر مما يذكرون آباءهم بقوله ﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠] لأنَّ الصلة بين العبد وخالقه أشدُّ ، وأسمى من جميع ما يمتُّ به المرء إلى أحد من ذوي قرابته ، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] ، والإسلام لا يسمِّي الله أباً للناس ، بل يدعوه «رب العالمين» لأنَّ الربَّ أعلى مكاناً من الأب ، وإنَّ الصِّلة بين الابن وأبيه عارضٌ يفنى ، والصِّلةُ بين المربوب وربه أثبت وأبقى؛ لأنها مستمرةٌ من أول نشأة المخلوق إلى أن تنتهي حياتُه بلا انقطاع ،

فالله ودودٌ ، رؤوفٌ ، حنَّانٌ بأكثر ممَّا في الرجال من الودِّ لأولادهم ، وما في الأب من الشفقة والرأفة نحو بنيه ، ومافي الأم من الحنان على أولادها ، ومع ذلك فإنه سبحانه ليس بأبٍ ولا أمٍّ ، وهو منزَّهٌ ، ومقدَّسٌ عن كلِّ شائبة من شوائب البشرية .

فساد الأديان بسبب فصل الصفات الإلهية عن الذات :

والأمر الثاني الذي أفضى بالأديان القديمة إلى فساد العقائد في معنى التوحيد: مسألة الصفات الإلهية. ومنشأ ذلك أن أتباع الأديان الأخرى قد فصلوا صفاتِ الله عن ذاته ، وجعلوها مستقلةً عنه ، وبذلك تعدَّدتِ الآلهة ، وكثرت في جميع الفرق الهندوكية من الدين البرهمي؛ لأنَّهم اتخذوا من كلِّ صفةٍ إلهيةٍ إلهاً ، وجسموا تلك الصفة في صورةٍ أو صاغوها في قالب ، ثمَّ وسعوا نطاق الشرك ، وطبقوه على جميع ما شُبِّهتْ به صفات الإله من مختلف التشابيه ، ومتنوع التماثيل ، وصاغوا هذه الصفات ، وما شبهت به في صورٍ وتماثيلَ وأوثانٍ ، وبعد أن كان الله إلهاً واحداً لا إله غيره ، صار لهم ثلاثون وثلاثمئة مليون من الآلهة. وتفصيل ذلك أنهم أرادوا أن يعبِّروا عن قوة الله وقدرته ، وظاهرٌ أنَّ اليد من مظاهر القوة والبطش ، فنحتوا لله تعالى يدين قويتين من الحجر ، بل سوَّلت لهم أنفسهم أن ينحتوا له كثيراً من الأيدي. وحاولوا أن يعبروا عن حكمته البالغة؛ فجعلوا له رأسين ، واتخذوا له وثناً ذا رأسين ، وإذا تأملنا نِحل الهنادك الكثيرة العدد؛ بدا لنا أنَّها لم تكثر هذه الكثرة الهائلة ، ولم تفترق إلى فرقٍ كثيرة ، إلا لأجل تجسيمهم صفات الإله ، فإنَّ الله عندهم ثلاثُ صفاتٍ عظيماتٍ: الخلق ، والقيام على المخلوق ، والإماتة ، وإن شئت فلك أن تعبِّر عن هذه الصفات بالخالقية ، والقيومية ، والإماتية ، وقد جعلت الفِرقُ من الهنادك هذه الصفات الثلاث أشخاصاً مستبدين أطلقوا عليهم أسماء: برهما ، ووشنو ، وشيو ، فبرهما رمزٌ للخالق ، ووشنو هو القيُّوم ، وشيو هو المميت. ونجمت عن ذلك ثلاث نِحل: نحلة يعبد أتباعها برهما ، ونحلة إلهها وشنو ، ونحلة معبودها شيو. وقد انفصل بعض هذه الفرق عن بعض. وهناك فرقةٌ منهم تعبد فروج الرَّجل والمرأة؛ لأنهم تمثلوا بها صفة

الخلق ، وأرادوا أن يمثلوها بجسم ، كما فعلوا في الصفات الأخرى ، فهداهم سوء بصيرتهم إلى أن فروج الرِّجال والنساء من أكبر الأسباب للخلق في هذا الكون ، فاتخذوا لها صوراً ، وأوثاناً ، وجعلوا يسجدون لها ، ويتقرَّبون إليها.

وفي النصرانية صفاتٌ إلهيةٌ ثلاث: الحياةُ ، والعلمُ ، والإرادةُ ، تمثلوها ذواتاً سمَّوها الأقانيم الثلاثة: فالأب رمز للحياة ، وروح القدس رمز للعلم ، والابن رمز للإرادة.

ونجد مثل ذلك في عالم الأصنام عند قدماء المصريين والإغريق والروم ، وإنَّ محمداً ﷺ بعث بتنفيذ آراء الأمم في صفات الله ، فأظهر خطأ تلك المذاهب ، وفسادها ، وبينَ أنَّ الله واحد ، وأنَّ صفاته الكثيرة ليست أشخاصاً منفصلةً عنه ، وأنَّ من جعل الله الواحد اثنين أو أكثر مغتراً بتعدد أسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ فقد ضلَّ وغوى ، وحاد عن سواء السبيل. فالقرآن أعلمنا بأنَّ الله ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وأنَّ ﴿لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] وأنه ﴿نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وكان نصارى العرب يدعون الخالق بالرحمن؛ لاتصافه بالرحمة ، أما عامة المشركين فكانوا يدعونه «الله» ونزل القرآن تصديقاً لهما ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي سورة الشورى ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩] وفيها أيضاً: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥] وفي سورة الزخرف ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] ، وفي سورة الدخان ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدُّخان: ٦ ـ ٨] أما برهما بمعنى الخالق ، ووشنو بمعنى القيوم ، وشيو بمعنى المميت فمدلول الثلاثة كلُّها واحد هو الله الخالق القيوم المميت ، والموصوف لا يتعدَّد مهما كثرت صفاتُه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦ ـ ٣٧] ، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ

ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

فالله واحدٌ وإنْ كثرت أسماؤه، وتعدَّدت صفاته، وهذه الكثرة ليست في ذاته بل في صفاته، وإنَّما علمنا ذاته الواحدة الموصوفة بالصفات الكثيرة بسبب رسالة محمَّد ﷺ. أما الأديان الأخرى فقد جعل أتباعها الله الواحد آلهةً متعددةً بتعدُّد صِفاته، فسبحان الله عما يشركون.

وقد بين الإسلام وأحسن البيان بأنَّ القدوس، والخالق، والملك، والمؤمن، والجبار، والعزيز، والمصور، والرحمن، والرحيم هو الله ليس غير.

فساد الأديان بسبب تعديد أهلها للفاعل بتعدُّد أفعاله:

والمنشأ الثالث للشرك كثرةُ أفعال الله، وتنوُّع شؤونه.

وحين رأوا أنَّ الله تصدر عنه ضروبٌ من الأعمال حسبوا أنَّها تصدُر عن مصادرَ متعددةٍ، وأنَّ لها فاعلين كثيرين، فحملهم فساد رأيهم على أن جعلوا لكلِّ عملٍ عاملاً مستقلاً، فاعتقدوا أن الذي يحيي غير الذي يميت، ومن يحبُّ العباد غير الذي يبغضهم، فاتخذوا إلهاً للعلم، وإلهاً للثروة والرزق، فتعدَّد الواحد بذلك، وصارت الآلهة بعدد الأفعال، أما الإسلام؛ فقد أخبر بأنَّ الأفعال وإن كانت كثيرةً فإنَّ الفعَّال هو الله الواحد، العزيز، المتعال.

إنَّ جميع ما في الدُّنيا من الأعمال ينقسم إلى قسمين: الخير، والشر. وقد عجب الذين زاغت بصائرهم كيف أن الواحد يفعل فعلين متضادَّين، فذهبوا إلى أن من يصدر عنه الخير لا يأتي منه ضدُّه، فعبد أتباع زردشت إلهين اثنين أحدهما للخير، والآخر للشر، وسموا مسدي الخير (يزدان) ومصدر الشر (أهرمن) وتصوروا أنَّ هذا العالم ساحةُ حربٍ يعترك فيها هذان القرنان المتصارعان. وما حملهم على هذا الفساد في العقيدة إلا خطؤهم في فهم الخير والشر.

منشأ الخير والشرِّ حسن استعمال الأمور أو سوء استعمالها:

والحق أنه ليس في الدُّنيا شيءٌ يصحُّ أن يطلق عليه اسم الشر، فالنار لا شك أنَّها تحرق، ولكنَّ الإحراق في نفسه لا يعدُّ خيراً ولا يسمى شراً، فإن أوقدتها لتنضج عليها غذاءك، أو لتقتبس منها قبساً تصطلي به من البرد فإنَّ عملك هذا هو الذي يعدُّ إحساناً، ويطلق عليه اسم الخير. وإذا أضرمت النار لتحرق مأوى يأوي إليه فقيرٌ بائسٌ لم يرتكب ذنباً فإنَّ عملك هذا هو الذي يعد سيئةً وشرّاً، بينما النار نفسها ليست بنفسها خيراً محضاً لا شرَّ فيه، أو شراً محضاً لا خير فيه، وأنت الذي جعلتها بعملك خيراً أو شراً. والسيف القاطع لا يعدُّ خيراً، ولا شرّاً، بل أنت الذي تتَّخذُ منه ذريعةً للخير أو الشر. والظلام لا يعدُّ شراً لكنك إن تسترت به في جوف الليل لترتكب فيه السوء، فالشرُّ هو عملُك لا الظلام، وإن تواريت فيه لتعمل صالحاً أو أويت فيه إلى الراحة، والدَّعة؛ فهو خير.

وقد خلق الله الأرض والسماء، وجعل بينهما أشياء: الريح، والسحاب، والماء، والنار، والطين، وخلق منهنَّ أشياء، وخصَّ كلَّ شيءٍ بخصيصة، وبثَّ فيه قوةً تناسبه، ثم خلق الإنسان، ووهبه الحكمة البالغة، والبصيرة النافذة، والآراء السديدة، فنظر هذا المخلوق في الكون، وتأمَّل حسن تقويمه، وعجيب تنسيقه، وبديع نظامه، فملكه الإعجاب به، وملأ نفسه الاستغراب منه، فلم يتمالك أن انطلق لسانه قائلاً ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ثم نادى في خشوع وخضوع لرب العالمين ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، كما فعل إبراهيم خليل الله، وبجانب هذه الطائفة من البشر طوائفُ أخرى لم يكن لهم من بليغ الحكمة، وسداد الرأي، وثاقب الفكر ما ينقذهم من جحود الله والكفر به، فالتبست عليهم حقائق العالم، واشتبهت لهم خواص الأشياء والقوى المودعة فيها، فجعلوا المادة علَّةَ العالم، وسبب خلقه، وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

الهُدى والضَّلال بما كسبت أيدي النـاس:

إنَّ العالَم لا يُضل ولا يغوي ، ولا يرشد ولا يهدي ، ولكنَّ الإنسان هو الذي يهتدي بسليم فطرته ، وسديد رأيه ، وسلامة قلبه ، أو يضل بسوء تفكيره ، وخطل رأيه[1] ، وقبح تأمله. وإن شئت قلت: إنَّ العالَم يهدي من يهتدي به، ويَضلُّ من يضل به. وما أنزل الله من كتبه ـ التوراة، والإنجيل، والقرآن ـ يهدي الذين يحسنون تدبره ، وتلاوته ، فتطمئنُّ قلوبهم إلى ما فيه من حقٍّ ، ويؤمنون به ، وآخرون يتلون ما أنزل الله من حقٍّ فيزدادون ريْباً به ، ولا تسكن نفوسهم إليه ، فيجحدون ، ويكفرون ، مع أنَّ الكلام واحد، إلا أن تأثيره في القلوب مختلف: فيخرج هذا منه مؤمناً به، ويخرج ذاك منه كافراً به ، وكلاهما من خلق الله الواحد ، والذي يستنتج من كثرةِ الأفعال ، وتعدُّدِها ، واختلافِها كثرةَ الفاعلين؛ فقد أخطأ ، وإنَّ بيد الله تعالى الخير والشرَّ ، والهداية ، والضَّلال ، وكل ما ترى في الكون ، وفي الناس من ضروب العجائب وأنواع الغرائب ، فهي من بديع السموات والأرض وجميل صنعته وعظيم قدرته ، فهو الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ ـ ٢٧].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فهذه الآيات تدلُّ على أنَّ الضلال والهدى يرجعان إليه عزَّ وجل ، لكن الإنسان هو الذي يختار باديء ذي بدء ما يفضي به إلى الضلال أو الهدى ، فمن فسق عن أمر ربه ، أو قطع الرحم ، وأفسد في الأرض ، وكفر ، جاءه من الله الضلال ، والضَّلال لا يتقدَّم الفسق ، والقطيعة ، والإفساد في الأرض ، بل هو يعقب هذه الخلال ، ويتلوها.

إنَّ الله عزَّ وجل خلق بني آدم ، ودلَّهم على الخير والشرِّ ، وبصَّرهم

---

(١) الخَطَلُ: المنطق الفاسد المضطرب.

بالحسن والسيىء ، ثم أمرهم بالخير ، ونهاهم عن الشر ، وهداهم الطريق المستقيم ، وحذَّرهم سوء العقبى إذا عصوه ، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] وهو الذي قد خلق كلَّ شيء خيره وشره ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر: ٦٢] ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] ثم بيَّن لهم الخير من الشر ، والحسن من السيىء ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

ومما تقدَّم تعلمون أنَّه لا يوجد في الدُّنيا خَيْرٌ لذاته ولا شرٌّ لذاته ، وإنما يكون الأمر خيراً أو شرّاً باختيار الإنسان ، وبعمله ، فإذا سلك الصراط المستقيم ، كان بذلك راشداً واهتدى ، وإذا سدر في الفساد والغيِّ ، وآثر بُـنَـيَّـاتِ الطريق على الطريق المستقيم ضلَّ ، وغوى ، وإذا صحَّ اختياره لما ينفع ، ويسعد أصاب الخير ، وأتى بالحسن ، وإذا ارتكب الشطط في اختيار ما يضرُّ أصاب الشرَّ ، وكان من المخطئين. والذي يظن أنَّ للكون إلهيـن اثنيـن؛ لأن في الكَوْن خيراً وفيه شراً؛ فقد زاغت بصيرته ، وأخطأ الحقيقة ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [فصلت: ٦] والله وحده خالق كلِّ شيء ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣] والله قد بلغ رسالاته وأحكامه بألسنة أنبيائه ومرسليه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [فاطر: ٣٢] ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٨ ـ ١٠].

تعبُّـد الضَّـالين بتعذيبهـم أنفسهـم:

ما من دين خلا من العبادة لله ، لكن الأديان القديمة حَسِبَ أتباعها أنَّ الدِّين يطالبهم بإيذاء أجسامهم وتعذيبها ، وأن الغرض من العبادة إدخال الألم على الجوارح ، وأنَّ الجسم إذا ازدادت آلامه كان في ذلك طهارةٌ للروح ، ونزاهةٌ للنفس.

وعن هذه العقيدة نشأ التبتل[1] عند الهنادك ، والرَّهبانية عند النَّصارى ، وابتدعوا من رياضات الجسم أنواعاً عجيبةً أشدُّها على الجسم أفضلُها عندهم ، وأقربُها إلى الله في زعمهم؛ فمنهم من آلى على نفسه ألا يغتسل طول حياته ، ومنهم من لا يلبس إلا المسوح والثياب الخشنة ، وبعضهم آلى على نفسه أن يعيش عُريان إلا من خرقة يستتر بها ، ماضياً على ذلك مهما أثرت فيه حمارَّة القيظ ، أو زمهرير الشتاء ، ومنهم من لزم كهفاً فلا يبرحه أبداً ، وبعضهم اختار لنفسه أن يبقى واقفاً في حرِّ الشمس طول حياته ، ومنهم من يحلف ألا يقتات إلا بورق الشجر ، ومنهم من بقي صارورةً[2] حصوراً لا يتزوج ، ومنهم من يعدُّ من العبادة والقربة إلى الله منع التناسل ، وفيهم من يرفع إحدى يديه في الهواء ، ويبقى كذلك طول عمره حتى تيبس يده وتجف ، وكان بعضهم يحبس نَفَسَهُ ما استطاع ، وهو يحسب أن ذلك من العبادة ، ولا يزال في الهند من يتعلَّق بشجرة منكساً رأسه إلى تحت. وهذا كلُّه وأمثاله مما كان عليه أتباع الأديان قبل مبعث محمدٍ رسول الله ﷺ ظانِّين أنَّ أعمالهم هذه من أقرب الوسائل إلى الله ، ومن أفضل ما تُزكى به النفوس وتطهر به الأرواح ، فأنقذ الله عز وجل الإنسانية من هذا العذاب الأليم والأذى الشديد بالرسالة المحمدية الكاملة ، وأرشدهم إلى أنَّ ما يحسبونه عبادة من هذا السخف والشرِّ إنما هو من الملاهي التي يتعلَّل بها من زاغ بصره ، والتوى عليه الرأي فظنَّ في الله غير الحق ، وقد أعلنت الرسالة المحمدية للناس هذه الحقيقة: «**إنَّ اللهَ لا يَنْظرُ إلى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ ، وَلَكِنْ يَـنْـظُـرُ إِلَى قُلُوْبِكُمْ**»[3] . **وما يفعلُ اللهُ بتعذيبكم لأجسادكم وجوارحكم.** ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦] وجعل الرهبانية بدعةً من عند الناس ، لا من عند الله ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ**﴾ [الحديد: ٢٧] وفي الحديث النبوي «**لا صَروْرَةَ**

(١) التبتُّل: الانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى ، وكذا (التبتيل) ومنه قوله تعالى: ﴿**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾ [المزمل: ٨].

(٢) الصَّارورة: يقال لمن لم يتزوَّج.

(٣) رواه مسلم في كتاب البر (٢٥٦٤).

في الإسْلَام»[1] وأنكر على الذين حرَّموا على أنفسهم طيبات الدنيا ، فقال عزَّ وجل ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، وقد أنكر الله على رسوله حين حرم على نفسه العسل ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ﴾ [التحريم : ١] ، والرسالة المحمَّدية علَّمت الناس لأول مرة أنَّ حكمة العبادة إقرار العبد لربه بأنه عبده ، ومطيعٌ لأوامره ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] فالدِّين الإسلاميُّ يعلِّم المسلمين خاصَّةً ، وغيرهم عامَّةً: أنَّ الله يريد منهم أن يؤمنوا به ، ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يطيعوا أوامره ، ولا يستكبروا عليه ، فلا جرم أن تظهر طاعتهم له في صورٍ وأساليبَ متعددةٍ من العبادة. وغايةُ العبادة في الإسلام اعتيادُ التقوى ، والتمرن عليها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وثمرة الصلاة في الإسلام الكفُّ عن الفحشاء والمنكر ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أما الصَّوم فمن الوسائل إلى نيل التقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وأما الحجُّ فمن حكمته أنه ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ﴾ [الحج : ٢٨] والزكاة تزكي القلوب ، وتنزع منها رذيلة البخل ، وتسدُّ حاجات الفقراء ، وتقضي ضرورات البائسين ؛ لأنها تؤخذ من أغنياء الأمة وتردُّ على فقرائها ، قال الله عز وجل ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل : ١٨ـ ٢٠]. ومن الدين عند المسلمين النكاح ، والزواج ، وقد قال لهم نبيهم «النكاحُ مِنْ سُنَّتِيْ وَمَنْ يَرْغَب عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[2] وعدَّ القرآن الكريم أولادَ الإنسان وأزواجه قُرَّة أعين له ، وأرشدهم إلى أنْ يسألوا

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٣٤): رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله ثقات.

(٢) رواه مسلم في النكاح (٥٠٦٣).

الله ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

التضحية والأضاحي والقربان:

وكان قتل المرء نفسه مما يتقرَّب به الأقدمون إلى الآلهة ، فكانوا ينذرون لآلهتهم قرابين بشرية تُذبح كالأضاحي استرضاءً للآلهة ، فإذا سفكت دماء البشر لهذا الغرض نثرت دماؤهم على الأوثان ، وربما أحرقت لحوم الأضاحي ، وجمرت بها الأصنام ، وبخرت بدخانها ، ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الأضاحي ، أمَّا الإسلام فقد بيَّن رسولُه الكريم الغرضَ من الأضاحي ، وحرَّم ذبح الإنسان ، وتقديمه قرباناً ، وأحل تضحية البهائم إلا أنه نهى أن يرش دم الأضاحي ، أو تحرق لحومها ، وقد ذكر الله عز وجل مافي التضحية من منافع للعباد بقوله ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج: ٣٦ ـ ٣٧] أمَّا العقيدة الفاسدة في التضحية فقد حملت الناس على أن يحسبوا أنَّهم يملكون حياتهم ، وموتهم ، ويملكون أولادهم على حياتهم وزعموا أنهم يملكون أزواجهم ، حياتهن وموتهن ، وهذه العقيدة الفاسدة قد جرَّت شرَّاً عظيماً ، وفساداً كبيراً في الحياة الاجتماعية ، فأباحوا لأنفسهم الانتحار ، وقتل الأولاد ، ووأد البنات ، وذبح الأبناء على النُّصب ، والأوثان ، وانتحار الحلائل ، أو إحراقهن أنفسهن بعد موت أزواجهن ، وغير ذلك من المفاسد التي محاها الإسلام ، واجتثَّها من أصولها منذ أذَّن في النَّاس: أنَّ النفوس لله ، هو الذي يملكها ، ولا يملكها أحدٌ غيره ، ولا تُقتل نفس إلا بحقِّ الله ، لذلك لا يحلُّ في الإسلام أكل لحم ذبيحةٍ لم يذكر اسم الله عند ذبحها ، والذي ينتحر؛ فإن الجنَّة محرمةٌ عليه ، أما في أوربا المتحضرة وأمريكا المتمدنة فإنَّ الانتحار لا يزال أفضل وسائل النجاة من مضائق الحياة وآلامها ، والدول التي تحاول عبثاً أن تأخذ على أيدي المنتحرين ، فتذهب مساعي الحكام ، والولاة

أدراج الرياح ؛ لأنَّ الناس يزعمون أنَّهم يملكون أنفسهم ، فلهم أن يتصرفوا فيها كما يشاؤون ، والانتحار عندهم أفضل وسائل النجاة من آلام الدُّنيا ، ولا يرون أنَّ بعد هذه الحياة حياةً يُؤاخذون فيها على الانتحار ، وحتى لو أيقنوا أنهم يُبعثون بعد مماتهم ، ويُنشرون تارةً أخرى ، فإنهم يستبعدون أن يحاسبوا على انتحارهم وقتلهم أنفسَهم ، أما الإسلام فقد شدَّد في أمر الانتحار ، وعدَّه جريمةً عظيمةً ، وحذَّر عاقبته ، وعلَّمهم أنَّ هذه الوسيلة الذميمة لا يُركن إليها في الخلاص من آلام الحياة وشدائدها ، وأنَّ من انتحر فقد أقدم على ما ليس له به من حق ، لأنَّ الحياة والموت من أمر الله ، ومن تجاوز أمر الله استحقَّ سخطه ، وغضبه ، وسيحلُّ به عذاب الله في الحياة الأخرى ، وهو أشدُّ وأبقى من آلام الدُّنيا التي أراد المنتحر أن يخلص منها ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣٠].

النفوس ملك لله ، فليس للإنسان أن ينتحر أو يحدِّد النَّسل:

كان قتل البنات ووأدهن فاشياً بين العرب ، وبين «الراجبوت»[1] من أهل الهند ، وفي كثير من الممالك ، فلما ظهر الإسلام أنكر ذلك ومحاه ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩] وقتل الأولاد لم يكن جريمةً عند العرب ، ولا يزال هذا المنكر باقياً في الأمم المتمدنة: يدفعهم إلى ذلك خشية الإملاق ، وضيق النفقة ، وربما يُبَرِّرون ذلك بأنَّ غلال البلاد وحاصلاتها لا تسدُّ حاجات العمران البشري ، فيقتلون أولادهم دفعاً للأزمات الاقتصادية عن البلاد ، والعرب وغيرهم لم يكونوا يرون تبعة على من أجهضت حملها ، وقتلت ولدها ، وكان الإغريق يتتبعون كلَّ مولودٍ يولد في بلادهم ، فيقتلون منهم الضعفاء ، والمخدجين ، وناقصي الخلق ، وقد يقذفونهم من قلل الجبال ، ويستحيون منهم الأقوياء ، وتامِّي الخلق.

---

(١) الراجبوت: قبيلة من قبائل الهند المشهورة ، اشتهرت بالبطولة والبسالة في الحروب ، تسكن في راجهسان الولاية الشمالية في الهند.

وتحديد النسل (Berth Control) بجميع طرقه المعروفة في هذه الأيام ليس إلا ضرباً من ضروب قتل الأولاد ، ووأد البنات ، وقد نادى الإسلام في الناس أنه ما من أحدٍ يرزق أحداً ، وإنما الرزَّاق هو الله المتكفل بحاجات خلقه ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

قضاء الإسلام على نظام الطبقات، وعلى التفاضل بالمال والنسب واللون:

ومن أكبر الجرائم التي اقترفتها الأمم ولا تزال باقيةً في بلاد لم تبلغها دعوةُ الإسلام ، ولم تشرق أنواره في أرضها ، أنهم جعلوا ثراء المال ، ونقاءَ الدَّم ، وشرف النَّسب ، وكرم المحتد ، ولون البشرة أساسَ الكرامة ، ورأسَ ما يتفاضلون به ويتفاخرون . وقد جعلوا لثراء المال ، ونقاء الدم ، وبياض اللون أصولاً يرجعون إليها في هذا التفاضل بين أفراد الأمة ، وبين الطوائف من الأمم ، وسنُّوا لذلك من القوانين والآداب في المعاشرة ، والمجتمع ما يلائم أهواءهم ومذاهبهم في النَّسب . أما الهند فقد عدَّ الهنادك من أهلها كلَّ من خرج عنهم من الأمم والناس أنجاساً مناكيد ، فإن لمسهم لامسٌ من غيرهم ، أو صحافهم ، أو مسَّ أجسامهم رأوا أنهم قد تنجَّسوا ، ووجب عليهم أن يغتسلوا؛ لأن من سواهم رجس يجب أن يتطهَّروا منه . وقسَّم الهنادك أنفسهم أقساماً ووزعوا بين هذه الأقسام حظوظاً متفاوتةً من الشَّرف ، فرفعوا بعضهم على بعضٍ درجاتٍ ، لا في الفضائل ، والأخلاق ، بل في أمور المعيشة ، وشؤون الحياة ، وأحكام الحكومة . فالشودر (وهم الطبقة السفلى منهم) يعدُّون أنجاساً ، وعبيداً ، وخدَّاماً ، وهم أصحاب المهن الحقيرة ، ويرون أنَّهم لاحظَّ لهم في الدِّين أيضاً ، وكذلك قدماء الفرس تفرقوا إلى أربع طوائف ، وهكذا فعل أهل أوربا فخصُّوا أنفسهم بأمر الحكومة والسُّلطان على الأمم ، ولم يتركوا لمن سواهم إلا أن يُستعبدوا ، ويخضعوا لحكمهم ، وبنو إسرائيل عدُّوا أنفسهم أبناء الله (تعالى الله عمَّا يقولون) ومن سواهم من الأمم أذلةً صاغرين . ثم فرقوا بين بني إسرائيل

أنفسهم ، فأنزلوا طوائفهم منازل مختلفة ، وجعلوا بعضهم فوق بعض ، وهذه أوربا الرَّاقية التي تدَّعي دعاوى عريضةً في الإخاء ، والمساواة ، والمدنية ، ألسنا نرى أن الرَّجل الأبيض قد أثقل كاهله بأعباء الحكم في العالم، ويرى أن غير الأوربي لا يستأهل السيادة والحكم ، فالأبيض المثقف هو الذي اختص بالحضارة والاستعلاء ، أما السُّود ـ وكل من عداهم يعدونه من السود ـ فإنَّهم لا يعدلونهم ، ولا يساوونهم ، بل إنَّ بعض البيض يربؤون بأنفسهم أن يركبوا في أسفارهم مع الآسيوي في عربةٍ واحدةٍ من القطار ، وترفعوا عن مجالسته ، ومساكنته ، وقد عزلوا الجنس الأسود (Negro) في إفريقية الجنوبية وأمريكا المتحضرة ، فبنوا لهم أحياء منعزلةً عن البيض؛ لأنهم لا حقَّ لهم بأن يجاوروا البيض ، فالأمريكيون الذين يدعون العدالة التامة ، والإخاء العظيم يعاملون السود من سكان أمريكا نفسها أسوأ معاملة ، ويضيقون عليهم حياتهم ، كأنَّهم ليسوا من البشر ، أو من خلق الله ، وفي جنوبي إفريقية وشرقيها ليس للسود ، ولا للهنود ، ولا للآسيويين عامَّةً من الحقوق المدنية والإنسانية مثل ما للإنسان في بلادٍ أخرى ، ولم يقصروا جورهم هذا على الأمور الدنيوية ، بل إنَّهم عدوا طورَهم ، وجاوزوا الحقَّ إلى الأمور الدينية ، فبنوا الكنائس للبيض خاصَّة وجعلوها بمعزل عن السود ، فلا يأذنون للسود بدخول تلك الكنائس ، وإنَّ الأبيض يشمخ بأنفه ، ويربأ بنفسه أن يدخل كنيسةً يغشاها السود ، أو الآسيويون، والإفريقيون، فليس للأسود أن يركع لله مع الغربي الأبيض أبداً.

أمَّا الإسلام؛ فقد محا هذه الفوارق والعصبيات الذميمة كلّها ، وأنكر أن يكون التفاضل باللون ، والدم ، والنسب وسوَّى بين بني آدم كلهم ، وهدم كلَّ ما كانَ يحولُ بين المرء وأخيه من ثراء المال ، ونقاء الدم ، ولون البشرة ، والجاه العريض ، والنسب الأصيل ، والمجد الأثيل. وكانت قريشُ تعتزُّ بآبائها ، وتباهي بأنسابها ، فخاطبهم النبيُّ ﷺ يوم وقف فيهم خطيباً في فناء المسجد الحرام يوم فتح مكة ، فقال لهم: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيش! إنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الجَاهِلِيَّة وتعظمها بالآبَاء ، النَّاسُ مِنْ آدَم وآدم**

مِنْ تُـرَاب»(١). ثم أعلن الرسول ﷺ في جمع عظيم ، وحفلٍ هائلٍ يوم حجَّة الوداع: أنَّ لاَ فَضْلَ لِعَربيٍّ على عَجَميٍّ ، ولاَ لِعجميٍّ على عَرَبيٍّ إلا بالتَّقْوى. كُلُّكُمْ أَبْنَاءُ آدَم ، وَآدَم مِنْ تُرَاب. فملاك الشرف والمجد التقوى ، والعمل هو الذي يرفع صاحبه أو يضعه. وإنَّ الله قد أذهب عبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، فالمرء إما مؤمنٌ تقيٌّ ، أو فاجرٌ شقيٌّ(٢) ، وقد خاطب الرسول فيها عامة الناس بلسان الوحي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ [سبأ: ٣٧] ثم آخى بين المسلمين وجعلهم إخوةً ، فقال عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقد نادى الرسول يوم حجة الوداع في جمع من المسلمين عظيم يبلغ عددهم مئة ألف أو يزيدون: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم»(٣). فهذه المساواة والمؤاخاة قد محتا الفوارق بين الهنديِّ ، والأفغانيِّ ، والصينيِّ ، والتركيِّ ، والإيرانيِّ ، والأندنوسيِّ ، والعربيِّ ، وبين الشرقي والغربي ، بل ذهبتا بكل ما يفرِّق بين الأسود والأبيض من فوارق الجنسية ، واللون ، والدم ، وأعلن الله إحسانه إليهم بقوله: ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إنَّ أبواب بيوت الله مفتوحةٌ في الإسلام لكلِّ مسلمٍ بلا تفريق بينهم في

---

(١) ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]. (زاد المعاد ، الجزء الأول ، ص ٤٢٤).

(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله قد أذهبَ عنكم عبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقيٌّ وفاجر شقيٌّ ، أنتم بنو آدم وآدم من تُراب ، ليدعنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام ، إنما هم فحمٌ من فَحم جهنَّم ، أو ليكوننَّ أهونُ على الله من الجِعْلانِ التي تدفع بأنفها النَّتن». [رواه أبو داود (٥١١٦)].

(٣) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ، ومن فرَّج عن مسلمٍ كُربةً فرَّج اللهُ عنه كُرْبَةً مِنْ كُربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». [البخاري (٢٤٤٢)].

المهن ، والأجناس ، والمراتب الاجتماعية؛ لأنهم لا يتفاضلون بالثراء ، ولا يتفاوتون في الآباء ، واختلاف المحتد ، وليس في الإسلام نظامُ طبقات كما بين البراهمة والشودر (المنبوذين) ، فلكلٍّ مسلم أن يتلو كتابَ الله ، وأن يؤمَّ الناس في الصلاة ، من أيِّ بيتٍ كان ، ومن أيِّ قومٍ كان. والتزاوج مطلق بين طوائف المسلمين وأجناسهم ، وبابُ العلم مفتوحٌ لكل داخل ، بل هو نهب مقسم بين الجميع ، والناس سواءٌ في الحقوق ، وفي أحكام القصاص: الدم بالدم ، والنَّفس بالنفس.

إخواني الأعزاء! كان بودِّي أن أذكر عن رسالة محمد ﷺ كل ما أحسنتْ به إلى الإنسانيَّة ، وأنْ أعدِّد أفضالها ، ونعمها على جميع طبقات البشر ، ولكن وقتنا لم يسمح بذلك ، ومثل هذا الموضوع العظيم يحتاج إلى وقتٍ أطول ، وأوسع من الوقت الذي تحدَّثت إليكم فيه ، ممَّا كنت أحب أن أبسطه لكم فضل الرسالة المحمَّدية على الرقيق والمستعبدين في الأرض من بني البشر ، والحقوق الممنوحة لهم في الإسلام ، والمستوى الذي رفعهم الإسلام إليه لأول مرَّةٍ.

وكنت أحب أن أُلمَّ بما للرسالة المحمدية من جميلٍ نحو النِّساء ، وما حفظتْ من حقوقهن ، وما رعت من كرامتهن.

كان بودِّي أن أفصِّل لكم جميع هذا ، وكثيراً غيره تفصيلاً تتبيَّنوا منه أن أوربا التي تدعي التقدُّم الفكريَّ لا تزال وراء الإسلام بمسافاتٍ طويلةٍ ، ولن تضارعه فيما قدَّم للإنسانية من رعايةٍ ، وما أسدى إليها من حقوق.

من أعظم الجرائم فصل الدين عن الدُّنيا:

إن من أعظم الجرائم التي عمَّ بها الضَّلال وطمَّ الدعوة إلى التفريق بين الدِّين والدُّنيا ، حتى صار يقال: هذا من حكم السلطان ، وهذا من حكم الرَّحمن ، وحتى صاروا يميزون بين ما يكسبون به الدُّنيا ، وما يكسبون به الدِّين ، وقد أفردوا لكلٍّ واحدٍ منهما طريقاً غير طريق الآخر. والرسالة المحمدية هي التي كشفت الستار عن وجه الحقيقة في ذلك ، فأعلنت في أرجاء الدنيا ما بين أمور الدين وأمور الدنيا من التلازم ، وأنَّ أعمال الدنيا

التي يراد بها وجه الله ، والفوز في الآجلة؛ إنَّما هي من صميم الدِّين ، ومن الدِّين أن يقوم الناس بأمور الدُّنيا من تجارةٍ ، وزراعةٍ ، وصناعةٍ ، وحرفةٍ ، وخدمةٍ بالطريقة السليمة التي هدى إليها الدين ، وأرشدت إليها تعاليمه ، ومن أعظم الخطأ أن يحسب الناس أنَّ الدين منحصرٌ في العبادة من صلاةٍ وصومٍ، وفي الفرار من الناس واعتزالهم في مغارةٍ ، أو جبلٍ للعبادة ، بزعم أنَّ اشتغال المرء بأمور نفسه وشؤون أولاده وعياله ، والمشاركة في مصالح أمته ، وبلاده ، وأحبابه ، وخلانه هو من أمور الدُّنيا ، لا من أمور الدين ، كلاَّ ، بل إنَّ هذه العقيدة قد أعلن رسول الإسلام ﷺ فسادها، وأبدى عوارها بدعوته ، وبلاغه من جهة ، وبحياته المثلى من جهةٍ أخرى ، وقد بيَّن بقوله وعمله أنَّ أمور الدُّنيا التي تُؤدَّى بالطريق الذي هدى إليه الدين تعدُّ من الدِّين ، ويثيب الله عليها كما يثيب على العبادات وغيرها ممَّا هو من صميم الدِّين.

الإسلام إيمـــانٌ بالحقِّ وعملٌ بـــه:

ألا إن ملاك النجاة للإنسان في الإسلام الإيمان ، والعمل الصالح. أما الإيمان فهو الإيقان بالله وحده ، والإيقان بأنَّ رسله إنَّما بعثوا لهداية البشر ودلالتهم على طريق الله ، والإيقان بالملائكة الذين هم رسل الله بينه وبين من أرسل إليهم من البشر ، وبالكتب التي أنزلت على الرسل ، وفيها أحكام الله من الأوامر ، والنواهي ، والإيقان بأنَّ الله يحاسب الإنسان على أعماله ، ويجزيه خيراً عمَّا يعمله من خيرٍ ، أو شرّاً عما يصدر عنه من شرٍّ ، فهذه الخمسة هي أساس الإيمان وملاكه ، والإيمان أساس العمل ، ومن لا إيمان له لا ينتظر منه الخلاص فيما يصدر عنه من عمل.

والمراد بالعمل أن تكون تصرفات الإنسان صالحةً ، وللأعمال ثلاثةُ ضروب كما ذكرت في المحاضرة السابقة من هذا الكتاب[1]: الضرب الأول: (العبادات) ، وهي عبارة عن تعظيم الإنسان لإلهه الذي خلقه ، وعن خشوعه له وخضوعه لأوامره وإظهار افتقاره له. الضرب الثاني: (المعاملات) وهي ما يتعاطاه الناس فيما بينهم لتبادل مصالحهم ،

(١) انظر المحاضرة السابقة.

واستعمال مرافقهم ، ومنها أحكام الدولة وقوانينها التي يراعيها الإنسان ، ويتقيَّد بها ليسود الأمن ، ويعمَّ السلام في البلاد ، فلا يقع فيها الفساد والفوضى التي تنتهي إلى الهرج ، والمرج ، والهلاك ، والدَّمار. والضرب الثالث: (الأخلاق) وهي القيود التي توجب الآدابُ التقيُّدَ بها ، وإن لم تفرض على الناس بالتشريع وأحكامه القانونية ، وباتباعها تطهر القلوب ، وتزكو النفوس ، ويرتفع مستوى المجتمع البشري ، ويتقدَّم في إنسانيته. وهذه الأربعة ـ الإيمان ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ـ هي التي تهيىء للمجتمع أسباب النجاة.

سادتي وإخواني! سامحوني إذا قلت لكم: إنَّ التبتلَ في الدنيا ، والعزلة عن المجتمع ، وحبَّ الخلوة عن الناس ولو لذكر الله ليست مما يحتمه الإسلام ، ويدعو إليه ، والإسلام نشاطٌ دائمٌ ، وجهادٌ طويل ، لذلك تراه يحثُّ المسلمين على أن يكونوا دائماً في عملٍ ، وسعيٍ ، ونشاطٍ ، وذلك ينافي السكون الدائم ، والانصراف عن الحركة والعمل ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثِّر: ٣٨] ، فالعزلةُ عن الناس ليست من الإسلام ، بل من الإسلام الإقدام في معترك الحياة ، واقتحام حلبة الحركة ، والزِّحام لنشر دعوة الحقِّ والخير ، وإصلاح البشر ، وبين أيديكم التأسي برسول الله ﷺ ، وما كان عليه أصحابه ، فإذا عملتم كما عملوا ، وجاهدتم كما جاهدوا ، وثابرتم على إقامة الحق ، كما ثابروا؛ كنتم مسلمين حقّاً ، كما كانوا ، وكتب الله لكم مثل الذي كتب لهم من الفلاح في الدُّنيا ، والنَّجاة في الآخرة.

إن محمداً ﷺ لم يَدْعُ إلى مثل ما دعا إليه (بوذا) من هجر الدنيا ، ومعارضة الفطرة بقمع الشهوات ، ومحاولة انتزاعها من النفوس ، بل دعا إلى تعديلها ، وتسكين ثورتها ، والحدِّ من شططها ، والإسراف فيها.

ولم يَدْعُ إلى مثل ما يقال عن دعوة المسيح من احتقار الثروة والقوة ، بل دعا إلى تحرِّي الطرق الصالحة في الحصول عليهما ، وفي حسن استعمالهما.

إنما الإسلام إيمانٌ بالحقِّ ، وعملٌ به ، ولذلك تفاصيلُ ، وفروعٌ ومساعٍ

متنوعةٌ ، وجهادٌ عظيمٌ ، وكفاحٌ متواصل ، فتركُ العمل عكس ما جاء به الإسلام ، والدِّين الذي يأمر بالفرائض لا يعقل أن يرضى بالإعراض عنها. وإن شئتم تفصيل ذلك فاقرؤوا سيرة الرسول ، وادرسوا تراجم أصحابه ، أليس الله عز وجل قد وصف نبيه ﷺ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

كان في جهادٍ عظيمٍ ، وكفاحٍ مستمر ، وما برح طولَ حياته الشريفة مختلطاً بالناس متحدثاً إلى أصحابه ، يجالسهم ، ويساكنهم ، ويؤاكلهم ، ويشاركهم، ويلقاهم بوجهٍ طلق ، وقلبٍ نقيٍّ سليمٍ متعلقٍ بالله ، وبما يرضى به الله ، وقد تراه راكعاً ساجداً لله ، كما قد تراه عاملاً ساعياً يبتغي الفضل من الله ، ويكسب رزقه بعمله مع تعلُّق قلبه بربه ، لا يلهيه عن ذلك شيء ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] فهو إذا ذكر الله لا يحمله ذلك على ترك الدنيا والعمل فيها ، وهجر أهله وعياله ، وإذا قام بعمل الدُّنيا لا ينقطع مع ذلك عن ذكر الله بقلبه ، وتَحرِّي مرضاته في كلٍّ ما يعمله.

ألم يأتكم نبأ المسلمين وهم يقاتلون الرُّوم في بلاد الشام؟ إنَّ العدو أرسل عيوناً يتجسَّسون له أحوال المسلمين في معسكرهم ، ولما عادوا إلى قائدهم قالوا: لقد رأينا عجباً ، «إنهم بالليل رهبانٌ، وفي النَّهار فرسانٌ»(١).

إخواني! اليوم آخر عهدي بكم في هذه المحاضرات. وكنت أحسبني قادراً على أن أصف لكم رسولَ الإسلام ورسالته وصفاً كاملاً ، وإني سأوفيهما حقهما مبيناً سيرة الرسول الطاهرة ومناحيها المختلفة في هذه المحاضرات الثمان، وهاهي ذي المحاضرة الثامنة قد انتهت ، وفرغت الآن من إلقائها ، ولكن الرسالة المحمَّدية قد بقيت منها نواحٍ لم أوفِّها حقَّها من البيان.

اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وآله وصحبه وسلم
وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين

* * *

---

(١) قول أسيرٍ روميٍّ في وصف المسلمين أمام هرقل ، [البداية والنهاية ، ج٧ ، ص ٥٢].

فهرس الموضوعات